رفقة عمر

مذكرات انتصار الوزير

(أم جهاد)

ذاكرة فلسطين



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

رفقة عمر

مذكرات انتصار الوزير

(أم جهاد)

رفقة عمر

مذكرات انتصار الوزير

(أم جهاد)



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الوزير، انتصار، 1941 -

رفقة عمر: مذكرات انتصار الوزير (أم جهاد)

280 ص: صور؛ 24 سم. - (ذاكرة فلسطين)

يشتمل على إرجاعات ببليوغرافية وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-436-7

1. الوزير، انتصار، 1941 -- مذكرات. 2. السياسيون الفلسطينيون - مذكرات. 3. الصراع العربي الإسرائيلي. 4. القضية الفلسطينية. 5. فلسطين - تاريخ - القرن 20. 6. فلسطين - أحوال سياسية - القرن 20. أ. العنوان. ب. السلسلة.

956.9405092

العنوان بالإنكليزية

A Lifetime Companionship
Memoirs of Intissar Al-Wazir
(Umm Jihad)

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 9918370 00961 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى

بيروت، كانون الثاني/ يناير 2022

المحتويات

مقدمة

من بين ما يقارب مئتين وخمسين سيرة ذاتية كتبها فلسطينيون، منذ منتصف القرن العشرين فصاعداً، نكاد لا نعثر إلا على عدد محدود من السير التي كتبتها نساء فلسطينيات. ومن أشهر تلك السير النسائية **مذكرات رحلة** (نجوى قعوار فرح – 1957)، و**مذكرات فتاة عربية** (سميرة أبو غزالة – 1960)، و**جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين** (عنبرة سلام الخالدي – 1978)، و**الجذور التي لا ترحل** (ليلى السائح – 1983)، و**رحلة جبلية رحلة صعبة** ثم **الرحلة الأصعب** (فدوى طوقان – 1988 و1993، على التوالي). وفضلاً عن ذلك، ثمة سِيَر أخرى لامعة مثل **القدس وأنا** (هالة السكاكيني – 1990)، و**تيتا وأمي وأنا: ثلاث أجيال لنساء عربيات** (جين سعيد مقدسي – 2004) بالإنكليزية، و**ذكريات من القدس** (سيرين الحسيني شهيد – 2009)، و**بحثاً عن فاطمة: قصة فلسطينية** ثم **مذكرات فلسطينية** (غادة الكرمي – 2014 و2015 على التوالي) بالإنكليزية، و**سيرة غير بطولية** (رندة الخالدي – 2016).

يغلب على السير الذاتية النسائية في فلسطين طابع التحفظ. وهي تكاد تخلو، باستثناء القليل منها، من البوح والاعتراف والتعبير عن الذات، وإزاحة الأستار عن النفس ومكنوناتها، وعن العلاقات الإنسانية المستترة جراء تقيدها بالقيود الاجتماعية. على خلاف ذلك، جاءت مذكرات انتصار الوزير (أم جهاد) مشحونة بالعاطفة تجاه أبو جهاد (خليل الوزير)، فيُلمح في كلماتها كثير من الحنين حين تُسهب في تذكر حكاياتها مع رفيق دربها حتى استشهاده في عام 1988، إذ تروي قصة لقائهما الأول، وهي في الخامسة من العمر، حين ذهبت مع أمها في عام

1946 إلى الرملة لزيارة عمها إبراهيم الوزير، والد أبو جهاد. فتقول: "مش متذكرة من الرملة غير خليل". إنها عبارة شديدة الكثافة ومجللة بالحياء، لكنها ذات أبعاد كاشفة. وفي ما بعد، في غزة، اعترف لها بحبه ليتزوجا في عام 1962. وتعترف: "كنتُ أفتقده وأشتاق إلى رؤيته"، ثم تتثنى في أن تتذكر "اللحظات الحلوة التي عشتُها مع خليل"، وتنبش تفصيلات "سعادة اللقاء بعد طول غياب"، بينما كانت رسائلهما تزحم البريد بين غزة والكويت.

تكمن أهمية سيرة انتصار الوزير في أنها عايشت تحولات سياسية كبيرة، وكانت شاهدة على كثير من المحطات الفاصلة، وتعايشت مع الخطر والحروب والاغتيالات والصراعات الدائرة في كل مكان. في هذه المذكرات تسرد أم جهاد حكاية الشهيد خليل الوزير منذ وصوله مع عائلته من الرملة إلى غزة في عام النكبة، وكيف عمل في بيع أدوات الحلاقة على بسطة صغيرة، كالشفرات والمقصات، ثم انتهى إلى العمل لدى بائع قماش، وما أن جمع بعض المال حتى اشترى كاميرا تصوير، وراح يصوّر حياة اللاجئين الفلسطينيين وأطفالهم وخيامهم ويرسلها إلى الصحف ووكالات الأنباء والمؤسسات الدولية. وهذه التفصيلات جديدة إلى حد كبير حتى على مَن عرف سيرة طفولة أبو جهاد. كذلك تبرز أهمية هذه المذكرات في أنها توثق بدايات تأسيس حركة فتح كما عرفتها أم جهاد، وهي رواية تُضاف إلى كثير من الروايات الأخرى، بحيث يُصبح في إمكان أي مؤرخ حصيف أن يستخلص منها كلها رواية تقارب الحقيقة وتقترب مما حدث في عام 1959، عام التأسيس السري لحركة فتح، وما تلاه من أعوام، على أيدي نفر من الشبان، أمثال ياسر عرفات وخليل الوزير وعبد الله الدنان وعادل عبد الكريم وفاروق القدومي ومنير سويد وصلاح خلف ومحمد يوسف النجار وسليم الزعنون ومحمود الخالدي وحسام الخطيب، وآخرين تزدحم بأسمائهم صفحات الكتاب؛ هذه الحركة التي قُيِّض لها أن تطلق الرصاصة الأولى في مسيرة التحرر الوطني، وأن تملأ سماء العالم العربي بشعلة الكفاح في سبيل عودة الفلسطينيين إلى أرضهم، وأن ترفع شخصيتين منها، ياسر عرفات وخليل الوزير، إلى مصاف كبار قادة التحرر الوطني في العالم، إلى جانب غيفارا ونيلسون منديلا والجنرال جياب وهوشي منه وفيدل كاسترو.



تقصُّ انتصار الوزير في مذكراتها قصة انضمامها إلى حركة فتح، وكيف أقنعها أستاذها فوزي جبر بالانتماء إلى تلك الحركة السرية التي وصلت أصداؤها إليها من خلال مجلة **فلسطيننا - نداء الحياة** التي كان يصدرها في بيروت توفيق حوري وهاني فاخوري (وهما أول لبنانيين ينتميان إلى الحركة)، بإشراف ياسر عرفات وخليل الوزير. وتحاول أن تروي قصة حركة فتح، أو قصتها في حركة فتح، كما عاشتها واطّلعت عليها، لم تكن مجرد زوجة لأبو جهاد، بل زوجة ومناضلة تحمّلت مسؤوليات عسيرة وكثيرة، أكان ذلك في مرحلة النضال السري أم في مرحلة النضال العلني، وهي أول امرأة تلتحق بحركة فتح. ومن غير المؤكد، بشكل جازم، إذا كانت المناضلة توحيدة وافي قد انضمت إلى حركة فتح على يديها أم معها. ومهما يكن الأمر، فهما أول امرأتين تنضمان إلى الحركة. وأم جهاد هي التي أسست أول خلية نسائية حركية في سورية، مؤلفة من لوسيا حجازي ووجدان عاصي وابتسام الترك وحسناء بكداش، ثم التحقت بالخلية مريم الأطرش وسهام أبو النور ونبيلة النمر وفاطمة العبد الله. وقد تمكنت تلك الخلية من تنظيم دورة عسكرية نسوية في معسكر الزبداني في عام 1966، ضمت نحو 150 فتاة. وفي هذا السياق، تولّت أم جهاد قيادة قوات العاصفة مؤقتًا، فترة وجيزة، غداة اعتقال أبو عمار وأبو جهاد في سورية، بعد حادثة مقتل النقيب الفلسطيني في الجيش السوري يوسف عرابي، والضابط الفتحاوي محمد حشمة.

غادرت انتصار الوزير مدينة غزة في عام 1962، ولم تلبث تلك المدينة العصية والصامدة أن وقعت تحت براثن الاحتلال الإسرائيلي في عام 1967. وبين هذين التاريخين لم تعرف الاستقرار، بل ترحلت بين الكويت والجزائر ولبنان وسورية والأردن وتونس، إلى أن تمكنت من العودة في تموز/يوليو 1994، بعد اثنين وثلاثين عامًا أمضتها في الغربة والمنافي. وبين خروجها من فلسطين وعودتها إليها، شهدت بعينيها كيف تناوب القَتَلة الإسرائيليون على جسد خليل الوزير، فخرّقوه بالرصاص، وهو ليس زوجها فحسب، بل رفيق كفاحها وشريكها في دروب النضال وقائدها. ومن آلام ذلك الزمان أن ابنتها حنان شاركتها في رؤية ذلك المشهد المروّع، بينما كانت أصوات الطلقات تدوّي في أذني ابنها نضال الثاني الذي كان ما يزال يحبو. وها هي اليوم تسرد ذكرياتها وتجربتها بألقها

والمها؛ كم رفيق لها استُشهد، وكم مناضلة سُجنتْ وتعرّضت للتعذيب، وكم أخٍ لها أُسر وذاق صنوف العذاب وأفانين العَسْف!

وختامًا، فالشكر موصول للزملاء صقر أبو فخر الذي راجع المخطوط، وأحمد جميل عزم الذي تابع مراحل إعداده منذ بدايته، وأشرف عليه، وعايدة الحجار التي أعدّت المقابلات الشفوية استيضاحًا لبعض الفقرات والحوادث، ونوار ثابت المحررة الرئيسة له، وعلي حامد الذي ساهم في إعداد التراجم، ومنى عوض الله التي أنجزت المراجعة النهائية له. إليهم جميعًا كل الشكر على النصيحة الصادقة والملاحظات القيمة التي ساهمت في إثراء هذا النص.

تبقى الإشارة إلى أن هذه المذكرات هي مذكرات انتصار الوزير، مضمونًا ولغة، فهي مكتوبة بأسلوبها المميز، وتعابيرها الخاصة بها. وقد كتبت تاريخًا بروح العاطفة التي عاشتها، والنضال الذي خاضت غماره، ولا شك أنها إضافة مهمة في تاريخ الثورة الفلسطينية، وإضاءة على دور المرأة فيه.

تمهيد

"مرَّ عشرون قمر
وحياتي تستمرُّ
وتلفُّ الريح أيامي على الدرب العصي
مع شعبي، ويلاقينا على حافاتِهِ
صخرٌ وأشواكٌ وصَلْبٌ
وحياتي مع شعبي تستمر"
فدوى طوقان

راودتني فكرة كتابة مذكراتي، وتوثيق محطات حياتنا النضالية والعائلية أنا وخليل، وبدايات الثورة الفلسطينية، منذ زمن بعيد. وكنت، وعلى مدى الأربعين عامًا الماضية، كلما أمسكت القلم لأبدأ الكتابة، أجد الصور والذكريات واللحظات تتزاحم أمامي، فلا أعرف من أين أبدأ، وكيف أسرد القصص والمواقف واللحظات التي عشتها بلا انتقاص من قوة حضورها وتأثيرها في مجريات حياتنا. وفي كل مرة كنت أعايش تلك اللحظات وأعيشها من جديد، بحلوها ومرها، فأغرق في تفاصيلها، وتتأجج مشاعري، وتستوقفني لأغوص في الذكريات، وأوقف الكتابة، لأعيد الكرة بعد فترة.

وبعد أعوام من التردد، وبدعم وتشجيع من الأبناء والأهل، والإخوة الحريصين على توثيق تاريخ هذه الثورة، قررت أن أجمع ما كتبته خلال الأعوام الماضية وأستكمله، وأنشر ما لدي من ذكريات في هذا الكتاب؛ ليبقى تاريخ ثورتنا، ونضالنا، وعملنا المتواصل لتحقيق أحلام شعبنا بالحرية، حاضرًا.

ليس سهلاً أن نختزل حياتنا ونضالنا في بضع صفحات، فمسيرة حياتنا مليئة بالتفاصيل؛ بعضها جميلة، تذكّرني بتلك اللحظات الحلوة التي عشتها مع خليل بعيدًا عن كل شيء، أو سعادة اللقاء بعد طول غياب، وعودته إلينا سالمًا، أو أخبار نجاح المهمات أو العمليات التي كُلِّف بها الإخوة، أو انتصارات حققناها خلال مسيرة الثورة. وبعضها مرة؛ ترهقني وتؤلمني. ولا يغيب عن خاطري أبدًا حجم ألم فراق والغياب والمعاناة والتضحية التي عاشها شعبنا، وخسارتنا زملاء بين الشهادة أو الأسر.

جاء هذا الكتاب ليلقي الضوء على رحلة حياتي مع رفيق دربي خليل الوزير (أبو جهاد)؛ خليل الذي أثّر فيَّ منذ لقائنا الأول في الرملة، وأنا ابنة خمسة أعوام، خليل الذي انتمى بجوارحه كلها إلى الوطن، خليل الذي دعمني وآمن بعملي ودوري طوال مسيرة حياتنا، ونحن نحلم بالوطن والحرية، خليل الذي عاش المعاناة مع أبناء شعبه، من اللجوء إلى المطاردة والسجن والشتات والحرب والاستهداف والاغتيال، خليل الذي رفض أن يقف على الهامش بينما وطنه يُغتصب، وشعبه يُجرّد من حريته، خليل الثائر منذ صباه، وهو الذي تعاهد بالدم مع رفيق دربه أبو عمّار على شاطئ البحر، وفجّرا الثورة الفلسطينية المعاصرة، وبقيا رفيقَي درب حتى النهاية.

وبينما كتبت في هذا الكتاب عن أهم المراحل واللحظات التي عشناها خلال مسيرة النضال، أردت أن أوثّق تجربتي الشخصية، وتطوّر دوري؛ من طالبة ثانوية استلهمت القوة والحلم من حالة الاضطهاد واللجوء الذي عاشها شعبنا، وروح الشباب الثائر، وكتابات مجلة فلسطيننا - **نداء الحياة**، إلى الانتماء الكامل إلى فكرة الثورة، والانخراط بالنضال في مراحله المبكرة من العمل السري، واستمرار النضال على مدى خمسين عامًا.

خلال هذه المسيرة، لم أكن قط المرأة أو الزوجة التي تقف على هامش الحلم بالحرية أو النصر؛ فمنذ اللحظة الأولى التي تعاهدنا بها أنا وخليل على حب فلسطين، أصبح الوطن والعمل لخدمة شعبنا عنوان حياتنا، كلٌ في مجاله؛ فمن طباعة البيانات، إلى إيصال الرسائل والسلاح إلى كوادر الحركة، إلى معسكرات

التدريب، إلى المساهمة في بناء التنظيم النسائي، إلى تحمّل مسؤولية قيادة الحركة، عندما كان قادتها في سجون سورية، إلى رئاسة مؤسسة أسر الشهداء والأسرى والجرحى، إلى عضوية المجلس الثوري واللجنة المركزية لحركة فتح، وعضوية المجلس الوطني الفلسطيني، وصولًا إلى مواقع تبوأتها بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، فكنتُ أول وزيرة للشؤون الاجتماعية، وعضو المجلس التشريعي الفلسطيني، ورئيسة الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية. مواقع عديدة عملت من خلالها على خدمة أبناء شعبنا وقضيتنا وثورتنا.

لم تكن حياتنا عادية، بحسب المقاييس المعروفة، وخاصة بسبب تفرّغ كلانا للعمل الوطني، وكان عملنا تحوطه السرية التامة. تنقلنا كثيرًا لضرورات العمل، أو بسبب الحروب أو الملاحقة أو الإبعاد، بين غزة والكويت والجزائر ولبنان ودمشق والأردن وتونس وبغداد، هذا التنقل الدائم أصبح جزءًا من حياتنا وحياة أولادنا. وكحال أبناء الثورة، لم نعرف الاستقرار، إلا أننا استطعنا إكمال مهماتنا أينما كنّا، وحوّلنا منزلنا إلى قاعدة عمل، نعمل مع رفاقنا كخلية نحل، عيوننا دائمًا على فلسطين، وطننا الوحيد.

تداخلت حياتنا العائلية والنضالية بشكل كبير، فأبناؤنا كانوا أبناء الثورة، ولعلّي لم أتحدث بإسهاب عن الأولاد؛ جهاد وباسم وإيمان وحنان ونضال الذين عاش كلٌ منهم تجربة عائلتنا وحياتنا ونضالنا بطريقته، وشكّل منها ذكرياته الخاصة، تلك التجارب والذكريات التي ساهمت بشكل كبير في بلورة شخصياتهم في معسكرات التدريب، وفرق الدبكة، واتحاد الطلاب الفلسطيني، والمجالات الثقافية والوطنية الأخرى.

لم تكن نيتي، في صفحات هذا الكتاب، أن أقدم أي تحليلات سياسية للأزمات أو المواقف التي مرت بها الثورة الفلسطينية، وإنما حاولت سرد تجربتي الشخصية، وأهم ما عايشته خلال تلك المراحل. وهنا، لم يكن إغفالي ذكر أي شخص من الإخوة أو الأخوات في هذا الكتاب انتقاصًا من دور أي منهم في تاريخ الحركة، أو نضالهم أو عطائهم؛ إذ ساهمت أعوام العمل والنضال الطويلة بنسج علاقات نضالية وأخوية مع العديد من الذين رافقونا في مسيرة النضال؛ فمنهم من

استشهد، ومنهم من توفي، ومنهم من اختار طريقًا آخر، ومنهم من لا يزال يشكّل جزءًا أصيلًا من حياتنا، وأكنّ لهم جميعًا محبة واحترامًا وافرين.

كما أنني أردت لهذا الكتاب أن يكون شاهدًا على بدايات الثورة بشكل خاص، لذا، تعمقت في الحديث عن البدايات؛ العمل السري في غزة، رحلة شهر العسل إلى الضفة، والتي كان هدفها بالأساس الالتقاء مع الخلايا التنظيمية هناك، مرحلة الكويت والجزائر، وأهمية العمل في الجزائر، وفيها كان أول مكتب لحركة فتح، الخلية الأولى، الانطلاقة، ثم مرحلتَي سورية ولبنان، والحرب، والانشقاق، والأردن، وصولًا إلى بغداد وتونس. خلال تلك الأعوام، عشت لحظات تاريخية فارقة، لعل أصعبها وأقساها كان يوم اغتيال أبو جهاد. كان اغتياله لحظة فارقة، ليس فقط في مسيرة حياتي، وإنما في مسيرة الثورة الفلسطينية، فهناك تاريخ لما قبل اغتيال أبو جهاد، وهناك تاريخ لما بعده.

كما شكّلت عودتي إلى أرض الوطن في تموز/ يونيو 1994، بعد توقيع اتفاق أوسلو، لحظة فارقة أخرى في مسيرة حياتي. تلك العودة الحلم الذي عشته بعيون خليل الغائب الحاضر دومًا في قلبي وقلوب أبناء شعبنا. ولعلي أكمل الكتابة في المستقبل بشكل تفصيلي عن المراحل اللاحقة حتى يومنا الحالي. كتبت لنحافظ على تاريخ ثورتنا للأجيال الحاضرة والقادمة، هذا التاريخ الذي لن يغيب بغياب القادة، فكلٌ ترك بصمته في صفحة النضال التي لن تمحى.

باعتباري مناضلة، وأمًا، وزوجة خليل الوزير ورفيقة دربه، أحمل معي ذكريات حياة مليئة بالتحديات جعلتني أصلب، لأكمل المسير حتى تتحقق أحلام شعبنا بالنصر والحرية وبالوطن الذي ناضلنا وضحينا لأجلها. مسيرتنا لم تنتهِ، فما زال الطريق طويلًا لتحقيق أهدافنا، ولعل الأجيال القادمة تقرأ تاريخنا وتكمل المسير.

الفصل الأول

البدايات

الرملة "مش متذكرة غير خليل"

نصح الطبيب والدتي - وكانت تعاني مرض الربو - بالخروج من غزة، على أمل أن تتحسن حالتها. قررت الذهاب إلى الرملة[1] التي تمتاز بمناخها المعتدل، وهو جزء من مناخ السهل الساحلي الفلسطيني، حيث تسكن عائلة عمي إبراهيم الوزير، شقيق والدي. رافقتها في تلك الزيارة، وقد كنت طفلة من مواليد الثاني عشر من كانون الأول/ ديسمبر 1941، ولم يكن عمري يتجاوز الخمسة أعوام حينها.

في سياق استرجاع تلك الرحلة، يلمع في ذاكرتي ابن عمي، فأقول: "مش متذكرة من الرملة غير خليل". قابلته أول مرة أثناء تلك الزيارة في مدينة الرملة، صيف عام 1946. ابن عمي هذا هو خليل الوزير[2] الذي سيصبح في ما بعد أحد أبرز مؤسسي الحركة الوطنية الفلسطينية الحديثة، والرجل الأول والأخير في حياتي وتاريخي.

---

(1) الرملة: مدينة فلسطينية أسسها الأمويون، تقع على بعد 38 كيلومترًا شمال غرب القدس. احتُلت، وهُجّر أهلها في تموز/ يوليو 1948، وصودرت معظم أراضيها.

(2) خليل إبراهيم محمود الوزير (أبو جهاد) (1935-1988): وُلد في الرملة لعائلة من أصول غزيّة. انتقل وعائلته إلى غزة بعد احتلال الرملة، وأنهى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها. في عام 1953، انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في غزة، وشارك في عمليات عسكرية. التحق بجامعة الإسكندرية ليدرس الصحافة، إلّا أنه لم يُتمّ تعليمه، وانتقل وعائلته إلى السعودية ثم إلى الكويت، وهناك بدأ تشكّل النواة الأولى لحركة فتح، فكان أحد مؤسسيها. ترأس مكتب الحركة في الجزائر بين عامي 1963 و1965، ثم غادرها إلى سورية مع بدء الكفاح الفلسطيني المسلّح. وكان عضوًا في القيادة العامة لقوات العاصفة، واللجنة المركزية لحركة فتح منذ تأسيسها، ومفوضًا للقطاع الغربي المسؤول عن الأرض المحتلة، كما كان عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني في معظم دوراته، وعضوًا في المجلس العسكري الأعلى للثورة الفلسطينية، وعضوًا في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، ونائبًا للقائد العام لقوات الثورة. اغتيل في بيته في تونس، بتاريخ 16/ 4/ 1988.

انتقلت عائلة الوزير إلى غزة، وسكنت فيها قادمة من اليمن، وبمرور الزمن، ولظروف تبدو اقتصادية، بسبب حدوث مجاعة، تفرّقت العائلة، فبقي جزء من العائلة في غزة، وانتقل الجزء الآخر إلى الرملة وحيفا ويافا. بقي والدي في غزة، وذهب عمي إبراهيم إلى الرملة، أما أعمامي خليل وشاكر، فقد انتقلوا حينها إلى حيفا ويافا.

سكنت عائلة عمي أبو خليل في الرملة، في منزل مكوّن من طابقين، إضافة إلى طابق أرضي مظلم، وكان، على ما يبدو، لتربية المواشي والدواب، كما كانت تُبنى أغلب البيوت العربية في تلك الفترة. عمل عمي إبراهيم في دكانة (بقالة) صغيرة يملكها بالقرب من المنزل. عملت عائلة الوزير في الرملة في حمام تركي يقع في شارع عمر بن الخطاب بالمدينة، ولم يكن الحمام ملكًا لأعمامي، بل كانوا يعملون فيه، ولا تزال بعض آثار الحمام وأجزاء منه موجودة حتى الآن.

قضيت أغلب أوقاتي في تلك الزيارة باللعب مع أبناء عمي خليل وغالب ومنذر وزاهرة، وكان خليل نشيطًا جدًا وكثير الحركة؛ يطلب منهم جمع أغطية علب المشروبات الغازية التي كانت تُسمى "كازوزة" من الطرقات، ليصنع منها ما يشبه الزلاجات باستخدام خرق تلك الأغطية ووضع مطاطة فيها، ولفّها على بكرة خياطة فارغة. وكان بالقرب من المنزل شارع مرتفع، إذ توضع العجلة على ناصيته، ويقف أحدهم عليها وينزل بها حتى نهاية الشارع، وتتعالى ضحكاتهم.

جاء موسم النبي روبين[3] أثناء وجودنا في الرملة، وهي مناسبة ينتظرها الأهالي، وخاصة الأطفال، بفارغ الصبر، في كل عام. وأذكر خليل وغالب وهما يساعدان والدهما، عمي إبراهيم، في نصب الخيمة في منطقة رملية، وكيف كنّا نمضي النهار؛ نتجول في الأسواق والتجمعات في الساحات العامة لمشاهدة الكشّافة وحملة الرايات والفرق المختلفة؛ نشاهد الخيول ترقص على الموسيقى، والأكروبات، والفرق الشعبية وأهازيجها، ونلعب على المراجيح في الساحات.

(3) موسم النبي روبين: يُقام الاحتفال في قرية النبي روبين غرب مدينة الرملة وجنوب مدينة يافا، وهو موسم تراثي فلسطيني سنوي يبدأ مع ظهور هلال شهر آب/ أغسطس من كل عام. وبدأ الاحتفال بهذا الموسم في أواخر القرن الثالث عشر، زمن صلاح الدين الأيوبي.

دخلت إلى المدرسة، الصف الأول، بعد العودة من الرملة في مدرسة كليّة غزة[4]، وهي مدرسة خاصة وموجودة إلى الآن، أنهيت فيها الصف الأول والثاني. انتقلت، لاحقًا، إلى مدرسة الحكومة الإعدادية، وأنهيت المرحلة الابتدائية والإعدادية فيها. وأكملت المرحلة الثانوية في مدرسة الزهراء الثانوية للبنات، وكان تعليم الفتيات، حينئذٍ، ظاهرة منتشرة في قطاع غزة.

كان الزي المدرسي في المرحلة الابتدائية والإعدادية؛ المريول الأبيض المقلّم بالكحلي. أما في المرحلة الثانوية؛ فكنت أرتدي فستانًا رماديًا متوسط الطول، مع حجاب. وكان على جَيب الفستان، اسم مدرسة الزهراء الثانوية مطرّزًا باللون الكحلي.

كانت غالبية الفتيات في غزة، وقتئذٍ، يرتدين الحجاب، وهو عبارة عن ملاية، وغطاء رأس (منديل أسود سميك). واللباس محتشم بحكم العادات والتقاليد. أما أنا، فقد كنت أغطي رأسي ووجهي بمنديل أسود شفاف، اعتُبِر، حينها، حجابًا غير تقليدي. لم يكن والدي رجلًا متعصبًا، على العكس، أذكر أنه عندما كنت أذهب معه لاستقبال أخوتي وعائلاتهم عند محطة القطار، في رفح، عائدين من السعودية، يرفع الحجاب عن رأسي فور مغادرتنا مدينة غزة، ويضعه في جيبه طول الطريق، ولا يطلب مني أن أضعه مجددًا إلا عند عودتنا إلى غزة.

سكنت عائلتي في غزة في حارة بني عامر، حي الدرج[5]، بالقرب من خزّان الماء "حاووز المي"، خلف مدرسة البلدية ومدرسة الزهراء. عمل والدي في الحمام التركي، ولم يكن ملكًا له في البداية، لكن بعد عمل إخوتي في السعودية، أصبحوا يرسلون إليه المال لشراء حصص في الحمام، حتى أصبح ملكًا للعائلة. كذلك، يملك والدي أرضًا مساحتها ستة دونمات تحيط بمنزلنا، زرعها بجميع

(4) كلية غزة: أسسها الأستاذان شفيق ووديع ترزي في عام 1942، وهي أول مدرسة خاصة في قطاع غزة للتعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي، وفيها قسم داخلي مخصص للطلبة من خارج قطاع غزة.

(5) حي الدرج: أحد أحياء مدينة غزة. سُمي بهذا الاسم نسبة إلى التدرج الطبوغرافي وكثرة الأدراج المؤدية إلى بيوت الناس فيه. يقع حي الدرج وحي الصبرة الذي سكنه خليل الوزير وعائلته، ما بين حي الرمال والبلدة القديمة.

أنواع الخضروات والحمضيات؛ من موز ورمان وبرتقال وخضار. وكان هناك أكثر من 15 شجرة تين من الأشجار المعمرة، وغيرها الكثير، تكفي لتموين البيت، ويوزع جزءًا منها على الجيران أيضًا.

زرع والدي الدخان (التبغ)، وأذكر كيف كنت، وأبناء الجيران، نساعده في ذلك؛ بجلب الشتلة، ويحفر لها حفرة، ويضعها داخلها، ويمهّدها، ثم يقوم أحد الأولاد بريّها، ثم ننتقل إلى زراعة شتلة ثانية، وهكذا. تُترك الشتلات حتى تنضج عندما تصفّر أوراقها، فنجمعها في القفّة[6]، ثم نصعد بالأوراق إلى المنزل، حيث تجتمع نساء الحارة ويقمنَ بشك الأوراق باستخدام إبرة كبيرة وخيطٍ سميكٍ، ثم نقوم، نحن الأطفال، بنشر الأوراق المشكوكة على سطح منزلنا، ونستمر بتقليبها تحت أشعة الشمس حتى تجف، بعد ذلك نقوم بتخزينها في صناديق خاصة حتى يحين بيعها لمصانع السجائر. وكان أبي يوزّع الدخان على الجارات اللاتي ساعدننا، حصة لهن، مقابل عملهن.

شارك والدي في عدد من دورات الزراعة وتربية النحل في كلية فلسطين التقنية - خضوري[7] في طولكرم، حيث استفاد منها في تطوير خبرته وعمله في تربية النحل، وكان يستخرج أفضل أنواع العسل ويبيعها في تنكات، وقد عُرف عن "عسل الوزير" بأنه من أجود أنواع العسل في تلك الفترة، حيث اشتُهرت غزة بالعسل، والسبب كثرة أشجار البرتقال والحمضيات. وقد عمل والدي مفتشًا على العديد من المناحل في مختلف أرجاء قطاع غزة.

والدتي صبحية سليم الوزير، وهي ابنة عم والدي، تربّت في منزل والدي منذ كان عمرها 9 أعوام، والسبب هو أنّه بعد وفاة جدي (والدها)، أرادت والدتها

(6) القفّة: وعاء لحمل البضائع وغيرها.

(7) كلية خضوري: أُسست في عام 1931 في طولكرم، بتبرع من إيلي خضوري، وهو يهودي بريطاني ثري. في عام 1948، تبعت وزارة التربية والتعليم الأردنية، وفي عام 1961، تم رفع مستوى مدرسة خضوري الزراعية إلى كلية زراعية متوسطة، وأصبح اسمها كلية الحسين الزراعية، وكانت مدة الدراسة فيها عامين. وفي عام 1968، بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية، تم تغيير اسمها إلى المعهد الزراعي - طولكرم. في عام 1994، انتقلت مسؤولية الكلية إلى السلطة الوطنية الفلسطينية، وأُلحقت بوزارة التربية والتعليم العالي، وأصبح اسمها كلية فلسطين التقنية - خضوري.

(جدتي نوارة)، الزواج من رجل غريب عن العائلة، فاضطُرت إلى ترك ابنتها صبحية وشقيقها الأصغر عبد الله عند والدي لرعايتهما. وكان والدي رجلًا ملتزمًا دينيًا، فعقد قرانه على والدتي وهي في عمر التاسعة، ولكن لم يكن ذلك غير عقد شكلي حتى تتمكن من البقاء في بيته، إلا أنه تزوجها فعليًا عندما بلغت سن الثالثة عشرة، حيث أعاد عقد القران حينئذٍ.

وُلد أبي في عام 1890، وهو يكبر والدتي بحوالى تسعة أعوام. أما بالنسبة إلى خالي عبد الله، فقد عاش معنا طوال حياته، وظل ملازمًا لوالدي في المنزل والعمل.

بعد زواج جدتي لأمي، نوارة، من ذلك الرجل، عادت بعد وفاته لتعيش في منزل والدي. كانت جدتي نوارة من النساء الجميلات؛ إذ اشتهرت ببياض بشرتها وعيونها الزرقاء، وكنت مقرّبة منها جدًا، خاصة وأنني الطفلة المدللة بالبيت باعتباري آخر العنقود. كانت دائمًا تصطحبني معها في الزيارات، وأذكر، بشكل خاص، زيارتها السنوية لعائلة زوجها المتوفي، في منطقة الشيخ عجلين[8]، حيث كنت أرافقها سنويًا في هذه "الشطحة" أي الرحلة، على ظهر الجمل، لنعبر التلال الرملية التي تشبه الذهب على طول الطريق.

النكبة 1948: ذكريات طفلة عن الحرب

أذكر الحرب جيدًا، وحالة الخوف التي عاشها الجميع في تلك الفترة. من أولى ذكرياتي عن النكبة، سماعي لانفجار كبير في منطقة تُسمى المحطة، حيث كنا نلعب في الحارة مع الأطفال. لا أزال أذكر أعمدة الدخان المتصاعدة من هذا الانفجار، وكيف تناقل الناس الروايات عما يحدث من تهجير ومجازر، وكيف بدأ اللاجئون يتوافدون إلى قطاع غزة.

حالة التشتت والتهجير عمّت البلاد بأكملها، تشردت العائلات، وأمضى اللاجئون أيامهم الأولى في غزة بحثًا عن المفقودين؛ فهناك من تبحث عن

(8) الشيخ عجلين: أحد أحياء مدينة غزة، يقع على الطريق الساحلي إلى الجنوب الغربي لمدينة غزة، على ربوة عالية أشبه بالجرف.

أولادها، وأخرى تبحث عن زوجها، وهناك من استُشهد أو اعتُقل. ولي ابنة عم، اسمها شِفا حامد الوزير، كانت قد هاجرت من مدينة يافا إلى بيروت على متن إحدى السفن، إلا أن تلك السفينة قد فُقدت، ولم تعرف العائلة عن ابنة عمنا أي معلومات لفترة طويلة. واستمر البحث عنها أشهرًا عدة، إلى أن وُجدت أخيرًا عن طريق الصليب الأحمر، في إحدى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين في القاهرة.

حدّثني خليل عمّا حصل في مدينة الرملة أثناء الحرب، وكان عمره ثلاثة عشر عامًا عند وقوع النكبة. بعدما سمع أهالي المدينة بما حصل من مجازر واعتداءات في المدن الأخرى، قرروا الدفاع عن مدينتهم والتصدي للأعداء، من خلال تشكيل لجان للدفاع عن المدينة، وتوزيع الشباب وتدريبهم ضمن صفوف المقاومة، وحفر خنادق حول المدينة، ونصب كمائن للصهاينة. أذكر وصفه لبداية هجوم العصابات الصهيونية على مدينة الرملة، فقد تعرضت المدينة لقصف مدفعي شديد دفع الأهالي للاحتماء داخل كنيسة الرملة عدة أيام، استمر خلالها القصف المدفعي والاشتباكات بالرصاص الحي، وكان خليل يختلس النظر من شباك الكنيسة، فيرى الجثث الملقاة على الأرض، ويسمع أنين الجرحى.

بعد عدة أيام صعبة، سقطت مدينة الرملة[9]، وسمع الأهالي نداءً من مكبرات الصوت موجهة إليهم، تطالبهم برفع الأعلام البيضاء والتجمع في الساحة. خرجت عائلة عمي من الكنيسة، وتوجهوا إلى منزلهم لإحضار بعض الطعام والملابس. حمّلت الحاجة أم خليل ابنها خليل صُرّة فيها بعض الأرغفة وقطع الجبن، وعندما وصلوا الساحة، وكانت مليئة بسكان المدينة؛ نساءً ورجالًا وكبار السن وأطفالًا، والجنود يدفعون الناس لركوب الحافلات.

أمرهم أحد الجنود بترك ما يحملونه على الأرض، ودفع خليل ووالدته إلى داخل الحافلة، إلا أن خليل أصرّ على أخذ صرّة الطعام معه خوفًا على إخوته من الجوع، فنزل من إلى الرصيف وأخذ الصرّة وعاد مسرعًا إلى الحافلة، فلحقت به

(9) سقطت مدينة اللد، ثم مدينة الرملة في تموز/يوليو 1948، وفي اليوم الثالث عشر من الشهر نفسه، هجّر الإسرائيليون سكان المدينتين، بعد ارتكاب مجازر دموية بحقهم.

والده عندما رأت أحد الجنود يصوّب بندقيته على ابنها، وسحبته إلى صدرها. في تلك اللحظة، أطلق الجندي عليه النار، فأصابت الرصاصة ابن الجيران، وقد التقاه بعد أعوام وقال له: "لقد فديتك برصاصة برجلي يا خليل".

تحركت الحافلات من الرملة وأنزلتهم بالقرب من منطقة اللطرون[15] ليكملوا السير على أقدامهم، فتلاحقهم نيران المدفعية التي حصدت أرواح الكثيرين حينها، إلى أن وصلوا إلى منطقة وجود الجيش الأردني الذي نقلهم إلى مدينة رام الله بسياراته. ومن رام الله، توجهوا إلى مدينة غزة عن طريق مدينة الخليل، حيث رحّب بهم أهلها، وقدّموا لهم الطعام والماء والغطاء. قضوا ليلتهم تحت الأشجار، حتى يغادروا في صباح اليوم التالي إلى غزة.

في تلك الليلة، وصل عمي إبراهيم وعمي شاكر وعمي خليل وعائلاتهم إلى غزة، واكتظ البيت بهم.

كان بيتنا يقع في منطقة بني عامر، حي الدرج، وهو كبير، والطريق منحدرة إليه، وكنا ننزل ست درجات عن الشارع للدخول إلى البيت. وهو يتألّف من أربع غرف نوم، وصالة واسعة على طريقة البيوت القديمة، و"قاع الدار"، أو الساحة غير المسقوفة، وكانت دالية العنب تغطي جزءًا كبيرًا منها.

استضاف والدي أعمامي المهاجرين وعائلاتهم. وبعد حوالى شهرين، غادر عمي خليل وعمي شاكر مع عائلاتهم ضمن القوافل التي غادرت إلى الضفة الغربية، بسبب عدم قدرتهم على التأقلم مع الأوضاع المعيشية في غزة، واستقروا في مدينة نابلس، وما زالت العائلة تسكن هناك حتى الآن. كما جاءت، لاجئة من حيفا إلى غزة، زوجة عمي المرحوم كامل الوزير وأطفالها؛ عفاف ومحمد وأحمد وسعيد وعطاف، لكنها لم ترغب بالبقاء في غزة أيضًا، وأصرت على السفر إلى بيروت عند عائلتها، واستقرت في مدينة صيدا، وقد تركت ابنها محمد عند والدي لرعايته وتربيته، خاصة أنه كان شقيًا وكثير المشاكل.

---

(15) اللطرون: قرية فلسطينية مهجّرة، تقع على بُعد 14 كيلومترًا جنوب شرق الرملة.

مكث عمي إبراهيم وعائلته في منزلنا حوالى عام ونصف العام، وعمل مع والدي بالحمام التركي، وبعدها استأجر لهم والدي بيتًا في حي الرمال في منطقة تُسمى الصبرة، فانتقلوا وعاشوا هناك.

بعد وصول الأهل إلى غزة، كان أولاد عمي: خليل، وغالب، ومنذر، وزاهرة، يذهبون إلى أماكن تجمعات اللاجئين في الخيام والمدارس والمساجد التي امتلأت بهم للبحث عن أصدقائهم وأبناء جيرانهم هناك، وكنت أرافقهم في أغلب الأحيان. وقد أدى اكتظاظ اللاجئين في المدارس إلى تعطيلها لفترة زمنية، وبعد أشهر عدة، بدأ العمل على تسجيلهم، من خلال زيارات منزلية يقوم بها بعض الشباب لإحصاء أعدادهم في المدينة[11].

بدأ التدريس، بعد فترة، للاجئين في الخيام. أذكر أنني كنت أقف بباب إحدى الخيام، أنتظر ابنة عمي، فأشاهد الطلاب يجلسون على الحجارة ويتلقون الدروس.

وبعد أعوام، انتقل أبناء عمي غالب وخليل لاستكمال المرحلة الثانوية في مدرسة فلسطين الثانوية، حيث كانت مدارس الوكالة للمرحلة الإعدادية فقط. وأنا أكملت تعليمي في مدرسة الحكومة الإعدادية، ومن ثم انتقلت إلى مدرسة الزهراء الثانوية.

تغيّرت الحياة في غزة بعد النكبة، وأصبح هناك مخيمات في كل مدينة من مدن القطاع. في البداية، سكن بعض اللاجئين في أرضنا بجانب البيت بعض الوقت، ومن ثم انتقلوا إلى الخيام في منطقة الرمال، حين وفّرت لهم وكالة الغوث

---

(11) بلغ عدد اللاجئين في القطاع عام 1948 حوالى214 ألفًا. لجأ المهاجرون إلى أقاربهم، وإلى الجوامع والزوايا والخرائب والحواكير القريبة من البيوت، يقيمون لهم فيها أكشاكًا وخيامًا، وعطّلت المدارس، وأُخليت غرفها لتستوعب مئات العائلات التي لم تجد لها مأوى، ولجأ الكثيرون إلى بقايا المعسكرات البريطانية في البريج والمغازي والنصيرات، وغصّت هذه الأماكن في ما بعد حين نزح أبناء القرى القريبة بعد دخول الجيش المصري وعجزه عن توفير الحماية اللازمة في المرحلة الثانية من الحرب، حين بدأت ترجح كفة إسرائيل. إبراهيم خليل سكيك، **غزة عبر التاريخ قطاع غزة تحت الإدارة المصرية 1948–1957**، ج7 (بيروت: مركز الأبحاث، 1980) ص7.

وتشغيل اللاجئين "الأونروا" الخيام، وبدأت بتوزيع التموين، مثل الطحين والأرز وزيت السيرج والجبنة[12].

عمل خليل، بعد وصوله إلى غزة، في بيع أدوات الحلاقة والمقصات والشفرات، على بسطة صغيرة، كما عمل عند تاجر يبيع القماش لمساعدة العائلة. وعندما جمع بعض النقود، اشترى بها كاميرا من نوع Canon، وكان يذهب إلى المخيمات ويصور حياة اللاجئين ومعاناتهم، والأطفال الممزقة ثيابهم، وكان يجمع الصور ويرسلها إلى المؤسسات الدولية، والصحف، ووكالات الأنباء العالمية.

خلال دراسته الثانوية، تنامى الشعور الوطني عند خليل، وكان جُل تفكيره إيجاد وسيلة لتحرير وطنه، والعودة إلى مدينة الرملة التي هُجّر منها، حيث كانت الساحة الفلسطينية حينها تزدحم بالأحزاب السياسية التي تطرح شعارات مختلفة لتحرير فلسطين، وتستقطب الشباب الفلسطيني، إلا أن خليل قرر الانضمام إلى جماعة الإخوان المسلمين لأنها حملت السلاح، وشاركت في حرب 1948 للدفاع عن الأرض، وقد كان خليل نشيطًا أثناء وجوده في التنظيم، وقد لفت نشاطه وحماسه نظر قيادة التنظيم الذين سلّموه مسؤولية المكتب الطلابي للحركة.

كنت أشاهد خليل، في الكثير من الأحيان، يقود طابورًا من الشباب الذين يركضون خلفه في الشوارع، وكان يعلمهم الانضباط والمارش العسكري. أذكر

(12) كانت الأوضاع، أسوأ كثيرًا بالنسبة إلى اللاجئين الأكثر فقرًا، إذ وصلت معدلات البطالة بينهم إلى 80 في المئة حتى نهاية عام 1960، في مقابل 35 في المئة بين السكان الأصليين، ففي غزة، كما في أماكن أخرى، لم تمدّ السلطات المضيفة بصورة عامة المخيمات بالكهرباء والمياه الجارية والطرق وشبكات الصرف الصحي، فكان للمخيمات التي أدارتها الأونروا دور حيوي في صمود اللاجئين اقتصاديًا من خلال توفيرها السكن المجاني، والمؤن الأساسية، والمرافق، والخدمات الاجتماعية (العيادات والمدارس). كما أن الأونروا وقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة قد وظفتا عددًا كبيرًا من الفلسطينيين (4000)، على الرغم من أن اشتراط معرفة القراءة والكتابة كان عقبة كبيرة في وجه الكثيرين. وباتت الأونروا، إلى جانب تقديمها 75 في المئة من الواردات حتى عام 1954، تساهم في 19 في المئة من الناتج القومي الإجمالي في غزة حتى عام1966، يُنظر: يزيد صايغ، **الكفاح المسلح والبحث عن الدولة الحركة الوطنية الفلسطينية 1949-1993**، ترجمة: باسم سرحان، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2003)، ص 95-96.

منهم: عبد الله صيام[13]، ومنير عجور، وكمال عدوان[14]، وأخاه غالب الوزير[15]، وغيرهم الكثيرون. وقد حدّثني خليل، فيما بعد، أنه كان يأخذهم إلى مناطق السوافي الرملية قرب البحر، لتدريبهم، وكان يساعده في التدريب، في بعض الأحيان، أحد الضباط المصريين، حيث كانا يدربان الشباب على حمل السلاح والمتفجرات والقنابل اليدوية.

كان غالب وكمال وخليل في الخلية نفسها من جماعة الإخوان المسلمين، وكان خليل مسؤول المكتب الطلابي فيها، وكان ملمّا، ومهتمّا بالقراءة، فمنذ خروجه من الرملة ظلت فلسطين والعودة إلى الرملة "معشعشة في رأسه"، حيث إنه كان يتردد على بيت كمال عدوان كثيرًا لأنه كان يمتلك مكتبة كبيرة. وقد استفاد خليل من قراءاته لتطوير التدريبات العسكرية لهذه الخلية.

(13) عبد الله محمد صيام (أبو سالم) (1934–1982): (عقيد) ولد في قرية الجورة في مدينة عسقلان. تلقى تعليمه الأساسي والثانوي في مدارس غزة. انتقل إلى القاهرة ليكمل دراسته الجامعية في تخصص هندسة الطائرات. التحق بجيش التحرير الفلسطيني منذ تأسيسه في عام 1964، وعُيّن في قوات القادسيّة المرابطة في العراق. انتقل إلى قوات حطين في سورية، وعُيّن قائدًا لكتيبة 423 م/ ط. شارك في حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، وشارك في التصدّي للاجتياح الإسرائيلي لبيروت، واستشهد في معركة خلدة على مدخل بيروت.

(14) "أحمد كمال" عبد الحافظ عداون (1935–1973): ولد في قرية بربرة جنوب المجدل (عسقلان) بالقرب من مدينة غزة. تلقى تعليمه الأساسي في قريته، ثم انتقل عقب النكبة إلى غزة وأكمل تعليمه الثانوي في مدرسة فلسطين عام 1954. انضم إلى صفوف جماعة الإخوان المسلمين في عام 1952. التحق بكلية الهندسة في جامعة القاهرة، وتخصص هندسة البترول والمعادن، وتخرج فيها في عام 1961. شارك في الدورة الأولى للمجلس الوطني الفلسطيني في عام 1964. عُيّن مسؤولًا عن مكتب الإعلام في حركة فتح في عام 1968. ساهم في تأسيس جريدة فتح في نهاية ستينيات القرن الماضي. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية في المؤتمر الثالث للحركة عام 1971، وعُيّن مسؤولًا عن القطاع الغربي بين عامي 1971 و1973. اغتيل في حيّ فردان في بيروت، مع كلٍ من أبو يوسف النجار وكمال ناصر، في بيروت.

(15) غالب إبراهيم الوزير (1936–2017): شقيق خليل الوزير. شارك في بدايات العمل الوطني في قطاع غزة. اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلي خلال فترة العدوان الثلاثي على مصر في عام 1956. انتقل للعمل في قطر، وكان عضو لجنة إقليم حركة فتح هناك، وأُبعد إلى دمشق، على خلفية حرقه سيارته أمام السفارة الأميركية، احتجاجًا على الصمت العربي والدولي تجاه حصار بيروت والاجتياح الإسرائيلي للبنان. تولى منصب مدير عام في وزارة الحكم المحلي في السلطة الفلسطينية حتى تقاعده عام 2002.

بعد فترة من انضمامه إلى جماعة الإخوان المسلمين، شعر خليل بعدم جدّية الجماعة بالعمل من أجل تحرير فلسطين كما هو مطروح في أدبياتهم، فقدّم لهم مشروعَ كفاح مسلح، وعندما ناقشوا المشروع، أبلغوه أنهم غير مستعدين للقيام بأي عمل مسلح في تلك المرحلة نظرًا إلى انشغالهم بخلافاتهم مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر. لكنه بدأ بتشكيل خلايا للبدء بالعمليات العسكرية ضد الكيان الصهيوني، وقد نفّذت هذه الخلايا عددًا من العمليات العسكرية، كان أهمها عملية نسف خزان زوهر في 25 شباط/ فبراير 1955[16]، حيث فاضت مياهه وصولًا إلى بحر غزة.

أثناء دراسته الثانوية في مدرسة فلسطين، كان خليل مسؤولًا عن تحرير مجلة المدرسة، واسمها مجلة **فلسطين**، كانت المجلة، بالنسبة إلى خليل، منبرًا مهمتُه زيادة الوعي الوطني لدى الشباب الفلسطيني، من خلال مقالات توعوية ووطنية، كتبها، وأراد من خلالها شحذ الهمم، وتعريف الشباب بآلام الشعب الفلسطيني، وواقع اللجوء، ومعاناة شعبنا، لاستنهاضهم.

وخلال هذه الفترة، وصل محمد رؤوف القدوة (ياسر عرفات)[17]، رئيس

(16) كتب خليل الوزير عن هذه العملية: "من أبرز عملياتنا في تلك المرحلة، كانت العملية المهمة التي نفذّتها مجموعتنا لتفجير خزّان زوهر، وهو جزء من مشروع المياه القطري، وقد توفرت لدينا المعلومات عن هذا المشروع من مصدر وحيد يتمثل بعمليات الاستطلاع التي كانت تقوم بها مجموعتنا في الأراضي المحتلة. وقد قامت مجموعة لنا بزرع عدد من "التنكات" المليئة بمادة T.N.T بتاريخ 25/ 2/ 1955. وقد نجحت عمليتنا هذه بشكل باهر، إذ حين انفجر الخزان، انطلقت منه المياه بشكل هائل، وأذكر أنني كنت في طريقي إلى بيت حانون، وحين أشرفت على الوادي، وجدته ممتلئًا بمياه الخزان التي خرجت لتغطي مساحات هائلة من الأرض المزروعة بالذرة، واستمرت المياه بالتدفق إلى أن وصلت بيت لاهيا لتصب في البحر الأبيض المتوسط". يُنظر: خليل الوزير، "نشوء فتح: البدايات الأولى والظرف الموضوعي"، الدراسات الفلسطينية، العدد 104 (خريف 2015)، ص 61.

(17) "محمد ياسر" عبد الرؤوف القدوة (ياسر عرفات) (1929–2004): وُلد في القدس. شارك في تأسيس رابطة الطلاب الفلسطينيين في جامعة القاهرة. انتقل إلى الكويت مع رفاقٍ له، وعمل مهندسًا هناك. وشهدت تلك المرحلة تأسيس حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح". شارك في معركة الكرامة في عام 1968، وعُيّن بعدها ناطقًا رسميًا باسم حركة فتح. في عام 1969، انتُخب رئيسًا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، وفي عام 1989، انتخبه المجلس الوطني الفلسطيني رئيسًا لدولة فلسطين. عاد إلى فلسطين في عام 1994، بعد توقيعه اتفاق أوسلو في عام 1993، والذي تمخّض عنه السلطة الوطنية =

رابطة الطلاب الفلسطينيين في مصر، وبصحبته سليم الزعنون[18] وصلاح خلف[19]. كان الوفد مبتعثًا من الرئيس جمال عبد الناصر، بعد أن أضربت الرابطة عن الطعام بسبب الهجمات الإسرائيلية المتكررة على أبناء شعبنا في قطاع غزة، وعند وصول الوفد إلى القطاع، ذهب خليل لزيارتهم في مقر إقامة ياسر عرفات، وأجرى معه مقابلة صحفية لنشرها في مجلة المدرسة، وكانت هذه المرة الأولى التي يلتقي فيها خليل الوزير مع ياسر عرفات.

شاركت في تلك الفترة، وربما من دون وعي سياسي كامل بالعمل الوطني،

= الفلسطينية. انتُخب رئيسًا للسلطة الوطنية الفلسطينية في عام 1996. حاصرته قوات الاحتلال الإسرائيلي في مقرّه في رام الله خلال الانتفاضة الثانية التي اندلعت بعد فشل مباحثات كامب ديفيد. توفي في فرنسا، عقب تدهور حالته الصحية وسط حديث عن تعرّضه للتسمّم.

(18) سليم أديب الزعنون (أبو الأديب) (1933-): ولد في مدينة غزة، وتلقى تعليمه الأساسي والثانوي فيها. نال درجة البكالوريوس في القانون في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليًا) في عام 1955. التحق بصفوف جماعة الإخوان المسلمين في أواخر أربعينيات القرن الماضي. انتُخب عضوًا في الهيئة الإدارية لرابطة الطلبة الفلسطينيين في القاهرة، وعُيّن سكرتيرًا عامًّا لها، بين عامي 1953 و1954. عمل مدرّسًا في مخيم البريج جنوب قطاع غزة، مدة وجيزة، في عام 1955. عُيّن وكيلًا للنيابة العامّة في قطاع غزة، ثم عُيّن قائمًا بأعمال النائب العام بين عامي 1955 و1960. التحق بصفوف حركة فتح في عام 1960، خلال عمله في الكويت. عُيّن عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح منذ مؤتمرها الثاني في عام 1969، وعُيّن نائبًا لرئيس المجلس الوطني الفلسطيني في العام ذاته. عُيّن معتمدًا لحركة فتح في أقاليم الخليج وجنوب شرق آسيا في عام 1975. ترأس المجلس الوطني الفلسطيني، بالوكالة، بين عامي 1993 و1996، وانتُخب رئيسًا له في عام 1996.

(19) صلاح مصباح خلف "أبو إياد" (1933-1991): ولد في حيّ الحمام المحروق في مدينة يافا. تلقى تعليمه الأساسي في مدرسة المروانية في مدينة يافا، والتحق بصفوف منظمة النجادة في عام 1945. انتقل، عقب النكبة، إلى قطاع غزة، وأكمل تعليمه الثانوي في مدرسة فلسطين الثانوية، وتخرج فيها في عام 1951. درس الفلسفة في كلية دار العلوم، وحصل على درجة الدبلوم في التربية وعلم النفس من جامعة عين شمس. أصبح رئيسًا لرابطة الطلبة الفلسطينيين في عام 1956. شارك في اللقاءات التأسيسية لحركة فتح، واستمر عضوًا في لجنتها المركزية حتى وفاته. أسس "جهاز الرصد الثوري" في عام 1967، وترأسه حتى عام 1971. ترأس "جهاز الأمن الموحد" التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام 1973. أسس منظمة أيلول الأسود التي اشتهرت بعملياتها الخارجية. كان حاضرًا في غرفة العمليات المشتركة، في مصر، خلال حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973. شارك في المفاوضات بين القوى اللبنانية وبين القوى الفلسطينية إبان الحرب الأهلية اللبنانية في عام 1975. انتقل إلى تونس عقب الخروج من بيروت عام 1982. اغتيل في تونس في 14/ 1/ 1991.

حيث كان غالب وكمال عدوان يطلبان مني أن أقوم بنقل الآلة الطابعة من بيت منير عجور، وهو شاب فلسطيني شارك مع غالب وكمال في العمل الوطني مبكرًا، اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلي عام 1956، وتعرّض لتعذيب شديد، وأُطلق سراحه في ما بعد بتدخل من القوات الدولية. كنت أنقل الطابعة إلى بيت غالب، أحملها على رأسي لطباعة البيانات السياسية في تلك الفترة.

في صبيحة أحد الأيام من عام 1954، جاء عمي إبراهيم وزوجته في الصباح الباكر، الساعة السادسة تقريبًا، على غير عادتهم، فشعرت أن هناك أمرًا غريبًا، لم يكن والدي قد خرج للعمل بعد، فجلسوا في الصالة، وسمعت عمي يخبر والدي أن المخابرات المصرية اعتقلت خليلًا، فأسرع والدي بالخروج من المنزل. وعلمت لاحقًا أنه قام بالاتصال بعدد من وجهاء البلد للتدخل للإفراج عنه، وبعد ثلاثة أسابيع تقريبًا، أُفرج عنه من السجن في غزة بشرط إبعاده إلى القاهرة.

أثناء وجوده في القاهرة، استطاع خليل أن يكمل تعليمه الثانوي، وحصل على شهادة التوجيهي بتفوق، وكان من الأوائل، حيث كان ترتيبه السادس على طلاب مصر وقطاع غزة، ثم عاد إلى القطاع بعد تدخلات كثيرة.

بعد عودته، حدّثني خليل عن سبب اعتقاله وإبعاده عام 1954، قال لي إنه كان قد بعث أحد الشباب الفدائيين في عملية عسكرية لزراعة لغم أرضي عند حدود الأراضي المحتلة عام 1948، لكنه، على ما يبدو، لم يستطع أن يعبر الحدود، فدفن العبوة في حفرة قريبة من الحدود. وفي أحد الأيام، كان أحد رجال حرس الحدود المصريين، ويطلق عليهم "الهجّانة"، يتفقد الحدود راكبًا على الجمل، فداس الجمل على مكان اللغم وتوقف، فنزل الجندي ليتفقد الأرض وقام بالحفر، فوجد اللغم واستخرجه، وذهب به إلى المخابرات المصرية في سرايا غزة لتسليمه.

فحصت المخابرات المصرية اللغم، واكتشفوا أنه صناعة محلية، حيث كانت تميّزه قطعة من الحديد "مصبوبة"، فأخذوها وذهبوا إلى الحدادين في غزة لمعرفة من طلب مثل هذه القطعة. وفي حي الزيتون، كان هناك حدّاد من عائلة الحداد، سأله ضابط المخابرات: "هل تستطيع صنع مثل هذه القطعة؟". فأجاب الحداد:

"نعم". قال له الضابط: "هل صنعت مثلها لأحد؟". أجاب الحداد: "نعم، لشخص لا أعرفه". ابن الحداد كان موجودًا، فقال على الفور: "أنا أعرفه، إنه خليل الوزير، شاب أسمراني رفيع، يدرس معي في مدرسة فلسطين الثانوية".

أخبرني خليل أيضًا، إنه كان يشعر، وشقيقه غالب، أن المخابرات المصرية كانت تراقبهما قبل اعتقاله، وكانت، على ما يبدو، لا تفرّق بين غالب وخليل وتخلط بينهما، فعند اعتقاله، نادى الضابط عليه باسم غالب، فالتفت خليل، فاعتقلوه.

واعتُقل خليل، وكان حينها يحمل مجموعة من الأوراق، وفيها أسماء وتفاصيل نشاطه العسكري، فطلب الذهاب إلى دورة المياه، وأتلف جميع الأوراق قبل أن تصادرها المخابرات. لم يكن حينها يعرف سبب اعتقاله. في غرفة التحقيق، فتح الضابط المسؤول الخزانه وأخرج اللغم، عندها فهم خليل سبب اعتقاله، وبدأ التحقيق معه. وبعد مرور 24 يومًا من التحقيق والاستجواب، حول شركائه، ومن وراءه في هذا العمل، كان خليل يعلم أن صديقه حمد العايدي[20] قد غادر القطاع إلى الضفة الغربية، بعد أن أعلمه أن المخابرات تلاحقه، لذا قال إن حمد العايدي كان معه، وشارك في العمل المسلح، دون أن يعطي أي أسماء أخرى.

وقال لي خليل إنه، أثناء التحقيق معه، شرح للضابط الأسباب الوطنية التي دفعته للقيام بهذه العملية، وإحساسه العالي بضرورة التحرك لتحرير فلسطين. وقد لاحظ تعاطف الضابط المصري معه بعد أن سمع عن معاناة شعبنا وحماسة خليل، مما ساهم بالإفراج عنه في ما بعد.

(20) حمد عبد العزيز العايدي (أبو رمزي) (1936-1993): ولد في مدينة بئر السبع جنوب فلسطين، ثم انتقل إلى قطاع غزة ليُكمل فيها تعليمه الأساسي والثانوي، بعد النكبة في عام 1948. التحق بجماعة الإخوان المسلمين في بداية خمسينيات القرن الماضي. كان له دور أساسي في تفعيل خط المقاومة بين الخليل وغزة عندما تسلل إلى الضفة الغربية في عام 1954، تفرّغ، عقب حرب حزيران/ يونيو 1967، للعمل الوطني والنضالي. عمل في جهاز أمن الثورة تحت قيادة أبو يوسف النجار بين عامي 1971 و1973، ثم ما لبث أن عُيّن نائبًا لرئيس الجهاز، وعضوًا في المجلس الثوري. عُيّن ممثلًا لحركة فتح في جمهورية الصين الشعبية في عام 1973.

وفي 5 نيسان/أبريل 1956، قصفت القوات الإسرائيلية مدينة غزة بقنابل المورتر (الهاون)، في تمام الساعة الخامسة والنصف مساءً، والتي تصادفت مع خروج الرواد من سينما السامر الشهيرة المقابلة للساحة العامة، ما أدى إلى وقوع عشرات الإصابات بين شهداء وجرحى. كان خليل في ساحة المدينة عندما سقطت القذائف، فهرع إلى أول دكان يقابله ليستخدم الهاتف لطلب الإسعاف. وفي تلك اللحظة، سقطت قذيفة على الدكان، لكنه نجا، بينما استُشهد صاحب الدكان واسمه فهد الشوا. كان عدد الخسائر بالأرواح والأضرار كبيرًا جرّاء القصف، على نحو أجج مشاعر الغضب لدى سكان المدينة، وخرجت تظاهرة شعبية كبيرة قادها مجموعة من الشباب، منهم الشاعر معين بسيسو[21]، وفتحي البلعاوي[22]، وكمال عدوان، وخليل الوزير، وغالب الوزير، ورفاقهم، وكانت المسيرة تطالب بتسليح أهالي القطاع للدفاع عن وطنهم وشعبهم.

توجه خليل، في ما بعد، إلى مدينة الإسكندرية، لاستكمال دراسته الجامعية، حيث التحق بكلية الصحافة والإعلام، وأثناء وجوده هناك، وقع العدوان الثلاثي في عام 1956.

(21) معين توفيق بسيسو (1926–1984): ولد في غزة. تلقى تعليمه الثانوي في كلية غزة الثانوية. التحق بقسم الصحافة في كلية الآداب في الجامعة الأمريكية في القاهرة، وتخرج فيها في عام 1952. انضمّ إلى صفوف عصبة التحرر الوطني الفلسطيني في عام 1947. شارك في المؤتمر الأول للحزب الشيوعي الفلسطيني الذي عُقد في قطاع غزة، وانتُخب أمينًا عامًّا له في عام 1953. اعتقلته قوات الأمن المصرية بين عامي 1955 و1957، إثر نشاطه الاحتجاجي على مشروع توطين الفلسطينيين في شبه جزيرة سيناء، وأعادت اعتقاله بين عامي 1959 و1963. ساهم في تأسيس "الإذاعة الفلسطينية" عقب إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية بين عامي 1964 و1967، وعمل في صحيفة الثورة الدمشقية بين عامي 1967 و1968. انتقل إلى القاهرة ليُعيّن محرّرًا للقسم الأدبي في جريدة الأهرام المصرية بين عامي 1969 و1972. وعُيّن مستشارًا ثقافيًّا لرئيس اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية عام 1981. توفي في لندن إثر نوبة قلبية، ودُفن في القاهرة.

(22) فتحي البلعاوي (1929–1996): ولد في قرية بلعا قضاء طولكرم. درس اللغة العربية في الأزهر في القاهرة، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين هناك. كان أحد مؤسسي رابطة الطلبة الفلسطينيين في عام 1951، واختير أول سكرتير لها. كان له دور بارز في قيادة المظاهرات الشعبية في عام 1955؛ مطالبين بالسلاح للدفاع عن قطاع غزة. اعتقلته السلطات المصرية مع آخرين، حتى أُفرج عنه ورفاقه في أوائل تموز/يوليو 1957. كان من مؤسسي نقابة المعلمين في قطاع غزة، وأول نقيب لها، ساهم في تأسيس حركة فتح وعمل عضوًا في لجنة إقليم قطر. عُيّن وكيلًا لوزارة التربية والتعليم في السلطة الفلسطينية.

العدوان على القطاع عام 1956

كانت أصوات المدافع تقطع صمت الليل الموحش، وكلما سقطت قذيفة، أشعر بدقات قلبي تتسارع، وبقلبي يكاد يخرج من جسدي. ومع كل قذيفة، كنت أزداد التصاقًا بوالدتي. تدور عيناي، تراقبان انفعالات أهل البيت الذين تجمعوا في إحدى غرف البيت التي اعتقد والدي أنها كانت أكثر الغرف أمانًا. وفي ضوء المصباح الخافت، شاهدت وجوه بعض أفراد العائلة يتمتمون بآيات من القرآن الكريم. وجدتي تردد الابتهالات بصوتها الحنون، تناجي الله، سبحانه وتعالى، أن يبعد عنّا الظلم، وأن ينجّنا من الأعداء، ويسبغ علينا الستر، ويحمي هذا الوطن[23].

لقد عشنا الكارثة السابقة عام 1948، وها نحن اليوم نواجه هذا العدو الغاشم مرة أخرى. وتكثر الأسئلة: هل سيصمد الجند على الجبهة؟ كم عدد المقاتلين في الكتيبة الفلسطينية؟ وكم عدد الجنود المصريين؟ أسئلة كثيرة تبادلها والدي مع خالي، ونحن صامتون. كلما سقطت قذيفة بالقرب من البيت اهتزت أركان الغرفة، تعالت الابتهالات والدعاء يا الله! يا لطيف!

مضى الليل الطويل على غزة الصابرة حتى خفتت أصوات المدافع مع بزوغ الصباح، نظرت إلى الساعة، كانت السادسة صباحًا، فخرجت من الغرفة لاستنشق بعض الهواء، فتحت بابًا يطل على الحاكورة، وكنا نسميه "بالخوخة"، وهو باب صغير يطل على الأرض المنخفضة المقابلة لنا، المسماة بأرض "الحكمية"، والتي يفصلها عن بيتنا شارع. في نهاية هذه الأرض، هناك شارع عام يؤدي إلى الحدود، شرق غزة، وامتدت أمام ناظري أرض الحاكورة، وأرض الحكمية الخصبة

(23) شن الجيش الإسرائيلي الهجوم في 29/ 10/ 1956، وسيطر، بشكل كامل، على قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء في 5/ 11/ 1956، اعتقل الجيش الإسرائيلي نحو 4000 عنصر من الفدائيين وحرس الحدود والجنود المصريين، أُعدم العشرات منهم على عجل، وقُتل 275 مدنيًا فلسطينيًا أثناء اجتياح القوات الإسرائيلية لخان يونس، في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، بحثًا عن فدائيين مطاردين وعن أسلحة. قُتل 36 شابًا خلال توقيفهم في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر، بينما قُتل، بعد ذلك بيومين، فلسطينيون عُزل عندما فتح الجنود الإسرائيليون النار على حشد كبير في ساحة رفح الرئيسة. صايغ، ص 123-124.

الخضراء. هذا السهل الجميل بخضرته الزاهية، والتي يَقطعها الطريق العام الذي يؤدي إلى محطة القطار الرئيسة في غزة وخط السكة الحديد.

كنت أتأمل تلك الأرض، عندما قطعت عليّ حبل تأملاتي أصوات هدير الدبابات، وصرخة تحذير آتية من بعيد، تلاها صوت انفجار قوي، هرع أهل البيت لمعرفة ما يجرى، وقال خالي: "هذه دبابات مصرية". وقال والدي: "إذا كانت كذلك، لمَ هي قادمة من الجبهة وليست ذاهبة إلى هناك؟".

وإذا بأصوات تتعالى: "ادخلوا، إنها دبابات إسرائيلية اخترقت الحدود. لقد هُزمنا! لقد صمدنا إلى أن فرغت ذخيرتنا..". أكثر من عشرين جنديًا مصريًا من الجنود المرابطين على الحدود مع إسرائيل ركضوا عبر أرضنا، وخرجوا منها يبحثون عن الطريق العام ليلتحقوا ببقية وحدتهم، قال والدي: "الأمر خطير! يجب أن أذهب إلى الشارع العام لاستطلاع الأمر". خرج من البيت مسرعًا، وخرجت وراءه، ولكنني لم أستطع اللحاق به.

بينما كنت أبحث عن والدي في الشارع، شاهدت ابن عمي غالب، وصديقه كمال عدوان، يقفون مع مجموعة من الرجال، وعدد من الجنود المصريين يحملون البنادق ويقيمون المتاريس في الشارع خلف مدرسة الفلاح، وجاء بعض الجنود المصريين راكضين نحوهم، وقالوا لهم: "انضبوا، انضبوا. لقد هُزمنا! لن تستطيعوا إيقاف هذه الدبابات بالعصي والبنادق!". ألقى بعض الجنود بندقيتان على الأرض، وركضوا منسحبين، فما كان من غالب وكمال إلا أن أخذا البندقيتين وذهبا، وأنا معهم، إلى بيت أحد أقاربنا في غزة، ودفنا البندقيتين في حفرة.

عدت بعدها إلى منزلنا، ووجدت والدي قد عاد إلى البيت جالسًا على الدرج مجهشًا بالبكاء. وعندها سمعنا صوت مكبرات الصوت تنادي على أهالي غزة، رجالًا ونساءً وأطفالًا، تطلب منهم الخروج رافعي الأعلام البيضاء، والتجمع في الساحة، ثم طُلب من النساء والأطفال العودة إلى البيوت، بينما بقي الرجال في ساحة المدرسة، فعدت أنا وأمي وأختي إلى المنزل.

كان الجيش الإسرائيلي يقوم بعمليات تفتيش للمنازل، فدخل بيتنا بحثًا عن

الرجال والسلاح، وقلبوا البيت ولم يجدوا شيئًا، فغادروا. لم يبقَ والدي وخالي في الساحة فترة طويلة، وعادا إلى البيت في اليوم نفسه لأنهما من كبار السن.

تحلّقنا حول المذياع في إحدى الغرف، عندما أُعلن سقوط مدينة غزة في أيدي جيش الاحتلال الإسرائيلي، كما أُعلن أن الحاكم المصري الإداري العام لقطاع غزة، اللواء محمد فؤاد الدجوي[24]، قد سلّم المدينة خوفًا على سلامة السكان. كانت الصدمة قاسية، يدخل العدو المدينة أمام أعيننا ونحن عزّل من السلاح، ويحتل المدينة دون مقاومة تُذكر. مضت الليلة الأولى للاحتلال ونحن في البيت ننتظر نشرات الأخبار، وننتقل من محطة إلى أخرى عبر المذياع.

أعلن العدو، عبر مكبرات الصوت، منع التجوال. وبدأت معاناة أهالي غزة مع العدو المحتل تبرز حدتها يومًا بعد يوم، ما إن يُرفع حظر التجوال إلا ويعود، وما إن تسمع صوت انفجار قنبلة إلا وتعرف أن يدًا بطلة أطلقت تلك القنبلة على دوريات الاحتلال، لتوقع القتلى والجرحى في صفوف العدو، مما يدفعه إلى استخدام المزيد من العنف ضد المواطنين.

تعلو مكبرات الصوت، تطلب من رجال المدينة التجمع في ساحة مدرسة الزهراء الثانوية، فيخرج، الرجال والشيوخ والشباب، حسب التعليمات، رافعين أيديهم فوق رؤوسهم، إلى الساحة. ومجموعات من الجند المدججين بالسلاح تقتحم البيوت، بيتًا بيتًا، للبحث عن الأسلحة، وللبحث عن الفدائيين، فدائيي كتيبة 141، ويقودهم مصطفى حافظ[25].

---

(24) محمد فؤاد الدجوي (لواء): عسكري مصري، والحاكم الإداري لقطاع غزة في عام 1956. عُيّن مديرًا عامًا للمكتب الإقليمي لمقاطعة إسرائيل في الجمهورية العربية المتحدة في عام 1959.

(25) مصطفى حافظ (1920-1956) ولد في قرية كفرة أبو النجا في مصر. تخرج في الكلية الحربية في عام 1940. كُلف بإنشاء قوة مهمات خاصة، مدرّبة ومسلّحة، ومهيأة للقيام بعمليات فدائية داخل إسرائيل، كانت نواة القوة الفدائية المعروفة شعبيًا باسم "الفدائيين" أو الكتيبة 141، وكان بعض عناصر هذه الكتيبة من الفلسطينيين الذين استخدمتهم الاستخبارات العسكرية المصرية في تنفيذ عمليات استطلاع داخل إسرائيل منذ عام 1949. تسارعت عملية تجنيد عناصر هذه الوحدة بعد الغارة الإسرائيلية على غزة، وجرى التدريب الأساسي لعناصر الفدائيين قرب مخيم الشاطئ في غزة، واستُكمل بتدريب متقدم في معسكر الجيزة قرب القاهرة، تمكنت السلطات الإسرائيلية من اغتيال=

هكذا كان، في كل يوم حادث، وفي كل ساعة خبر جديد. وانتشرت أخبار فظائع العدو؛ ففي إحدى الليالي، هاجم جنود العدو منزل الأستاذ صلاح اللبابيدي، مستغلين قرار منع التجول، واستفردوا بالبيت والعائلة، فحاولوا الاعتداء على الزوجة، وقَتلوها كما قَتلوا زَوجها. وفي الصباح، كانت جثة الشهيدين يحتضنهما طفلاهما، مضرجين بالدماء، وعندما دخل الجيران، كان الصغيران يبكيان، ودماء والديهما قد غطّت وجهيهما وملابسهما، وكان أحد الأطفال يرضع من والدته! هذه الصورة لم تغب عن بالي حتى فترة طويلة، حيث وقعت هذه الحادثة في حارتنا. ولأنهم دخلوا، وقتلوهم، واغتصبوا زوجته، كان هناك حديث عن محاولات اغتصاب متكررة، على نحو أفزع الناس، وازداد الخوف على البنات والزوجات.

تكررت هذه الممارسات في العديد من الأحياء. كان الرجال في كل حي يلتقون لمناقشة وسائل حماية بناتهم وزوجاتهم، وكان القرار المتفق عليه هو إغلاق مداخل الأحياء، وإقامة البوابات الحديدية. وفعلًا، ارتفعت البوابات الحديدية عاليًا على مداخل الأحياء، وسُلّم مفتاح بوابة حارتنا إلى أقرب ساكن منها، شعر بعضهم بالأمان، ولكن هل أعاقت هذه الإجراءات اقتحام العدو للبيوت الآمنة كل مساء؟

اتفق الأهالي أيضًا على أن تدعم الحارات بعضها بعضًا عند أي عملية اقتحام تقوم بها قوات العدو، بالصراخ. فإذا صدر صوت صراخ عن بيت، تجاوبت معه بقية البيوت بالصراخ، حتى تأخذ الناس الحيطة والحذر. لا شك أن هذا التضامن الجماعي قد أخاف جند العدو، وكثيرًا ما كنا نصحو من النوم على صوت صراخ آتٍ من المناطق المجاورة، فيهرع الرجال بالعصي لنجدتهم، ونبقى نحن يقظين حتى طلوع الشمس، إلى حين عودتهم.

في تلك الأجواء، كان والدي شديد الخوف والحساسية تجاهي وتجاه

= مصطفى حافظ بطرد ملغم أُرسل إليه في 12/ 7/ 1956، حيث انفجر بين يديه في أثناء محاولته فتحه في مبنى سرايا غزة.

شقيقتي، وأعتقد أن التفكير بنا وبحمايتنا كان شغله الشاغل؛ منعنا من الخروج إلا معه أو مع الوالدة، وقرر الأهالي عدم إرسال أولادهم إلى المدارس طالما أن هناك احتلالًا، مما جعل خروجنا من البيت أمرًا نادرًا في تلك الفترة.

كان ابن عمي غالب يتردد على بيتنا، فينقل لنا الأخبار، وكثيرًا ما كان يصطحب معه أحد أصدقائه. كنا نشعر أن له حركة سياسية نشطة ضد الاحتلال، فقد أحضر معه في أحد الأيام مسدسًا، وجلسنا في الغرفة أنا وشقيقتي ليدربنا على استخدامه. كان سعيدًا وهو يرانا نتجاوب معه، ونُقبل على تعلّم استخدام المسدس باهتمام كبير. سألني مرة: "هل تقدّمين لي مساعدة؟". أجبت: "فورًا! ماذا تريدني أن أفعل؟". قال: "يوجد في بيت صديقي فوزي آلة كاتبة، هل تستطيعين نقلها إلى مكان قريب؟". وفعلًا، ذهبت في الموعد الذي حدده إلى بيت صديقه فوزي، وحملت الآلة الكاتبة في صندوق من الكرتون، وعدت بعد إنجاز المهمة بنجاح. سألني: "هل رآك أحد؟". قلت له: "لا، لم يرَني أحد، ولم ألحظ أن أحدًا رآني".

وبعد ذلك، بدأ يطلب مني القيام بمهمات أخرى، منها إيصال رسالة إلى صديق، أو كتاب، وغيرها من المهمات التي كنت أظنها مهمات بسيطة حينها، لكني بعدما كبرت ونضجت، أيقنت أنها كانت ذات أهمية كبيرة.

محمد ابن عمي كامل، كان بمنزلة أخ لي، توفي والده عندما كان طفلًا صغيرًا، وكان محمد مشاغبًا، فقررت أمه تركه عند والدي ليرعاه، وعاش بيننا، وكان صديق طفولتنا. قبل الاحتلال، التحق محمد بكتيبة فلسطين، وكان مقرها مدينة رفح. انقطعت عنا أخباره في الأيام الأولى من الاحتلال، وفجأة، ظهر، واستقبلناه بالدموع والفرح بعد الاحتلال. إلا أنّ البيت ساده جو من القلق والتوتر بعد عودته، لأنه اضطُر إلى إخفاء أوراقه الثبوتية في مكان ما في رفح، ولم يكن يحمل هوية، وأخذ جميع أهل البيت يفكرون بإيجاد حل لهذه االمشكلة.

واستقر الرأي على أن يحمل محمد بطاقة قديمة باسم غالب ابن عمي، وأن يتم تغيير صورة غالب بصورة محمد، على أن يبقى اسم غالب عليها، وهذا يعني أن يحمل محمد بطاقة باسم غالب. وأخذ والدي على عاتقه تلقينه اسمه الجديد

طوال الليل، وكان الحل مناسبًا كون غالب يعيش في منطقة أخرى بعيدة عنا، ولن ينتبه الجنود إلى ذلك.

في تلك الليلة، أمضى والدي السهرة بأكملها وهو يسأل محمد عن اسمه الجديد، ومحمد، تارة يجيب أن اسمه غالب، وتارة ينسى الأمر ويجيب أن اسمه محمد كامل. وبقينا على هذه الحال إلى أن انتصف الليل وانتهينا من سماع آخر نشرات الأخبار من إذاعة "صوت العرب" التي أصبحت تبث من دمشق، بعد ضرب مقرها في القاهرة. وقبل أن نذهب إلى غرفنا للنوم، مال والدي على ابن عمي محمد يسأله عن اسمه، فقال إن اسمه غالب، فاطمأن. ومال عليّ أنا وشقيقتي يسألنا إذا سمعنا صوت الجنود الإسرائيليين قادمين إلى منزلنا، ماذا نفعل؟ كان الجواب كما حفظنا، أننا سنتسلق السلم إلى السطح، ومن هناك ننزل عند الجيران للاختباء، ضحك مطمئنًا وقال: "الحمد لله، حفظتم الدرس جيدًا!". ضحكت مازحة وقلت: "يا أبي، أنت تلقننا هذا الدرس يوميًا منذ شهر، لقد استوعبنا، لا تخف علينا، نم مطمئنًا".

وضعت رأسي على الوسادة، وأغمضت عينيّ مستسلمة لسلطان النوم، وفجأة، قمنا فزعين على أصوات ضرب على باب المنزل، وصوت ينادي على والدي لفتح الباب، خرج والدي مسرعًا في طريقه إلى الباب وهو يردد: "انتصار، عائشة، اذهبا إلى السطح". خرجنا معًا من باب الغرفة باتجاه السلم، وكانت المفاجأة، عشرات من الجنود المدججين بالسلاح، ورشاشات مصوّبة إلى كل من في البيت، وقد احتلوا سطح المنزل من جميع الجهات، وإذا بصوت يقول: "قفوا، لا تتحركوا، قفوا مكانكم!".

اقتحم الجنود البيت، وأصدر أحدهم أمرًا بتجمّع الرجال في إحدى زوايا الدار، وأشار إلى النساء بالتوجه إلى الزاوية الأخرى، وبدأت الأسئلة والتحقيق. توجّه الجندي بالسؤال إلى ابن عمي أولًا: "ما اسمك؟". قال متلعثمًا: "اسمي محمد كامل الوزير!". فسأله الجندي: "أين غالب الوزير؟!". كانت ملامح والدي مضطربة وهو يسمع الإجابة، لقد أخطأ الولد! وعندما سمع السؤال عن غالب أجاب مسرعًا: "هو لا يقيم هنا". قال الجندي: "أين يقيم؟". قال والدي:

"في الحارة الأخرى". فقال الجندي: "تعال معنا لتدلنا على بيته". ولكن والدي رفض، فكبلوا يديه واقتحموا جميع غرف البيت وعاثوا فسادًا، لم يتركوا ركنًا إلا وقلبوه، وأفسدوا جميع ما وقعت أعينهم عليه. اقتادوا والدي أمامهم، حاول أن يحتجّ، حاول أن يتباطأ ويفلت منهم، وإذ بأحدهم ينهال عليه ضربًا وركلًا! ومشى أمامهم، كان يقول في نفسه: "سوف تكون البوابة مغلقة ولن يستطيعوا الدخول". وعندما عاد، أخبرنا أن جنود الاحتلال تسلقوا البوابة واحدًا فوق الآخر، وقفز أحدهم إلى البوابة وفتح الباب لهم.

كان غالب ينام في غرفته، ولم يشعر إلا والجنود يداهمون الغرفة ويعتقلونه دون سابق إنذار أو حركة، ولم نعرف عن أخباره شيئًا حتى فترة طويلة. كانت دموع شقيقتي – خطيبته – تنهال بصمت. كان عمر غالب في حينها 19 عامًا، وكان لديه نشاط عسكري، وبحوزته سلاح وقنابل يدوية. كانوا، في حينها، يشترون السلاح من التجار المصريين، وكان كمال عدوان يرافقه كثيرًا في تلك الفترة. بقي غالب في السجن حوالى أربعة أشهر، حتى انسحاب الجيش الإسرائيلي، وخرج بعد دخول قوات الأمم المتحدة إلى غزة.

قبل اعتقال غالب، وصلتنا معلومات أن الاحتلال يبحث عن كمال عدوان لاعتقاله، فقمت بتدبير لقاء بين غالب وكمال، وطلب غالب حينها من كمال مغادرة القطاع، وأعطاه عشرين جنيهًا، وكانت جميع ما يملك. وأذكر جيدًا كيف غادر كمال غزة بـ"لانش" (مركب صغير).

اشتدت المقاومة الشعبية، ووُزعت منشورات تطالب بمقاومة الاحتلال، وتطالبه بالانسحاب، وتطالب بالحرية والاستقلال. ونحن نتابع ما أسفر عنه نشاط المقاومة، والنتائج السياسية للحملة العسكرية، والعدوان الثلاثي على مصر وقطاع غزة، وما تبعها من ضغوط دولية.

نجتمع حول المذياع، نتابع الأخبار من محطة إلى أخرى. وأخيرًا فرحنا، فقد صدر قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بانسحاب القوات المعتدية، على الرغم من أن من عايش تلك الفترة، وشاهد تصرفات قوات الاحتلال، كان يراها تتصرف وكأنها باقية إلى الأبد.

وجاء يوم الحرية، يوم انسحاب قوات الاحتلال من قطاع غزة. شاهدنا دباباتهم وهي تنسحب من ربوع القطاع الحبيب. وبدأت مؤامرة دخول قوات البوليس الدولي للقطاع لتدويله[26]، ولكن الشعب خرج إلى الشوارع عن بكرة أبيه. أمواج من البشر زحفت من الشوارع كلها إلى شارع عمر المختار، وتسلّق الشاب محمد المشرف ليرفع علم فلسطين فوق سارية السرايا، فأردته رصاصات غادرة من أحد جنود قوات البوليس الدولي، فسقط شهيدًا مضرجًا بدمائه. فما كان من الجماهير الغفيرة التي ازداد هياجها وعنفوانها إلا أن خلعت عن الشهيد قميصه المدجج بالدم والممزق بالرصاص، حملته، وقاد دم الشهيد المظاهرة التي كانت تنادي بعروبة القطاع، ورفض الإدارة الدولية، والمطالبة بإدارة عربية. وهكذا، أملت إرادة الشعب الفلسطيني على الرئيس جمال عبد الناصر والأمم المتحدة عودة الإدارة المصرية للقطاع من جديد، واحتفلت غزة بأعياد النصر والربيع.

هل يبقى الربيع ربيعًا؟ كانت فرحة الجماهير كبيرة، بانسحاب القوات الإسرائيلية بعد أن جثم على صدورها كابوس الاحتلال البغيض، والإفراج عن جميع المعتقلين، ورغم ذلك بقيت أعداد كبيرة من الشباب في عداد المفقودين،

---

(26) مشروع تدويل القطاع: هدف المشروع إلى إقامة إدارة مدنية تابعة للأمم المتحدة في غزة بالتعاون مع مصر وإسرائيل، أي تدويل قطاع غزة، بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من قطاع غزة في 7/ 3/ 1957، وتسليم إدارة القطاع إلى قوات الطوارئ الدولية، حيث وزعت بيانًا في جميع أنحاء غزة إيذانًا منها بتسلم مسؤولياتها. جاء في نص البيان: "نعلمكم أن قوات جيش الدفاع الإسرائيلي قد انسحبت من قطاع غزة، وقد تسلمته قوات الطوارئ الدولية تنفيذًا لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة. إننا ندعو سكان قطاع غزة لمساعدة القوات للقيام بمهماتها، وأن الأونروا سوف تستمر بتحمل مسؤولياتها، وأن الأونروا وقوات الطوارئ الدولية سوف يعملان ما بوسعهما لتلبية الحاجات الضرورية، عليكم بالمحافظة على الهدوء، عليكم بالمحافظة على القانون والنظام، ممنوع حمل الأسلحة أو المتفجرات من أي نوع كان، عليكم بالتقيد بساعات منع التجول إلى إشعار آخر، وعندما تكونون بحاجة، اتصلوا بالمسؤول المدني المحلي، رئيس البلدية، المختار، أو مدير المخيم، وهم مدعوون للتعاون مع قوات الطوارئ". فخرجت مظاهرات شعبية عارمة ترفض مشروع التدويل، وازدادت الأمور توترًا بعد استشهاد محمد علي مشرف الذي استشهد متأثرًا بجراحه التي أُصيب بها في المظاهرات في 10 آذار/ مارس على يد جنود قوة الطوارئ الدولية، عندما كان يرفع العلم، فأُفشل المشروع، وعادت الإدارة المصرية إلى قطاع غزة في 14/ 3/ 1957.

وتحركت النساء إلى مكتب الصليب الأحمر تطالب بالبحث عن أولادهن، لكن الانتظار طال، وغالبًا بلا جواب أو نتيجة.

بقينا في المنزل طوال فترة الاحتلال ولم نذهب إلى المدرسة. ظلّت صورة الاحتلال في تلك الفترة عالقة في ذاكرتي، وارتبطت بالمعاناة؛ إذ قُطعت الكهرباء في أغلب الأحيان، ولم يكن هناك بطاريات لتشغيل الراديو، فاخترع الناس ما يشبه البطارية، بدائية الصنع، بحيث يوضع خيط داخل قنينة "الكوكا كولا"، وتوضع مادة النشادر مع أسلاك، وتوصل بالراديو.

بعد العودة إلى المدارس، كثر الحديث في غزة عن الاحتلال، وعن تلك الفترة التي عشناها، وعن انسحاب الجيش المصري وترك غزة بلا سلاح، وبدأت التساؤلات: لماذا لم يكن لدينا سلاح؟ وماذا إن كان لدينا سلاح وقاومنا وقاتلنا؟ كان هناك شعور بالخجل لأننا لم نستطع تقديم شيء، وبالغضب تجاه الإدارة المصرية. وبعد عودتها، غيّرت الإدارة المصرية سياستها، في محاولة لامتصاص الغضب ونقمة الناس، فمثلًا، قامت بإدراج مادة التربية الوطنية في المدارس، لم يكن هناك تصريح علني بأي تدريب عسكري، ولا تعليمات رسمية بذلك، كان الطلاب يعودون إلى المدرسة بعد الدوام الدراسي بساعة أو ساعتين لكي يتم تدريبهم على السلاح، ومناقشة قضايا وطنية.

في هذه المرحلة تحديدًا، بدأ الوعي السياسي يتشكل لديّ من خلال هذه التجمعات، فقد تدربت على يد الضباط المصريين على البندقية 136، وعلى القنابل اليدوية، وخاصة قنبلة ميلز، وعلى كيفية تشكيل دوريات وعمل اشتباك، كما أنني تابعت، وبشغف، اللقاءات والنقاشات السياسية التي كانت تدور حولي.

وفي يوم شديد الأمطار، في شرق مدينة غزة، جهة المنطار، جرف السيل التربة في إحدى الأراضي، وبعد أن توقفت الأمطار، خرج بعض الأولاد للركض واللعب بعد أن شدهم قوس قزح، عندها، تعثّر أحد الأطفال بعصا خشبية خرجت من الأرض، وعندما سحبها من الطين، تبيّن أنها قدم خشبية. واكتشف الأطفال أنهم يلعبون فوق مقبرة. لم يكن المكان مخصصًا لمقبرة، وعندما حضرت الشرطة، وأخذت تحفر المكان، تجمّع الناس، ويا لهول ما رأوا، إنه قبر جماعي

لمئتين وخمسين جثة، جميعهم شباب، كان أحدهم صاحب القدم الخشبية، وقد اعتقلته قوات الاحتلال في الأسابيع الأولى من احتلال مدينة غزة.

بدأت لجان دولية التحقيق في همجية العدو، واستنكر العالم هذه الجريمة البشعة، ونُقلت جثث القبر الجماعي لتُدفن في مقبرة الشهداء في غزة، وأُقيم نصب تذكاري "نصب الجندي المجهول". أعاد هذا المشهد إلى ذاكرتنا جريمة جنود الاحتلال ضد الإنسانية في مدينة خان يونس، تلك المدينة التي تصدت ببسالة لجنود الاحتلال، فعاقبها جنود الغزاة بعملية قتل جماعي، حيث أطلقوا النار على طوابير من الرجال، معصوبي الأعين، وأيديهم وراء ظهورهم، ووجوههم إلى الحائط، فأردوهم قتلى.

عاد خليل الوزير إلى القطاع في عام 1957، بعد زوال الاحتلال، مع وفد من رابطة الطلبة الفلسطينيين، وصلوا مدينة غزة بالقطار، ومنهم ياسر عرفات الذي زارنا في البيت. جلسنا مع العائلة نتحدث، وأخبرنا أنه ترك الجامعة أثناء العدوان للالتحاق بمعسكر التدريب الذي أقامته رابطة الطلبة الفلسطينيين لتدريب الشباب، بهدف إعادتهم إلى قطاع غزة للمشاركة في المقاومة.

كنت طالبة في المرحلة الثانوية في ذلك العام، وقد كنت جريئة ومندفعة في نقاشي حول الأوضاع التي كنا نمر بها، حتى أنني لفت نظر أحد أساتذتي، فوزي جبر الذي أكدّ لي، ذات يوم، أنني كنت مُحقّة في ما قُلت عن أوضاعنا في مواجهة العدوان، وأنه يريد أن يقدّم لي بعض النشرات والأوراق الوطنية والتوعوية لأقرأها. وهكذا بدأت في قراءة تاريخ القضية الفلسطينية؛ قراءة خارجة عن الكتب المدرسية، وقراءة المنشورات الوطنية السرّية التي كانت تصدر. كما وبدأت أتابع، وباهتمام كبير، أخبار الثورة الجزائرية، والمشاركة في جميع النشاطات الوطنية التي أُقيمت دعمًا لتلك الثورة.

كان أخي درويش الوزير يعمل، في تلك الفترة، مدير مكتب وزير التربية والتعليم السعودي ناصر المنقور، وقد توجه إلى القاهرة ضمن وفد برئاسة الوزير السعودي للتعاقد مع معلمين من قطاع غزة. كان خليل الوزير، في تلك الفترة، في الإسكندرية، فذهب لزيارته طالبًا تأمين عمل له، معلمًا في السعودية، فوعده

خيرًا. أراد أخي استغلال وجوده في القاهرة للسياحة، وكلّف خليل بمتابعة مهماته أثناء غيابه، واستقطاب معلمين للعمل في السعودية؛ فأرسل خليل إلى زملائه استمارات العمل، وبالأخص أولئك الذين عمل معهم في التنظيم، ودرّبهم في غزة، وممن تركوا الإخوان المسلمين، وآمنوا بفكرة الكفاح المسلح. أمّن لهم خليل العمل في السعودية، وذهب هو أيضًا للعمل هناك.

وزّع خليل الشباب للعمل في مختلف مدن السعودية، إلا أن بعضهم طلبوا مرافقته والعمل في المكان الذي سيعمل فيه. اختار لنفسه العمل في منطقة اسمها القنفذة، وكانت من أفقر مناطق السعودية وأكثرها تخلفًا في حينها. روى خليل تفاصيل هذه التجربة الصعبة في كتابه البدايات، حيث كتب إنه عند وصولهم إلى القنفذة، لم يجدوا مكانًا يقيمون فيه، لا غرفةً ولا بيتًا، إلى أن أعطاهم أمير المنطقة بيتًا ليسكنوا فيه. كانت المنطقة بدائيةً جدًا، بلا بنية تحتية، وقد عملوا على تطويرها من خلال تطوير المدارس والتعليم فيها، إلى أن مرض خليل بالحمّى بعد أن أمضى ستة أشهر بالسعودية، فترك العمل وقرر العودة إلى غزة. قال لي لاحقًا إنه عندما ركب الطائرة مغادرًا الرياض "طاب"، أي أنه تعافى من المرض! لم تعجبه الحياة هناك، فقرر العودة إلى غزة.

منذ أن قرر خليل العمل في السعودية، بدأت مشاعري تجاهه تتضح أكثر فأكثر، كنت أفتقده وأشتاق لرؤيته. أخذت أعدّ الأيام والساعات لعودته في الإجازة الصيفية، كنت أُمنّي نفسي في كل عطلة أنني سأكون قريبة منه، وأتمنى أن يكون لهذا الحب الكبير الذي يعيش في أعماقي أملًا في التجاوب والاستقرار. على الرغم من كونه قد قال في عدد من المناسبات إنه سيكرس حياته لفلسطين ولن يتزوج، فإنّ ذلك لم يمنعني من حبه، والحلم بمستقبل يجمعنا سويًا.

في عام 1958، سافر ابن عمي خليل إلى الكويت بعد أن ترك العمل في مدينة القنفذة بالسعودية. في البداية، عمل هناك موظفًا في جمعية الإرشاد، ثم مدرسًا في مدرسة كاظمة.

وكنا نلتقي عند عودته من الكويت في الإجازة الصيفية، تتحدث عيوننا بلغة الحب والشوق، ويسود بيننا الصمت. هذا الصمت القاتل، كم أقلقني! كنا نقطع

الصمت للحديث عن الوطن والقضية، عن فلسطين والتحرير، عن الواجب الكبير الذي يُلقى على عاتقنا، كلمات عامة، ولكنها كانت تعطينا الأمل بغدٍ لا نعرف كيف سيكون.

وفي عام 1959، فاجأني أستاذي فوزي جبر، ذات يوم، بعدد من مجلة **فلسطيننا**[27]، وقال: "هذه المجلة لك، اقرئيها، وسوف نتناقش فيها بعد ذلك". أخذت المجلة، وعدت إلى البيت لأقرأ ما جاء فيها باهتمام كبير، شعرت حينها أن هذه المجلة لم تكن كغيرها من المجلات أو النشرات، كانت تتحدث عن الثورة والعمل وضرورة التنظيم، وكانت تجدد القسم والعهد أن هناك ثورة لا محال قادمة.

لم أنم تلك الليلة، وبدأت التساؤلات الكثيرة حول هذه المجلة وما تحمله من أفكار. في اليوم التالي، انتهزت فترة الاستراحة في المدرسة، وذهبت مسرعة إلى الأستاذ. كنت منفعلة والأسئلة تتدافع من فمي. ابتسم لي الأستاذ وطلب مني أن أهدأ، وقال لي: "على مهلكِ قليلًا!". قلت له: "لن أهدأ، أريد أن أعرف أكثر، وأريد أن أعمل، وأريد أن أكون معهم!". قال بابتسامة واسعة: "من هم؟". قلت: "من يقفون خلف هذه المجلة، إنهم ينادون بالثورة، وأنا أريد أن أسير معهم على هذا الدرب". قال: "سيكون لك ذلك، وأنا فخور بك، فأنت تلميذة نشيطة وذكية، ولديك نفَس ثوري، سأجمعك بأحدهم عن قريب، انتظري ذلك". ومضت الأيام، وكلما توافر للأستاذ عدد جديد من المجلة، يسلّمني إياه، كنت أقرؤها، وأنسخ كثيرًا من مواضيعها، ثم أعيدها إليه.

وفي أحد الأيام، أرسل إليّ الأستاذ شقيقته، برسالة صغيرة، كتب فيها أنّه يرغب بلقائي في بيتهم، لأقابل المسؤول الذي وعدني بمقابلته. خرجت من البيت

---

(27) مجلة **فلسطيننا**: مجلة شهرية صدرت في بيروت بين عامي 1959 و1964، وكانت الناطقة بلسان حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) في مرحلة تأسيسها، وكان اسم المجلة الأول **نداء الحياة**، والثاني **فلسطيننا**. صدر العدد الأول من المجلة في 1/ 10/ 1959. أشرف على إصدارها **توفيق حوري** وهاني فاخوري (أبو ياسر). وتضمنت الأعداد الأربعون التي صدرت من **فلسطيننا** مقالات وإحصاءات وقصائد وقصصًا وترجمات لشخصيات مناضلة فلسطينية، وموضوعات تعبئة وحشد للبدء في معركة التحرير، كما تضمنت زاوية ثابتة حملت توقيع حركة فتح عنوانها "رأينا".

وكانت علامات الاضطراب والقلق بادية على وجهي، اليوم سيتحدد مصير الكثير من الأشياء في حياتي.

دخلت منزل الأستاذ وبادرته فورًا بالسؤال: "أين هو ذلك المسؤول؟". قال: "انتظري، إنه قادم". وبعد قليل، قُرع جرس الباب، وعندما دخل الضيف كانت المفاجأة، إنه هو، إنه ابن عمي خليل، الرجل الذي أحببت! قال لي: "انتصار، أهلًا بك، إنني سعيد بما وصلت إليه من قرار الالتزام بحركة بفتح". قلت له: "لماذا أخفيت عني ذلك؟ لماذا لم تحدّثني عن فتح من قبل؟". قال: "لم يفُت الوقت، كما أنّي كنت أخاف أن يكون التزامك مجاملة لي". عندها تدخل الأستاذ وقال ضاحكًا: "هل انتهت مهمتي؟ ها قد أوصلتك إلى الطريق". وبعد حديث طويل دار بين ثلاثتنا، خرجت مع ابن عمي الذي رافقني في طريق العودة إلى البيت.

تغيرت ديناميكية العلاقة بيننا منذ تلك اللحظة، وأصبحت بعدها موضع ثقته ومستودع أسراره، كنت أحفظ له رسائله وأوراقه الخاصة بالعمل، وأنقل منه رسائل سرّية إلى بعض الإخوة بالقطاع. بدأت المهمات تكبر يومًا بعد يوم، وأنا أشعر بالسعادة، ويغمرني فيض من الحُب والرضى بعد كل مهمة.

في صباح أحد الأيام، بينما كنت أجلس تحت شجرة التين الكبيرة في أرضنا، فوجئت به قادمًا وبيده سلة برتقال. قال لي: "انتصار، أريد أن أنقل هذه السلة إلى أحد الإخوة، عليك الاحتفاظ بها للغد". ضحكت وقلت: "ماذا يوجد بداخلها؟". قال: "كما ترين، برتقال". قلت: "كلها برتقال؟". قال: "لا، نصفها برتقال والنصف الآخر شيء مهم ونادر". أخذت السلة لأخبئها، ولم أجد أكثر أمانًا من غرفة والديّ، وضعت السلة في الخورستان، والخورستان هي خزانة في قلب الحائط، وأعتقد أن التسمية تُركية. وهناك في الغرفة كان "اليوك"، وهو يشبه الخزانة والمصطبة التي توضع بداخلها الفرشات والحرامات، وضعت السلة في الخورستان، ووضعت فوقها بعض الملابس، وخرجت مطمئنة من البيت.

مساء ذلك اليوم، حضر ضيوف إلى منزلنا. كنت لا أزال خارج المنزل، وإذ بوالدتي ترى سلة البرتقال، فاعتقدت أنه للبيت، وهمّت لتضع بعضًا منه للضيوف، وعندما بدأت تتناول حبات البرتقال من السلة، لامس يدها شيء بارد، وأصابها

الذهول عندما رأت القنابل مخبأة تحت البرتقال، فأعادت البرتقال مكانه، وأغلقت باب الغرفة، وعادت إلى ضيوفها تبحث عن شيء آخر تقدمه لهم.

عندما عدت من الخارج، أخذتني والدتي جانبًا، وسألتني: "انتصار، ما هذا الذي في سلة البرتقال؟ ومن أين أتيت به؟". قلت لها: "إنّه عملي يا أمي، عمل وطني، أرجو أن تحفظي السر بيننا". قالت: "أنا أعرف عفريتة!". قالتها بحنان: "ولكن لا تورطي والدك، الرجل كبير السن". قُلت لها: "اطمئني يا أمي لن يصيبه سوء"، واحتفظت بالسر كما وعدتني.

ازدادت لقاءاتي بخليل، وأصبحت لنا أحاديثنا الخاصة. سعدت كثيرًا بهذه الأحاديث التي كانت تدور عن فتح، عن تنظيمها وتدريب أفرادها، ومتى نسمع عن بداية العمل. كان يحدّثني بشغف عن تطور العمل، وعن أحلامه بالانطلاقة، كما حدّثني عن المصاعب والعراقيل التي تواجهه في العمل، وقد أطلعني على كلمة السر "الكود" الخاصة بموعد الانطلاقة، وهي "متى يكون الزفاف؟".

خطوبة عائشة وغالب

تقدّم ابن عمي غالب بطلب للعمل مدرّسًا في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين "الأونروا" في غزة. وفي أحد الأيام، جاء عمي إبراهيم وزوجته إلى بيتنا لمقابلة والدي، وطلب يد عائشة لابنهم غالب. وبعد فترة وجيزة تمت الخطبة وعُقد القران. كانت أختي في قمة سعادتها، إلا أنني، وبعد أيام، دخلت غرفة النوم، فوجدت شقيقتي عائشة تبكي، فسألتها عن سبب بكائها، فقالت لي: "لا أعرف، هل خطبني غالب من أجل الاحتفاظ بكرت المؤن؟ (كونهم لاجئين)، أم لأنه يحبني؟ أنا لا أعرف رأيه". في تلك الفترة، كانت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين عندما توظف أي فرد من العائلة، تسحب منه كرت المؤن، وتشطب العائلة من كشف اللاجئين، أما إذا كان متزوجًا، يُشطب اسمه فقط، وتبقى البطاقة مع باقي أفراد الأسرة. أخذت أهدئها، ووعدتها أن أستفسر عن الموضوع. في اليوم التالي، ذهبت مع والدتي لزيارة بيت عمي أبو خليل، وجاءت فرصة أن أسأل غالب عن سبب خطبته لأختي عائشة، فقال لي: "لماذا هذا السؤال؟". فأجبت: "لأن عائشة

قلقة أن يكون ذلك بسبب الاحتفاظ ببطاقة التموين!". فضحك وقال: "انتظريني قليلًا". دخل غرفته وعاد ومعه دفتر يومياته، سلّمه لي وقال: "أعطها هذا الدفتر لتقرأه". أخذت الدفتر وسلّمته لها. قرأت عائشة المذكرات، واكتشفت كم كان يحبها في كتاباته اليومية، فأسعدها ذلك واطمئنت، وأصبحتُ مرسال الحب بينهما أنقل إليهما الرسائل.

في صيف عام 1959، سعدنا بزفاف ابن عمي غالب إلى شقيقتي عائشة، بعد أن كاد حادث طارئ أن يقلب الفرح إلى حزن، ففي يوم الفرح، تناول عدد من أطفال الأسرة بعض حلوى الفرح، والتي يبدو أنها فسدت من الحر، فأصيبوا بتسمم نُقلوا إثره إلى مستشفى الشفاء. عندما خرج آخر طفل معافى من المستشفى، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، بدأ حفل الزفاف، وكانت الفرحة فرحتين؛ فرحة العروسين، وفرحة سلامة الأطفال. وسط تلك الفرحة، وبين نغمات الموسيقى وأهازيج الفرح، كانت عيوننا أنا وخليل تتلاقيان، لتكشفا سرّ حبنا العميق أمام عيون الأهل التي كانت تتابعنا كلما تلاقت نظراتنا، نظرات مفعمة بالحب وغارقة بالأمل.

اقترب مني خليل حيث كنت جالسة بالقرب من العروسين، وقال هامسًا: "عقبالك". سرت رجفة في جسدي، وخفق قلبي، ولم أجب، قال: "بعد غدٍ أنا مسافر، هل أطمع أن أراكِ؟". قلت: "سأحاول". وفي اليوم التالي، غادر إلى القاهرة ثم إلى الكويت.

في عام 1960، وقبل امتحان الثانوية العامة، تُوفيت والدتي فجأة، وكانت الصدمة قاسية عليَّ كثيرًا، وشعرت بالحزن والضياع. فقدت أمي ذات الصدر الحنون والقلب الكبير، أمي ذات العطاء اللامحدود. هي واحدة من أبناء شعبنا الذين لم يُتح لهم القدر تعلم الكتابة والقراءة لتفشي الأمية في ذلك الوقت بين أفراد جيلها، ورغم ذلك، كانت دائمًا تطلب مني أن أقرأ لها، وأن أعلّمها ألف باء، وكان يحلو لها أثناء ذلك أن تربني تجاوبها واستعدادها، وقد استطاعت بعد مرحلة وجيزة أن تقرأ الجريدة والقرآن الكريم.

كانت والدتي طيبة وصغيرة، حتى أنها يوم تزوجت والدي، قالت لها

نساء الحارة إن عليها أن تغسل وجهها بالشراب "العصير" الذي يُوزع يوم عقد القران، حتى يدوم حب والدي لها، ففعلت! بقي والدي يحبها طوال حياتهما، كان فرق السن بينهما تسعة أعوام، وتوفيت قبله بثلاثة أعوام. حزن والدي عليها كثيرًا، لم أشاهد رجلًا يبكي على زوجته مثله. ويوم جنازتها لم يستطع وداعها، وعندما خرجت الجنازة إلى الشارع أعاد الجثمان إلى البيت وهو يقول: "هاي حبيبتي رجعوها". وجلس معها بالغرفة، وكشف عن وجهها وقبّل جبينها، وقرأ لها القرآن. أنجبت والدتي الكثير من الأولاد، لكنهم ماتوا صغارًا، ولم يبقَ إلا ولدان، وأنا وأختي، وكان فرق السن بيني وبين أخي البكر ٢٤ عامًا.

في تلك الليلة الحزينة التي فارقتنا فيها أمي إلى وجه ربها، كنت أستعد لامتحان الثانوية العامة، أمضيتُ نهاري في الدراسة تحت شجرة التين في الحاكورة، وعندما بدأت خيوط الظلام تحجب الكلمات عن كتابي، عُدتُ إلى البيت. سمعت صوتها تناديني من غرفتها، فذهبت إليها، فوجدتها ترقد في سريرها. سألتني عن دراستي، وسبب تأخري بالدراسة ذاك المساء، فطمأنتها أن كل شيء على ما يرام، وبادرتها بالسؤال عن سبب ذهابها للنوم مبكرًا، فأجابت أنها كانت تشعر بتعب خفيف. سألتها إن كانت ترغب بأن أحضر لها الطبيب، لكنها رفضت، مدّعية أنها تشعر بألم خفيف فقط. قبّلتها وهممت بالذهاب إلى غرفتي، عندها، أمسكت يدي بقوة، وطلبت مني البقاء لأنها تودّ التحدث إليّ. سألتني عن أحوال ابن عمي خليل. فأجبتها: "لا شيء جديد يا أمي، الوضع كما هو، نتحدث في كل شيء وعن كل شيء، ما عدا الحديث عن مشاعر قلبينا، إنّه صامت لا يتكلم، إنّهُ يُعذّبني بصمته يا أمي". نظرت إليّ بحنان، وشدّت رأسي إلى صدرها وقالت: "لا تخافي يا حبيبتي، أنا أشعر أنه يحبك كثيرًا، وأنا مطمئنة أنه سيكون فتى أحلامك، عليك بالصبر، وعليك أن تهتمي بدراستك، ولا تستعجلي الأمور".

قُلت بلهفة: "من قال لك ذلك يا أمي؟". أجابت: "لم يقل لي أحد، ولكن أُطمئنك بإحساس الأم، إنني واثقة أنه سيكون من نصيبك، إنّه شاب رائع، وسيكون له دور كبير في حياة شعبنا، فهو رجل حر".

ما أعظمك يا أمي! رددت بداخلي، كيف وصلت إلى هذه القناعة؟ وخرجت من الغرفة وصوت دعائها يملأ أُذني حتى هذه اللحظة: "يا رب، اجعل خليل ابن عمها من نصيبها، يا رب اكتب لها النجاح". هزّني دعاؤها، فعدت لأقبلها مرة أخرى، ونوّست لها ضوء المصباح، وخرجت حائرة قلقة إلى غرفتي.

في تلك الليلة، حاولت التركيز على الكتاب المدرسي المفتوح أمامي، ولكني لم أتمكن. استسلمت للنوم، وصحوت فجأة على أصوات صاخبة في المنزل، وصوت والدي يناديني: "انتصار، تعالي فورًا!". خرجت مسرعة من غرفتي باتجاه غرفة والديّ. وكان خالي وزوجته وخالتي ووالدي في الغرفة، بينما والدتي في النزع الأخير، صرخت: "أمي... أمي!". كانت نظرتها تجول في الوجوه المحيطة بها، وعندما وصلتني نظراتها، شدّت على يدي وابتسمت ابتسامة عريضة، وفارقت الحياة. بكيتها كثيرًا، وكان فراقها صعبًا بالنسبة إليّ، كانت أمي وصديقتي وحبيبتي، ولكن هذا هو القدر دائمًا، الموت يفرّق الأحباب.

تابعت دراستي، ونجحت في امتحان الثانوية العامة، وكنت أفكّر حينها بالدراسة في جامعة القاهرة، وبدأت إعداد أوراقي، وأرسلت طلب الالتحاق إلى الجامعة.

في صيف عام 1960، وصلتني من ابن عمي خليل رسالة، قال فيها إنه سيتأخر في الوصول إلى غزة هذا الصيف. وفهمت أن هناك احتمالات لبداية عمل، هو وأصحابه يعدّون لـ "يوم الزفاف"، كلمة السر ليوم الانطلاقة، وسيكون سعيدًا أن نلتقي في نهاية العطلة. ومضت أيام صعبة وأنا أنتظره بشوق كبير، وقبل نهاية العطلة، وإذا به يدخل علينا البيت، وفي يده حقيبة سفره، قال باسمًا، وهو يمد يده للسلام عليّ: "وصلت الآن إلى غزة، وارتأيت زيارتك أولًا، لنذهب معًا لقراءة الفاتحة على روح والدتك الغالية، تعالي معي". نسيت جميع من حولي وخرجت معه إلى المقبرة لزيارة أمي، وقراءة الفاتحة على روحها الطاهرة. آه يا أمي، هل تشعرين بنا؟ إننا معًا نقف بقربك، أبكيك، وهو بجانبي يشد من أزري، يواسيني، يشاطرني حزني على فقدك.

في طريق عودتنا إلى البيت قال لي: "حاولنا أن نعلن الانطلاقة، ولكننا قررنا

التأجيل للعام القادم". وأخذ يحدثني عن تطور العمل، والمصاعب التي تواجه الانطلاقة، قال: "أصبح لنا تنظيم جيد في الأردن والضفة وسورية ولبنان، وهنا في غزة تنظيم ممتد، ولكن الإمكانيات المالية غير متوافرة، وأهم شيء السلاح". كما حدثني عن لقائه بعدد من الإخوة مسؤولي التنظيم، وعن انخراطه بالتدريب في أحد المعسكرات السرية المقامة في منطقة الجبل في بيروت. وتحدث عن متابعته وإشرافه على مجلة **فلسطيننا**، والتي ستصدر منها أعداد قادمة أكثر قوة. كما استفسر عن بعض القضايا التي كلّفني بها برسائله. تحدثنا كثيرًا، وافترقنا على أمل اللقاء القريب.

ومضت الأيام الباقية على موعد سفره سريعة، لم نلتقِ خلالها كثيرًا، فقد كان كثير التنقل والحركة بين المخيمات الممتدة على القطاع، من رفح، وخان يونس، والنصيرات، والشاطئ، وجباليا. وكانت هذه اللقاءات والاجتماعات تأخذ منه وقته وجهده كله.

يوم الزفاف

"عاشقٌ يأتي من الحرب إلى يوم الزفافْ
يرتدي بدلتهُ الأولى
ويدخلْ
حلبة الرقص حصانًا
من حماس وقرنفلْ"
محمود درويش

في نهاية صيف عام 1960، في إحدى الأمسيات، وبينما كنت في زيارة لشقيقتي وزوجها، قال لي خليل: "انتصار، أنا عائد إلى الكويت بعد أيام، وأرجو أن ترافقيني في رحلتي في العام المقبل. أريد أن تعرفي أنني... أنني.. أحبك. وأرجو أن نكمل رحلة العمر معًا، وأن نجد في حياتنا معًا واحة نستظل فيها من صحراء الحياة". وخفق قلبي، ونظرت إليه، وضاعت الكلمات. واستجمعت قواي وقلت إنني بانتظار رسائله، وافترقنا.

انتظرت الأسابيع، وكانت رسالته الأولى التي قال فيها: "كل دفقة من دمي، وكل خفقة من فؤادي، وكل جزء من كياني، وكل جانب من وجودي، فيها جميعًا هتاف يردد حبك، وتنبض بهواك. ومعك أردد دعائي أن يُشفق على زورقنا من الرياح الهوج، وأن يوصله سليمًا بر الأمان. وأنت تعلمين قوة الأمواج المحيطة بقاربنا، وتدركين أنها قد تقسو علينا يومًا ما، لا سمح الله، حيث إننا نجذف في الظلام الذي يعيشه شعبنا. أقول، قد تقسو علينا يومًا، وقد تطوي أمثالي موجة هوجاء تجعل اللقاء يطول، أو تكدر هناءنا لكثرة لطماتها. يمكن أن يحدث هذا، فماذا ستفعلين؟ تقولين ستحطم قلبي أو يتمزق، وتعظم مصيبة، أو لا تحتملين؟ لا يا عزيزتي، هيئي نفسك لكل احتمال. تزودي بأسلحة الصبر والإيمان. ولقد عرفت تضحيتك، ورأيت إصرارك وعزيمتك. لقد هزتني روحك الوثّابة المتطلعة إلى الفداء، ولعمري إن روحًا كتلك، لا تهزها محنة إن ألمّت، ولا تزعزع حبها وإيمانها مصيبة. ما أذكر هذا إلا ليرسخ في نفسك مع البذور الأولى، لينمو مع الأيام استعداد نفسك لاحتمالات قسوة الأقدار، وتقلبات الأيام. وحياتنا غريبة الأطوار، مليئة بالمفاجآت، لأننا نعيش في أجواء نكبة لا مثيل لها في الفظاعة. هل فهمت؟ أجل، هذا اعتقادي. وأرجو ألا تتغّص مثل هذه سعادتنا، لكنها عدة نهيئ لها نفوسنا كي لا نفاجأ، لا سمح الله.

الليل قد امتد، والساعة الآن بعد الثانية والنصف، وأراني إذا تأخرت عن إنجاز الرسالة، قد أتأخر في إرسالها إلى البريد، لعدم إتمامها يومًا، أو أكثر من ذلك. لذلك، فإني أسرع حتى لا يتأخر لقاؤك بي، أو لقائي بك، في رسالتك التالية. لقد تسلّمت رسالتك الأمس، وحاولت أن أكتب ليلتها، لكني لم أتمكن، ولقد بدأت كتابة رسالتي هذه الليلة في ساعة متأخرة. عن أخباري؛ أنا بخير، والصحة، والحمد لله، كاملة. عيناي لم أضع نظارة لهما".

وكان ردي على هذه الرسالة:

"... أما الآن، فأقولها، وأقول لك: لا يضنيك التجذيف، فإن يدي بيدك تشحذان من بعضهما القوة والعزيمة. ولا شك، بعزيمتنا معًا سنصل بالزورق إلى شاطئ الأمان، ولا أرضى لزورقنا أن يرسو في أي مكان إلا مكان واحد، وميناء واحد، هل عرفته؟

عزيزي... لقد أخترت طريقك منذ تفتحت عيناك على الحياة وأنت محق في اختيارك، بل الواجب يملي عليك هذا الطريق المليء بالأشواك. ولقد وضعت يدي بيدك لنتابع السير في الطريق معًا، ولا أقول هذا مجرد مجاملة لأني أحبك وأخاف أن أفقدك، لا وألف لا! إني أقول ما يناشدني ضميري وقلبي وعقلي على قوله، فهو واجبي المقدس كما هو واجبك، ولا تخشى شيئًا، والأيام كفيلة أن تبرهن لك صدق قولي، فما أحببتك إلا لأني أحببت روحك ومثلك وإيمانك قبل أي شيء آخر، وأدعو الله أن يحقق آمالنا وأن يبقي لنا شمعتانا لينيرا لنا طريقنا نحو مستقبلنا معًا، وعندما أشعر أن الوقود بدأ [ينفد] (...). وأقولها لك وقودًا لنتابع السير في نفس الطريق، وكفانا حبنا هو أقوى وقود".

كانت رسائله لي زاد أيامي، كان يتحدث عن مشاعره تجاهي بعذوبة ورقة، وعاطفة صادقة جياشة تفيض وجدًا. وكان يسعدني ذلك الحب الكبير للوطن الذي كان يتسرب دون أن يدري في كل كلمة أو سطر خطته يداه.

وكنا قد اتفقنا أن نتزوج في عطلة صيف عام 1961، إلا أن قيادة الحركة قررت تأجيل زواجنا للعام التالي، لاحتمالات إقامة "الزفاف الكبير" في ذلك العام. لكننا خطبنا، وعقدنا القران في عام 1961.

اقترح أخي أحمد ذهابي إلى السعودية للعمل هناك، لعدم تمكني من دراسة الطب في القاهرة، فوافق والدي، فسافرت مع أحمد وعائلته. غادرنا غزة إلى القاهرة بسيارة الأجرة، ونزلنا في فندق اسمه "سكرابيه". أمضينا أربعة أيام في القاهرة، ثم غادرنا بالطائرة إلى الرياض، حيث عملت مدرّسة، وكانت بداية افتتاح مدارس تعليم البنات. سكنت مع أخي أحمد وعائلته، وكان يعمل في الرياض، وكان أخي الأكبر درويش قد ترك التعليم ليعمل في زراعة الأراضي في مدينة بريدة بالسعودية. بقي درويش في تلك المدينة إلى أن رحّلته السلطات السعودية في عام 1970، بسبب انتمائه إلى حركة فتح.

لم تكن هذه المرة الأولى التي أذهب بها إلى القاهرة، فقد كنت قد ذهبت في رحلة مع أخي أحمد وأنا في الثانوية، بعد أن قام أخي درويش باصطحاب أختي

عائشة إلى القاهرة من قبل، فزرت مصر والأهرامات والمتاحف مدة أسبوعين تقريبًا، وكنا قد قضينا فيها أجمل الأوقات.

وصلنا الرياض، واستقبلنا حينها في المطار، ابن عمتي رمضان كريرة، ورافقنا إلى شقة أخي. وفي صباح اليوم التالي، توجّه أخي أحمد إلى مديرية التعليم للحصول على جميع المعلومات الخاصة بتعييني؛ اسم المدرسة، وأوقات بدء الدوام. وأبلغني، عند عودته، أن دوامي في العمل سيبدأ في اليوم التالي.

وفعلاً، عملت في إحدى المدارس معلمةً للصف الثالث الابتدائي، وحيث كنت معلمة صف، فقد درّست المواد كلها؛ العربية، والإنكليزية، والدين، والرياضيات. كان على المدرّسات ارتداء لباس طويل، ووضع الشال على الرأس، ولبس العباءة. كنت أرتدي فستانًا بلونٍ أزرق جميل، وآخرَ ورديًا، وأرتدي فوقه العباءة، وأضع الشال على رأسي. كانت تجربة الحياة العملية في السعودية جميلة، ونجحت في التدريس، واعتبرت التعليم رسالة، وسعدت بالتعرف إلى زميلاتي المعلمات اللواتي كن من مختلف الجنسيات العربية؛ من فلسطين ومصر ولبنان وسورية.

كان هناك صندوق بريد في شارع الوزير الذي كنّا نسكن فيه، وكنت أنا وخليل نتبادل الرسائل باستمرار، إلا أنه، وفي إحدى المرات، وطوال شهرين تقريبًا، لم تعد رسائلي تصل إليه لخلل ما، وشعر عندها بالقلق الشديد، وقام بإرسال رسائل إلى أخي وأختي للاطمئنان على أحوالي.

لم تنقطع رسائله عني، وكنت أجلس ساعات أرد عليها، وأبناء أخي الصغار يتلصصون من خلفي، لكنني أستمر بالكتابة دون أن أشعر بوجودهم.

شعرت من خلال رسائل خليل إليّ، خلال الأشهر الأخيرة لوجودي في السعودية، بقلقه من عدم قدرته على اتخاذ قرار حول موعد زواجنا، بسبب انشغاله بموعد انطلاقة فتح، فمن الممكن أن نتزوج هذا العام، ومن الممكن أن يُؤجل الزواج إلى العام القادم. وخلال هذه الفترة، تولّت زوجة أخي خياطة جميع مستلزمات جهاز العروس، ليكتمل قبل زواجنا عندما يتقرر.

أمضيت عامًا دراسيًا أعمل في الرياض، وعند بدء العطلة الصيفية عدت إلى غزة، حيث سافرنا بالطائرة إلى القاهرة، ثم بالسيارة إلى غزة. بعد وصولنا إلى غزة، اتصل بي خليل من الكويت، وقال إنه سيحضر فترة قصيرة إلى غزة، وطلب مني أن أبدأ ترتيبات الزفاف في تلك الزيارة.

غمرتنا السعادة بفرحة اللقاء والاستعداد لحفلة زفافنا. كان يريدها بسيطة، حفلة لأصدقائه الشباب، وأخرى لصديقاتي والأسرة. كان يريدها حفلة صامتة دون ضجيج الأفراح، وقال لي: "لا يليق بنا أن نفرح وشعبنا مشرد ووطننا سليب". تفهّمت وجهة نظره، وقدّرت مشاعره هذه، وأكدّت له أن فرحتنا أن يضمنا عش الزوجية السعيد معًا. وكان العهد بيننا أن نوفر لكلينا السعادة، وأن نكمل رحلة النضال معًا، وأن يكون الوفاء للقضية والوطن ولحبنا.

كنا قبل زواجنا نتحدث عن الانطلاقة باسم "يوم الزفاف"، وفي إحدى المرات، وصلت رسالة إلى محمد الإفرنجي[28]، يسأله فيها الكاتب، فيقول: "طمئنا، متى سيكون الزفاف؟". وقعَت الرسالة في يد زوجته غادة، وقد أخطأت فهم الموضوع، فقد اعتقدت أنه سيتزوج عليها، مما سبب لهما مشكلة في العائلة، فطلب مني خليل أن أذهب إليها وأفسّر لها الأمر. ذهبت، وشرحت لها أن الزفاف هو كلمة السر لانطلاقة الكفاح المسلح، وفهِمت، وأصبحنا في إثر الحادثة صديقتين.

في 19 تموز/ يوليو 1962، تحققت أمانينا، واحتفلنا بزفافنا، وشعرت أنني ولدت من جديد. ومع أيامنا الحلوة الأولى، بدأ شهر العسل، أو بالأحرى بدأت رحلة العمل.

أقمنا حفلًا صغيرًا كما خططنا له أنا وخليل. كنتُ قد طلبت منه أن يحضر لي معه من الكويت قطعة قماش (جيبير) أبيض لفستان العرس. وعندما وصلت

(28) محمد الإفرنجي: من المجموعة الإخوانية الأولى التي انضمت إلى حركة فتح في قطاع غزة، وشارك في نواتها المؤسسة إلى جانب أبو جهاد وحمد العايدي وعبد الله صيام وآخرين. شارك في تنفيذ عملية خزان زوهر عام 1955.

القطعة، بَدأت زوجة أخي بخياطة فستان الزفاف الأبيض. كما قدّم لنا صديق أخي أحمد، واسمه صلاح الصوراني، سيارته المرسيدس الجديدة التي اشتراها لتنقل العروس من بيت أهلها إلى منزل العريس. ومن المفارقات المضحكة يوم الزفاف، أن سيارة العروس تعطّلت وهي في الطريق إلى بيت العريس! أما المفارقة الثانية، فكانت تتعلق بـ"اللوج"[29] الذي أعده غالب، شقيق خليل، على سطح المنزل حيث أقمنا الحفل، فعندما وصلنا السطح، صعدنا الدرج، ووقفنا على اللوج، وكان هناك عدد من أطفال العائلة حولنا، وبعد أن رفع خليل الطرحة عن وجهي، وجلسنا على الكنبة، انكسر اللوج ووقعنا على الأرض! تداركنا الموضوع، وجلسنا على الكراسي. استمرت الحفلة ساعتين من غير أغانٍ أو زغاريد، كما أراد خليل. أمضينا أسبوعًا في البيت. وفي اليوم الثالث من زواجنا، أحضر خليل الآلة الكاتبة، وجلسنا نطبع هيكل البناء الثوري. كنت قد تعلمت الطباعة في التعليم الشعبي، إلى جانب التدريب على السلاح. كانت الآلة الكاتبة التي استعارها من أحد الإخوة قديمة، فأخذت مني وقتًا طويلًا لطباعة عشرين نسخة.

كان هيكل البناء الثوري من أهم الوثائق التي قمت بطباعتها حينها، فقد كان أول أدبيات حركة فتح، بمقدمة تتحدث عن أوضاع الشعب الفلسطيني، وحالة التشتت والضياع التي يعيشها، وعن الأنظمة العربية وتخاذلها، وضرورة العمل على استرداد وطننا، وكيفية ذلك، وغيرها من تفاصيل التي لا أزال أذكر طباعتها. أمضينا أسبوعًا مع الأهل في غزة، ثم غادرنا سويًا لنكمل مشوارنا.

(29) اللوج: منصة خشبية يجلس عليها العروسان.

الفصل الثاني

بداية الرحلة: في الكويت والجزائر

شهر العسل والعمل: ما بين بيروت والقدس وعمّان

غادرنا معًا إلى القاهرة، وبقينا هناك مدة أسبوعين. كان شهر عسل وشهر عمل في آن واحد. قمنا بزيارة بعض الأماكن السياحية، وارتدنا دار السينما، كما كان خليل يذهب ليلتقي الشباب والخلايا الموجودة في مصر، وراجعنا الدوائر الحكومية المصرية للحصول على تأشيرة خروج وعودة، بصفتنا نحمل الوثيقة الفلسطينية.

حاولنا الحصول على تأشيرة دخول إلى لبنان، ولكن بسبب حملنا للوثيقة، رفضوا منحنا التأشيرة، ومع ذلك، ولأن خليل كان مُغامرًا، ركبنا الطائرة إلى بيروت من غير تأشيرة. غادرنا القاهرة إلى لبنان، وكنت قلقة طوال الرحلة، فهل ستمكن من دخول بيروت أم لا؟ أما خليل، فقد كان هادئًا، ويضحك على قلقي، ويقول لي: "لا عليك، سوف أتدبر الأمر". عند وصولنا المطار، وقفنا في طابور طويل، وعندما وصلنا الدور، قدّمنا الوثيقتين للشرطي، فأخذ يقلبهما بين يديه باحثًا عن تأشيرة الدخول، وعندما لم يجدها قال الضابط: "أصحاب الوثائق ممنوعون من الدخول!". أجاب خليل بابتسامة: "أنا أعرف أن حملة الوثائق ممنوعون، لذلك سوف نغادر على أول طائرة في الغد، ولكن أرغب أن ترى عروسي، ونحن في رحلة شهر العسل، بيروت، وإن كان ساعات". تجاوب الشرطي معنا مبتسمًا: "مبروك، سوف أسمح لكما كرمال العروس، بس راح أحجز الوثيقة عندي للغد، واذهبوا لشراء تذاكر السفر إلى الجهة المغادرين إليها".

احتجز الشرطي الوثيقة، وخرجنا إلى بيروت. وعندما سألت خليل عن مصير الوثيقة، أخبرني أن صديقًا له، واسمه هاني فاخوري[1]، سوف يحضرها لنا

---

(1) هاني فاخوري (–2013): من أوائل اللبنانيين الذين انضموا إلى حركة فتح. عمل مع توفيق حوري على إصدار مجلة فلسطيننا. وهو من مؤسسي الحركة اللبنانية المساندة لحركة فتح، وعضو مؤسس في ندوة العمل الوطني، إضافة لعضويته في المؤتمر القومي العربي.

من المطار في اليوم التالي. كان دائم الحديث عن الأخوين توفيق حوري[2] وهاني فاخوري، وشاءت الأقدار أن أتعرف إليهما، وأن نلتقي بهما معًا في بيروت، فضلًا عن العديد من مسؤولي التنظيم هناك. كانت جلسات الحوارات والنقاشات تمتد ساعات طويلة. وكان لدى الإخوة تساؤلات كثيرة يلفها القلق، هم أقسموا يمين الولاء لفلسطين وانتسبوا لحركة فتح، ولكنه القلق من المجهول، القلق من تأجيل الانطلاقة.

كان خليل يتفهم مشاعرهم وقلقهم، ويتحدث إليهم عن التنظيم، وعن كيفية بنائه، وأساليب استقطاب العناصر الجديدة، وعن التدريب وأهميته، وعن التسليح. كان يسأل الإخوة عن السلاح الذي تسلموه، وعن نوعيته، وعدده، وكميات المتفجرات التي وصلت، وطرائق تخزينها وتوزيعها. كان، منذ البداية، رجل التفاصيل بلا منازع. دارت هذه الجلسات بحضوري، وهذا الوجود معهم أكسبني الكثير من احترامهم وثقتهم، واستغرابهم كذلك؛ عروس في أيامها الأولى تتحمل هذه المشاق كلها، وتتنقل معه للقاء الكوادر من مكان إلى آخر.

كان للمكتب الثاني، في مخيم عين الحلوة، سطوة وبأس شديد، والشباب الفلسطيني يتعرض للإهانة والضرب. كان شباب فتح الأوائل يعملون بسرّية تامة، بينما عيون المخابرات اللبنانية ترصد كل حركة، وبخاصة، عندما تظهر وجوه غريبة عن المخيم. ونحن في طريقنا لزيارة عين الحلوة، سأل خليل الأخ أحمد الأطرش[3] الذي يرافقنا، إن كان قد رتّب كل شيء لزيارة الشباب في مخيم عين

(2) توفيق حوري (1933-): ولد في بيروت. درس الاقتصاد والعلوم السياسية في إنكلترا. عاد إلى لبنان ليشارك في بدايات حركة "عباد الرحمن"، ثم أصبح أمين سر المجلس الإسلامي الذي كان يمثّل الجماعة الإسلامية في لبنان. ويُعدُّ حوري أحد المساهمين في تأسيس جامعة بيروت العربية بين عامي 1956 و1960. شارك، في عام 1980، بإنشاء جامعة الأوزاعي للدراسات الإسلامية، ومن ثم أصبح عضوًا في مجلس جامعة بيروت العربية، وحمل لقب مستشار الجامعة، ورئيس مجلس أمناء وقف المركز الإسلامي. ساهم في إصدار مجلة فلسطيننا التي نشرتها حركة فتح في عام 1959.

(3) أحمد محمد قاسم الأطرش (1938-1967): ولد في شفاعمرو. أكمل دراسته الأساسية والثانوية في دمشق، ثم انتسب إلى كلية الآداب في الجامعة اللبنانية. التحق بحركة فتح عام 1964، وشارك في عمليات العاصفة الأولى انطلاقًا من جنوب لبنان. أشرف، في عام 1964، على إعداد أول دورة عسكرية أُقيمت سرًا في طرابلس شمال لبنان، حيث ضمت هذه الدورة اثني عشر متدربًا من حركة فتح. اعتُبر من =

الحلوة، فأجابه: "نعم، لقد أعدّت لكم والدتي حفلة بمناسبة زواجكما، ودعت بعض جاراتها للاحتفال بابنة أخيها العروس. وأثناء الحفل، سنلتقي مع الشباب في الغرفة الثانية".

دخلنا منزل الأخ أحمد في المخيم، وانطلقت زغاريد والدته التي استقبلتني بالقبلات! وأمضيت ساعات والزغاريد ورقص الصبايا لم يتوقف، حتى انتهى من مهمته واجتماعه مع الشباب. وعند مغادرتنا، وخطواتنا تبتعد عن أزقة المخيم، كانت أصوات الزغاريد لا تزال تُسمع من بعيد.

توفيق حوري، شاب لبناني كان لديه ترخيص لمجلة اسمها **نداء الحياة**. استطاع خليل إقناعه أن تستفيد فتح من هذه الرخصة، وأن يتولى هو إصدارها بإشراف خليل، وإضافة كلمة "فلسطيننا"، ليصبح اسم المجلة **فلسطيننا نداء الحياة**. أعطى خليل الكثير من وقته لإخراج المجلة، ومتابعة موقف الحركة، واستكتاب الإخوة في اللجنة المركزية، وآخرين، وقد حظيت المجلة بصور لوحات الفنان إسماعيل شموط[4]، والتي كانت تعبّر عن نكبة الشعب الفلسطيني ومعاناته.

أثناء وجودنا في بيروت، قمنا بزيارة إحدى المزارع الواقعة في منطقة الجبل، وهي مزرعة لتربية الأسماك، يملكها توفيق حوري، وكانت تضم معسكراً لتدريب الشباب على السلاح. هؤلاء قدموا من جهات مختلفة، من الأردن وسورية ولبنان، كانوا يتدربون على السلاح ويتلقون جلسات توعية فكرية ووطنية. أمضينا يوماً كاملاً معهم، وكان خليل يسألهم عن أوضاعهم، ويجيب عن تساؤلاتهم، ويؤكد على أهمية الحرص على سرية العمل.

= أبرز القيادات العسكرية على الساحة اللبنانية. استشهد إثر انفجار لغم خلال دورة تدريبة في معسكر الهامة بالقرب من دمشق.

(4) إسماعيل شموط (1930–2006): رائد الفن التشكيلي الفلسطيني. ولد في مدينة اللد. هُجر بعد نكبة عام 1948 إلى مخيم للاجئين في خان يونس. انتقل في عام 1950 إلى القاهرة، حيث درس فن الرسم والتصوير في كلية الفنون الجميلة، وفي عام 1954 توجه إلى روما ليتابع دراسته في أكاديمية الفنون الجميلة. في عام 1965، انضم إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وأسس قسم الثقافة الفنية في دائرة الإعلام والتوجيه القومي. أسس، مع زملائه، أول اتحاد للفنانين التشكيليين الفلسطينيين في عام 1969، وانتُخب أميناً عاماً له، وفي عام 1970 انتُخب أميناً عاماً لاتحاد الفنانين التشكيليين العرب.

أمضينا شهرًا كاملًا في بيروت، ثم غادرناها إلى القدس. هبطت بنا الطائرة في مطار قلنديا، دخلنا الأردن أيضًا، رغم أننا من حملة الوثيقة المصرية الممنوعين من الدخول إلى الضفة الغربية، خطط خليل لهذه الزيارة قبل شهر، حيث أرسل برقية إلى وزير الداخلية الأردني قال فيها: "معالي وزير الداخلية الأردني المحترم؛ أنا خليل الوزير، مولود في مدينة الرملة، وأعمل مدرّسًا في الكويت، في مدرسة كاظمة، وأحمل وثيقة سفر مصرية. أرغب وعروسي، انتصار الوزير، والتي تحمل وثيقة سفر مصرية، قضاء شهر العسل في ربوع الأردن الحبيب".

وكان تجاوب الوزير الأردني كبيرًا، إذ جاءه الرد أن الأردن ترحّب به وبعروسه، وأن التأشيرة ستكون بانتظارنا في مطار قلنديا. وهكذا وجدنا أنفسنا نسير معًا في شوارع القدس. نزلنا في الفندق، ثم توجهنا إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه. صليت تحيّة المسجد وصلاة شكر لله على سعادتنا، ودعوته أن يحمي هذه السعادة، وأن ينصرنا ويحقق أهدافنا.

في اليوم التالي لوصولنا القدس، بدأت رحلة العمل الشاق؛ بدأ الاتصال بالإخوة عناصر فتح، والاتفاق معهم على سير العمل التنظيمي، والترتيبات العسكرية. كانت أبرز الأسماء التي لا أزال أذكرها الأخ رمضان البنا الذي رافقنا في معظم اللقاءات. ومن القدس، ذهبنا إلى مدينة الخليل، وحللنا ضيوفًا على الأخ بدوي جنيدي. وفي منزله التقى خليل بالعديد من شباب التنظيم. ثم توالت رحلة العمل التي شملت قلقيلية، ونابلس، وجنين، وطولكرم، وبيت لحم، وبيرزيت، ورام الله، وبيت صفافا، وأريحا.

أثناء وجودنا في مدينة نابلس، قمنا بزيارة أعمامنا الذين استقروا في المدينة بعد النكبة، وكان لقاءً حارًا، فنحن نراهم وعائلاتهم للمرة الأولى منذ النكبة. تجمّع جميع أفراد الأسرة في منزل أحدهم، وتبادلنا الأحاديث وأخبار العائلة والأهل، وسعدنا باللقاء.

في طريقنا إلى مدينة أريحا، مخيم عين السلطان تحديدًا، قال خليل إن الأخ الذي سنقابله اسمه حمد العايدي، وإنه من أصل بدوي، وهو شاب مخلص ونشيط وذكي. لم يلتقِ به منذ عام 1954، أي منذ اعتقلت المخابرات المصرية

خليل، وكان طالبًا حينها. وكان يضحك، فقد حمّل صديقه حمد، خلال التحقيق معه، المسؤولية كلها، وذكر أنه شريكه في العمليات العسكرية، لأنه كان مطمئنًا أنه غادر القطاع ولن يعود إليه، وأن الاعتراف عليه لن يتسبب في ضرره. كنت في شوق لأن أتعرف إلى الأخ حمد، لما شعرته من اعتزاز خليل بصديقه الحميم.

وصلت بنا السيارة إلى مخيم عين السلطان في مدينة أريحا، وأمام غرفة صغيرة في أحد أزقة المخيم، كُتب عليها يافطة البريد، نزل خليل من السيارة، وسأل عن عنوان صديقه حمد، فصعد شاب السيارة ليرشدنا إلى البيت، وانطلقت بنا السيارة في أزقة المخيم حتى وصلنا منزل حمد، وكان لقاءً حارًا، لقاء إخوة السلاح والمصير.

طال الحديث بينهما تلك الليلة، وفي اليوم التالي، التقى خليل مجموعة من الشباب، وكان الحديث عن صعوبة التحرك، وعن صعوبة استقطاب الأفراد للحركة والعمل التنظيمي، وكان تركيز خليل على أهمية نوعية العناصر التي نستقطبها، بغض النظر عن عددها. واتُّفق على لقاء آخر، بحيث يأتي حمد إلى الكويت بعد شهرين، إلى أن تتضح لديه صورة الأوضاع التنظيمية، على أن يقوم خلال هذه الفترة بالتركيز على عملية الإعداد السياسي للكوادر، وتدريبهم على استخدام السلاح، على أمل الانطلاق بالكفاح المسلح في بداية عام 1963.

بعد كل زيارة لهذه المدن والقرى والمخيمات، كنا نعود إلى مدينة القدس، لننطلق في اليوم التالي إلى مدينة أخرى. أمضينا شهرًا في التنقل بين المدن الفلسطينية في الضفة، إلى أن غادرنا إلى عمّان.

كانت الرحلة إلى مدينة عمّان طويلة، نزلنا في أحد الفنادق. وفي اليوم التالي من وصولنا، كان لقاؤنا مع الأخ محمد غنيم (أبو ماهر)[5] الذي دعانا لتناول طعام

---

(5) محمد راتب غنيم (أبو ماهر) (1937-): ولد في مدينة القدس. التحق بصفوف جماعة الإخوان المسلمين خلال خمسينيات القرن الماضي، ثم غادر الجماعة ليلتحق بالصفوف التأسيسية لحركة فتح. أصبح عضوًا في اللجنة المركزية للحركة، ومسؤولًا للشؤون الإدارية عام 1969. شغل عضوية القيادة العامة لقوات العاصفة. عُيّن مفوضًا عامًا للتعبئة والتنظيم في حركة فتح عام 1977. انتقل إلى تونس عقب الخروج من بيروت عام 1983. عارض اتفاق أوسلو، ورفض العودة إلى الضفة الغربية=

الغداء في منزله، كان الأخ أبو ماهر وقتها مسؤول الخلايا التنظيمية في الساحة الأردنية.

أمضينا أسبوعًا في مدينة عمّان متنقلين بين عمّان والزرقاء وجرش وعجلون وإربد ومخيمات اللاجئين في الأردن. في كل مكان يكون اللقاء حارًا مع الإخوة، والحماس للعمل كبيرًا. حققت هذه الجولة الجانب التعبوي، وعززت الجانب التنظيمي، وهيأت الجو لعمل قادم يتطلع الشباب إلى بدايته بشوق وقلق كبيرين. كلما عدنا إلى الفندق، كانت أحاديثنا امتدادًا لما دار من مناقشات مع الشباب، وكانت آمالنا تكبر. أنهكنا التعب، وبدأ الحنين إلى البيت الذي نحلم به.

إلى الكويت

في 9 أيلول/ سبتمبر 1962، غادرنا الأردن إلى الكويت، وعند وصولنا، وأمام سلّم الطائرة، كان يقف المهندس ياسر عرفات في استقبالنا، مدّ يده باسمًا للسّلام، مرّحبًا بالعروس، وقال لي خليل: "هذا هو الأخ ياسر عرفات الذي حدّثتك عنه طويلًا". فقال الأخ ياسر عرفات: "إنني أعرفك جيدًا، لقد حدّثني أخي خليل عنك كثيرًا، وأهنئه على اختياره، وألف مبروك". وقال لي إن خليل قد أطلعه على إحدى رسائلي، وقام بوضع خط أحمر تحت بعض الجمل، إعجابًا بكلامي الوطني.

أنهينا معاملات الوصول، واصطحبنا الأخ ياسر عرفات بسيارته الفاخرة إلى منزل ابن عمنا محمود الوزير، وكان هو أيضًا يعمل مدرّسًا في الكويت، وكان متزوجًا من مريم أبو رحمة، وكانت بيننا علاقة صداقة وانسجام.

ربطتنا بعرفات علاقة صداقة قوية منذ البداية، كان يرافقنا في البحث عن سكن وأثاث، الأمر الذي شغلنا عدة أيام بعد وصولنا. وأخيرًا، ضمنا البيت الدافع

= عام 1994، وبقي مقيمًا في تونس حتى عام 2009، إلى أن عاد إلى الضفة الغربية ليشارك في المؤتمر السادس لحركة فتح عام 2009، وانتُخب أمين سرّ للجنة المركزية.

أنا وخليل. سكنا في منطقة حَوَلّي، بالقرب من بيت ابن عمي محمود، كم كان بيتنا أنيقًا، جميلًا وبسيطًا. كان خليل يقول لي: "يا انتصار وجودنا مؤقت هنا، يجب أن نضع في حسابنا أننا سننتقل بعد حين".

كان عمله في التدريس يشغل الجزء الأكبر من يومه، حيث بدأ بتدريس المرحلة الابتدائية ثم الإعدادية، كان مدرّس صف ويدرّس جميع المواد. اعتاد خليل الاستيقاظ مبكرًا؛ يبدأ بالاستماع إلى نشرات أخبار الصباح عبر الراديو الصغير، ثم ينتقل إلى الحمام ليحلق ذقنه، ثم أقف بقربه أراقب حركة فرشاة الحلاقة وهي تنشر الصابون على ذقنه من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، في حركة سريعة، وهو يبتسم ويقول: "النساء مرتاحات من هذا الروتين اليومي". كان يحلو له أن يضمني إلى صدره، ويغمر وجهي بقبلاته الحارة، فينتقل الصابون إلى وجهي، ويضحك رغم احتجاجي.

كان دوامه المدرسي على فترتين؛ الأولى صباحية تمتد حتى الساعة الثانية عشرة ظهرًا؛ والثانية مسائية، تبدأ في الساعة الثانية والنصف وتنتهي عند الساعة الخامسة. بعد خروجه من البيت، مصحوبًا بدعاء من القلب أن يحفظه الله ويحميه، ويحمي هذه السعادة التي تغمر أيامنا ولياليها، كنت أبدأ ترتيب البيت، وإعداد الطعام، ومن ثم أجلس إلى طاولة الطعام وأمامي رزم من أعداد مجلة **فلسطيننا** التي كان يحضرها هو والأخ ياسر عرفات من المطار كل أسبوعين إلى بيتنا، فأقوم بطي كل عدد، ولصق شريط من الورق الأبيض حوله، أكتب الأسماء والعناوين، وأضع الطابع البريدي، وأجهّزها لإرسالها عبر البريد، كنت أشعر بسعادة الإنجاز.

كان خليل يعود أحيانًا من المدرسة ليساعدني في طي المجلة، وأحيانًا يذهب لمقابلة حركية مع أحد الإخوة، ثم يأتي إلى البيت ليتناول طعام الغداء بسرعة، ليعود مجددًا إلى الدوام المسائي. في المساء، كان الأخ ياسر عرفات يزورنا يوميًا، أحيانًا يصطحبنا في جولة بالسيارة، وأحيانًا آخذ وعدًا للخروج في جولة، ولكن الحوار والنقاش يطول غالبًا، فنعدل عن الخروج.

كان أبو عمار، في حينها، يعمل مهندسًا في الكويت، وقد أسّس شركة

مقاولات بشراكة مع أحد الأمراء الكويتيين، وقد كانت الشركة من أنجح الشركات حينها، حيث رست عليها عدة عطاءات مهمة ساهمت في تطوير البنية التحتية للكويت، ومنها طريق الكويت - الأحمدي. كان يزورنا يوميًا، وكثيرًا ما يتناول معنا طعام الغداء، وعندما كانت الظروف تسمح لنا بالخروج، كان يصطحبنا للتنزه بواحدة من سياراته الأربع.

أصبح بيتنا، المكوّن من غرفتين وصالة، مقرًا لاجتماعات حركة فتح، في البداية، كنت أحضر هذه الاجتماعات من دون أي صفة رسمية، ولكن بعد أكثر من شهر، تمت تسمية أعضاء اللجنة المركزية، وعندها توقفت عن حضور الاجتماعات.

كانت اجتماعات اللجنة المركزية تناقش قضايا عديدة، منها هيكل البناء الثوري وبيان حركتنا. كما كانت تُناقش الأوضاع التنظيمية وتطورها، إضافة إلى ترشيحات يقدّمها الإخوة لعضوية الحركة. وتم الاتفاق على أن يجري الاتصال مع المرشح من أقرب الإخوة إليه، أو معرفةً به، بحيث يتصل به، ويُجري معه حوارًا سياسيًا طويلًا يمتد عدة جلسات، وإذا تم قبول المرشح، وتبلورت قناعاته بالحركة، ينخرط بها عضوًا نصيرًا، بعد أن يؤدي قَسَم الولاء لفلسطين أمام أحد أعضاء اللجنة المركزية.

بدأ تنظيم فتح بالانتشار، وكان لمجلة **فلسطيننا - نداء الحياة** دور كبير في التعريف بأهدافها ومبادئها وخطها السياسي، وقد التحق الكثيرون بالحركة من خلال المجلة. في تلك الفترة، كانت مجموعات من الشباب الفلسطيني الواعي في غزة والضفة والشتات يعملون على تأسيس مجموعات ثورية، هدفها تحرير فلسطين، حيث وصل عدد هذه المجموعات إلى أكثر من 65 مجموعة.

حَمَلت هذه المجموعات أسماء متعددة، وبدأت حركة فتح حوارًا مع هذه المجموعات التي وجدت ضالتها في الحركة، فانضمت إليها، كما حصل في

البداية مع مجموعة محمود عباس[6]، وأبو يوسف النجار[7]، وسعيد المسحال[8]، ورفيق النتشة[9] في قطر، ومجموعة عبد الفتاح حمود[10]، وكمال عدوان،

(6) محمود رضا عباس (أبو مازن) (1935-): ولد في مدينة صفد، وتلقى تعليمه الأساسي فيها. لجأ مع عائلته إلى دمشق بعد حرب عام 1948. درس الحقوق في جامعة دمشق، والتاريخ في معهد الدراسات الشرقية في موسكو. حضر اللقاءات التأسيسية لحركة فتح في أوائل ستينيات القرن الماضي. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية للحركة في عام 1964، وأصبح عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني في عام 1968، وترأس اللجنة الأردنية - الفلسطينية المشتركة بين عامي 1979 و1981. انتُخب عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام 1980. ساهم في اتفاق أوسلو عام 1993، وترأس دائرة شؤون المفاوضات بين عامي 1994 و2003. عُيّن أمين سرّ للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية منذ عام 1996، وعُيّن رئيسًا للوزراء ووزيرًا للداخلية في عام 2003، ثم انتُخب رئيسًا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام 2004، وانتُخب رئيسًا للسلطة الوطنية الفلسطينية منذ عام 2005.

(7) محمد يوسف النجار "أبو يوسف النجار" (1930-1973): ولد في قرية يبنا، في قضاء مدينة الرملة، وتلقى فيها تعليمه الأساسي، ثم انتقل إلى مدينة القدس ليكمل تعليمه الثانوي في الكلية الإبراهيمية. كان أحد مؤسسي حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، وتفرّغ للعمل فيها في عام 1967، وعُيّن رئيسًا للجنة السياسية العليا للفلسطينيين في لبنان في عام 1968. انتُخب عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام 1969، وأصبح رئيسًا لجهاز الأمن والمعلومات في حركة فتح في عام 1971. اغتيل في حيّ فردان في بيروت، مع كلٍ من كمال عدوان وكمال ناصر، في بيروت.

(8) محمد "سعيد" خليل المسحال (1933-2019): ولد في قرية الجورة في مدينة عسقلان، شمال شرق غزة. حصل على درجة البكالوريوس في هندسة البترول في جامعة القاهرة في عام 1957. التحق، في بداية شبابه، بصفوف جماعة الإخوان المسلمين، وبقي فيها حتى عام 1953. تولى رئاسة اللجنة الإعلامية في رابطة الطلبة الفلسطينيين أثناء دراسته في جامعة القاهرة في عام 1956. شارك في اللقاءات التأسيسية لحركة فتح منذ عام 1958، وشارك في صوغ بيانها الأول في ذلك العام. عُيّن مستشارًا أميريًا في دولة قطر لشؤون البترول والصناعة. عارض اتفاق أوسلو الذي وُقّع في عام 1993. أسس مؤسسة سعيد المسحال للثقافة والعلوم في عام 1996. توفي في مدينة عمّان ودُفن فيها.

(9) رفيق شاكر النتشة (1934-): ولد في مدينة الخليل. أكمل تعليمه الجامعي في بيروت والقاهرة وموسكو. انتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين مطلع خمسينيات القرن الماضي، ثم انضم إلى حركة فتح. أصبح عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني منذ عام 1964، وشغل مناصب عدة داخل حركة فتح، منها عضويته في اللجنة المركزية للحركة عام 1980، وكان ممثلًا لمنظمة التحرير وحركة فتح في المملكة العربية السعودية في الفترة بين عامي 1979 و1990، وفي عام 1996 فاز بعضوية المجلس التشريعي في السلطة الفلسطينية. عُيّن وزيرًا للعمل بين عامي 1998 و2000، ووزيرًا للزراعة بين عامي 2002 و2003، ورئيسًا للمجلس التشريعي بين عامي 2003 و2004. عُيّن رئيسًا لهيئة مكافحة الفساد بين عامي 2010 و2019، وممثلًا شخصيًا للرئيس محمود عباس عام 2021.

(10) عبد الفتاح عيسى حمود (1933-1968): ولد في قرية التينة قضاء مدينة الرملة، وتلقى تعليمه =

وأحمد قريع[11]، وماجد أبو شرار[12]، ومحمد الأعرج[13]، وسعيد المزين[14] في السعودية. وكانت لقاءات المجموعات في السعودية، تتم في منطقة الخفجة الحدودية في الكويت.

= الأساسي فيها. حصل على البكالوريوس في هندسة البترول من جامعة القاهرة في عام 1957. التحق بصفوف جماعة الإخوان المسلمين حتى عام 1958. شارك في تأسيس رابطة الطلبة الفلسطينيين في القاهرة، وشارك في اللقاءات التأسيسية لحركة فتح. شغل عضوية لجنة إقليم السعودية في حركة فتح أثناء عمله فيها. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح في عام 1967، كما عُيّن أمين سر لإقليم الأردن في العام نفسه. توفي في حادث سير على الحدود الأردنية - العراقية، ودُفن في عمّان.

(11) أحمد قريع (أبو علاء) (1937-): ولد في بلدة أبو ديس شرق مدينة القدس. انتخب عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح عام 1989، وعُيّن منسقًا عامًا للوفود الفلسطينية للمفاوضات متعددة الأطراف المنبثقة عن مؤتمر مدريد عام 1991، وترأس الوفد الفلسطيني حلال المباحثات الفلسطينية - الإسرائيلية في العاصمة النرويجية أوسلو، والتي أفضت إلى توقيع إعلان المبادئ حول ترتيبات الحكم الذاتي الانتقالي - اتفاق أوسلو - عام 1993. أصبح وزيرًا للاقتصاد والتجارة في السلطة الفلسطينية، ثم وزيرًا للصناعة بين عامي 1994 و1996، ورئيسًا للمجلس التشريعي الفلسطيني في 1996، ورئيسًا للوزراء بين عامي 2003 و2005.

(12) ماجد محمد أبو شرار (1934-1981): ولد في مدينة دورا في محافظة الخليل، وتلقى تعليمه الأساسي فيها، وحصل على شهادة الثانوية العامة في عام 1952 في مدينة غزة. نال درجة البكالوريوس في الحقوق من جامعة الإسكندرية في عام 1958. التحق بصفوف حركة فتح في عام 1962. عمل محررًا في صحيفة الأيام السعودية في عام 1959، انتُخب عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح في عام 1967. تولى رئاسة تحرير صحيفة فتح اليومية في عام 1968. عُيّن أمين سر للمجلس الثوري لحركة فتح بين عامي 1971 و1980. عُيّن مسؤولًا للإعلام الفلسطيني الموحد في عام 1973. انتُخب في مؤتمر حركة فتح الرابع عضوًا في لجنتها المركزية في عام 1980. اغتيل في مدينة روما، ودُفن في بيروت.

(13) محمد علي الأعرج (أبو الرائد) (1935-2014): ولد في قرية مجدل صادق قضاء مدينة الرملة، وتلقى تعليمه الأساسي في مدارسها، ثم أكمل تعليمه في مدينة نابلس، عقب النكبة، في عام 1948، ثم حصل على دبلوم من دار المعلمين. التحق بحركة فتح في مطلع ستينيات القرن الماضي، وتفرغ للعمل فيها في عام 1967. عُيّن أمين سرّ المجلس الثوري في عام 1968. شغل عضوية لجنة إقليم حركة فتح في الأردن في عام 1969. شغل عضوية جهاز التعبئة والتنظيم التابع لحركة فتح، مسؤولًا عن التعبئة الفكرية، وشغل عضوية اللجنة العليا للانتفاضة الفلسطينية الأولى في عام 1987.

(14) سعيد خليل المزين (أبو هشام) (1935-1991): ولد في مدينة أسدود، وتلقى تعليمه الأساسي في مدارسها. لجأ، عقب النكبة، إلى قطاع غزة في عام 1948، وعمل مدرّسًا في مدارسها. التحق بحركة فتح في السعودية في عام 1959، إلى أن تفرّغ للعمل بشكل كامل داخل حركة فتح في عام 1966 في دمشق. عمل في جهاز الإعلام في حركة فتح، ثم جهاز التعبئة والتنظيم بين عامي 1966 و1971. انتُخب عضوًا في المجلس الثوري في عام 1971، وشغل عضوية المجلس الوطني الفلسطيني في العام ذاته. عمل ممثلًا لحركة فتح في السعودية بين عامي 1973 و1978.

أذكر أنني، وبعد وصولي إلى الكويت بشهرين، أجهضت حملي الأول، وبعد أن تأكد حملي للمرة الثانية، كان عليّ التوجه إلى المستشفى كل يوم مدة ثلاثة أسابيع، لمتابعة حالتي الصحية، وكان الأخ ياسر عرفات يأتي بسيارته كل يوم ليصحبني مع زوجي إلى المستشفى. كان معنا دائمًا، لا يفارقنا إلا في ساعات العمل، أو النوم، وقد كان بمكانة الأخ الكبير لنا.

كيف بدأت الفكرة

أذكر جيدًا حديثًا دار بيني وبين خليل خلال شهر العسل عندما سألته عن البدايات، كيف ومتى بدأت الفكرة؟ فحدَّثني، حينها، بحماس شديد، عن حوار دار بينه وبين ياسر عرفات في تموز/ يوليو 1958، وقال إنه وعرفات كانا يجوبان في السيارة شوارع الكويت منتصف الليل، ويتحدثان بشجون وانفعال وغضب عما حل بشعبنا من حرمان وتشرد، دون أن يكون لشعبنا أي ذنب في ما حصل. وتساءلا في ما إذا كان شعبنا سينتظر أن تقوم الدول العربية، بدلًا منه، باتخاذ موقف، وهي التي تقف حارسًا أمينًا على حدود العدو، تعتقل وتسجن وتُعذِّب أي شخص يفكِّر، أو يحاول، العمل لتحرير فلسطين.

ثم حدَّثه خليل عن تجربة الشباب الواعي في غزة، وصعوبة بداية العمل الوطني، مع وجود العديد من الشباب المستعدين للعمل الذي ينتظر من يأخذ بيديه لينطلق حاملًا روحه على كفه من أجل استعادة الوطن. عكس حديثهما خذلانًا كبيرًا من الدول العربية وتقاعس الأنظمة، وضرورة أن يبادر بالعمل.

أكمل خليل رواية ما حصل، وقال إن السيارة توقفت قرب شاطىء الخليج، وترجلا منها، ووقفا طويلًا يتأملان الشاطىء بأمواجه البيضاء وهي تتكسر عند الشاطىء. مرت دقائق، وغاص كل منهما في أفكاره، ثم تلاقت بضرورة العمل على إخراج شعبنا من حالة الضياع. اتفقا على العمل لاستعادة الوطن، وأقسما على السير في هذه الطريق، لأنها الطريق الوحيد لتحرير فلسطين. وهكذا كانت البداية؛ رجلان آمنا بحق شعبنا بالعمل من أجل استرداد الوطن المسلوب، آمنا بالكفاح المسلح نهجًا للحياة، فتعاهدا على البدء بالعمل، وشكَّلا الخلية الأولى مكونة منهما؛ أبو عمار وخليل الوزير. اتفقا على دعوة ثالث، واللقاء مرة أخرى في موعد قريب، ثم افترقا.

أخبرني خليل أن الشخص الثالث الذي انضم إلى الخلية كان الأخ عادل عبد الكريم[15]. بعدها، اجتمع الثلاثة وتحدثوا مطوّلًا، وقرروا دعوة إخوان آخرين مؤمنين بأفكارهم. وقد تمت دعوة كل من الإخوة يوسف عميرة وتوفيق شديد[16].

استمرت اجتماعات الخلية الأولى فترة من الزمن، وكانت السرّية أحد أهم قواعد العمل واللقاءات. بعد فترة، انسحب من الخلية يوسف عميرة وتوفيق شديد، بينما استمر أبو عمار وخليل الوزير وعادل عبد الكريم بالحوار والنقاش والدعوة إلى العمل. وقد اتفق ثلاثتهم على الأسس والأهداف ووسيلة العمل، وبدئه كانت الخطوة الأولى، وهي تنظيم مجموعات للعمل، قد بدأت بالفعل، حيث كان خليل الوزير وإخوانه في قطاع غزة قد بدؤوا تنظيم الشباب في خلايا عسكرية منذ بداية عام 1954، تلك الخلايا التي قامت بالفعل بعمليات عسكرية ضد أهداف العدو.

تقرر أن يستمر خليل بالتواصل مع هذه المجموعات، بينما كُلّف الأخ عادل عبد الكريم بالتواصل مع من يثق بهم في سورية، كونه لاجئًا في سورية منذ عام 1948، ولديه علاقات قوية مع العديد من أبناء المخيمات.

وقد تابعت الخلية الأولى التطورات على الساحة العربية، وتابعت الإرهاصات الثورية التي ظهرت في مخيمات اللاجئين بين الشباب الفلسطيني،

(15) عادل عبد الكريم ياسين (1933–2017): ولد في قرية بلعا قضاء طولكرم، وهُجّر مع أسرته إلى سورية في عام 1948. أكمل تعليمه الثانوي والجامعي في دمشق، وعمل فيها مدرسًا. انتقل للعمل في الكويت في عام 1956، وكان أحد مؤسسي حركة "فتح"، وعضو لجنتها المركزية منذ تأسيسها، إلى أن انسحب منها في عام 1966، ليتجه بعدها إلى المسار الأكاديمي.

(16) يقول خليل الوزير: "قبل عام 1957، كان هناك لقاءات عديدة بيني وبين الأخ أبو عمار، يجمعنا الهم المشترك والبحث عن الخلاص، وعن ماهية العمل، وضرورة إيجاد الشكل التنظيمي الأنسب والمعبر عن مجموع حالتنا الفلسطينية، ورسم خطوط التحرك المشترك. دعونا عددًا من الإخوة الذين يشاركوننا الهم والفهم المحدد لبناء التنظيم، وكان مجموعنا خمسة أشخاص، هم الإخوة: أبو عمار، وأبو جهاد، وعادل عبد الكريم، يوسف عميرة، توفيق شديد، وكان الاجتماع التأسيسي. عقدنا الاجتماع التأسيسي في بيت أحد الإخوة في الكويت، ووضعنا في هذا الاجتماع الخطوط العريضة الأولى لعملنا التنظيمي. أما في الاجتماع الثاني، تخلّف أحد الخمسة عن الحضور ممتنعًا عن مواصلة الطريق، فبقينا أربعة إخوة، بدأنا بوضع اللبنات الأولى لحركة فتح. وهنا أريد أو أوضح أن هدفنا كان بناء تنظيم من أجل فلسطين": الوزير، ص 63–64.

حتى وصلت إلى أكثر من خمس وستين مجموعة مختلفة في عدد من الساحات العربية والأوروبية. وهنا، بدأت الخلية الأولى بالعمل على استقطاب هذه المجموعات للانضمام إلى الحركة من خلال حوارات طويلة مع أفرادها. وقد نجحت الجهود؛ فانضمت إلى الخلية مجموعات ثورية من عدة دول خليجية مثل: السعودية، وقطر، والكويت، إضافة إلى سورية ولبنان والأردن وألمانيا والنمسا.

الفراق الأول

في آذار/ مارس 1963، اجتمعت اللجنة المركزية للبحث في رسالة مهمة وصلتهم من جمال عرفات (أبو رؤوف)[17]، وهو شقيق أبو عمار المقيم في القاهرة. كانت الرسالة تحتوي طلبًا بإرسال مندوب من حركة فتح لتسلّم مكتب إعلامي لفلسطين في الجزائر.

كان أبو رؤوف يتميز بعلاقة وطيدة مع عائلة أحمد بن بلة[18]،

(17) جمال عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني (أبو رؤوف) (1919–1989): الشقيق الأكبر لياسر عرفات. ولد في مدينة القدس، وتلقى تعليمه الأساسي والثانوي في مدينة القاهرة. التحق بكلية الآداب في قسم الصحافة في جامعة القاهرة (كانت تُدعى في تلك الفترة بجامعة الملك فؤاد الأول). عُيّن سكرتيرًا عامًا لحكومة عموم فلسطين بين عامي 1948 و1952. تولّى منصب السكريتارية العامة لرابطة كفاح الشعوب العربية والإسلامية. عُيّن سفيرًا لفلسطين لدى السودان بين عامي 1983 و1986، ثم سفيرًا لدى الجمهورية اليمنية بين عامي 1986 و1989.

(18) أحمد بن بلّة (1916–2012): ولد في بلدة مغنية بالقرب من الحدود المغربية – الجزائرية. انضم إلى "الاتحاد الوطني للمسلمين" في شمال أفريقيا في عام 1931، قبل أن يتحول لاحقًا إلى "حزب الشعب الجزائري" في عام 1937. انشق عن الحزب مع مجموعة من رفاقه ليؤسسوا "اللجنة الثورية للوحدة والعمل". اعتقلته القوات الاستعمار الفرنسية إثر نشاطه الثوري بين عامي 1950 و1952. اختطفه سلاح الجو الفرنسي على متن طائرة مغربية متجهة إلى تونس في عام 1956، إذ أُجبرت الطائرة على الهبوط في مطار البيت الأبيض (مطار هواري بومدين حاليًا) في الجزائر، ليتم اعتقاله في فرنسا بين عامي 1956 و1962. أصبح رئيسًا للوزراء بين عامي 1962 و1963، ثم انتُخب رئيسًا للدولة في الجزائر بين عامي 1963 و1965. عُزل من منصبه عبر انقلاب عسكري نفّذه وزير الدفاع هوّاري بومدين في عام 1965، ووُضع تحت الإقامة الجبرية في الجزائر، ثم نُفي خارج الجزائر بين عامي 1980 و1991. عاد إلى الجزائر ليشارك في انتخابات السلطة التشريعية في عام 1991، حيث أسس "حزب الحركة الديموقراطية"، لكنه لم يفز في انتخابات البرلمان الجزائري.

ومحمد خيضر[19]، وكانا يقيمان في القاهرة أثناء نضالهما في الثورة الجزائرية. وعندما اعتقلت السلطات الفرنسية قادة الثورة الجزائرية الخمسة[20]، بقي أبو رؤوف على تواصل مع عائلاتهم. وعندما زار محمد خيضر الكويت عام 1963، التقى خليل الوزير وأبو عمار معه، وحدثّاه عن حركة فتح، وطلبا منه فتح مكتب لفلسطين في الجزائر كما حركات التحرر الوطني الأفريقية والآسيوية وأميركا اللاتينية. وعندما أُقيمت احتفالات الاستقلال الجزائري، تمت دعوة أبو رؤوف لحضورها، عندها قام محمد خيضر بتقديم مكتب إعلامي لفلسطين، وطلب إلى أبو رؤوف إدارته.

بعث أبو رؤوف رسالته طالبًا منهم تكليف شخص آخر لإدارة مكتب فلسطين في الجزائر، نظرًا إلى رغبته بالعودة إلى القاهرة. وبعد عدة اجتماعات، بُحث فيها من يتولى مسؤولية أول مكتب إعلامي لفلسطين في الجزائر، وقعت اللجنة المركزية في حيرة، إلى أن تطوع خليل الوزير بالذهاب إلى الجزائر لإدارة المكتب هناك. عندها، اتخذت اللجنة المركزية قرارين: الأول أن يترك خليل عمله في الكويت ويسافر إلى الجزائر في اليوم التالي لتولي إدارة مكتب فلسطين هناك. والثاني كان بخصوصي، حيث تم تكليفي بالسفر إلى غزة، حاملة رسائل إلى التنظيم هناك. وبهذا القرار، كان خليل الوزير أول من ترك عمله وتفرغ للعمل بشكل كامل في حركة فتح.

عُقد هذا الاجتماع في منزل عادل عبد الكريم، على غير العادة، حيث كانت غالبية الاجتماعات تُعقد في منزلنا. عاد خليل من الاجتماع في حوالى الساعة

---

(19) محمد خيضر (1912–1967): ولد في بسكرة في الجزائر. اتصل بالحركة الوطنية الجزائرية في وقت مبكر، وشارك في تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل في عام 1954. اعتُقل وآخرين وهم على متن طائرة متوجهة إلى تونس، إثر تصدي طائرة عسكرية فرنسية لهم، في عام 1956. عُيّن، أثناء اعتقاله غيابيًا، وزيرًا فخريًا للدولة، في عام 1958. عُيّن، بعد الاستقلال، أمينًا عامًا للمكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني في تموز/يوليو 1962. استقال من الجبهة بعد خلافه مع أحمد بن بلة، وحُكم عليه بالإعدام غيابيًا. اغتيل في مدريد في 5/1/1967، ودُفن في الدار البيضاء.

(20) قام الجيش الفرنسي، في أثناء أحداث الثورة الجزائرية، باختطاف الطائرة وفيها خمسة من قادة الثورة الفرنسية، وهم: أحمد بن بلة، ومحمد خيضر، وحسين آيت أحمد، ومحمد بوضياف، ومصطفى الأشرف، في 22/10/1956، وكانت الطائرة متوجهة من الرباط إلى تونس.

الرابعة صباحًا، فسألني: "صاحية؟". أجبت: "صاحية، وكنت أنتظرك". فأبلغني أنه علينا أن نسافر في اليوم التالي، وأخبرني بقرار عودتي إلى غزة حاملة الرسائل، بينما يسافر هو إلى الجزائر. وقال لي إننا سنفترق مدة بسيطة، وعندما يرتب أمور المكتب في الجزائر سوف يرسل إليّ لألتحق به. اندهشت لسرعة الحركة عندما علمت أننا سنستغل إجازة العيد للمغادرة والسفر، ولم أعترض. كنت حاملًا بطفلي الأول، فوجدت في ذلك سببًا كافيًا للعودة إلى غزة، كنت ملتزمة بقرار القيادة؛ أن يبقى موضوع سفر خليل إلى الجزائر محاطًا بسرية تامة، حتى عن أهلي، لإنجاح مهمته هناك.

توجهنا إلى المطار في اليوم التالي، رفقة أبو عمار، ولكننا لم نتمكن من مغادرة الكويت بسبب عدم حصول خليل على إذن مغادرة من وزارة التربية والتعليم الكويتية، إذ كان يوم جمعة، والوزارة مغلقة، إلا أنّ ياسر عرفات اتصل بخالد الحسن (أبو السعيد)، وكانت له مكانة مرموقة وعلاقات قوية في الكويت، واستطاع، من خلال هذه العلاقات، أن يؤمّن لنا إذن المغادرة، فتمكنا من المغادرة يوم السبت، وسافرنا بالطائرة من الكويت إلى بيروت.

ونحن في الطائرة، أمسك خليل يديّ وقال: "انتصار، إن نجاحنا في العمل بالجزائر، ستُفتح آفاق جديدة لثورتنا. شعب الجزائر ضحى بميلون ونصف المليون شهيد، وانتصر بحمد الله، ولنا من كفاح الشعوب قدوة. سيكون الفراق صعبًا لكلينا، فهذه هي المرة الأولى التي سنفترق بها منذ زواجنا، ولكن عهدتك قوية، تتحملين وتقدرين، أرجو أن تنقلي إلى الإخوة في قطاع غزة ما سأكتبه لك من رسائل، وما سأكتبه لك من بيروت". قلت له: "كيف ستدبر أمر تأشيرة الدخول إلى بيروت؟". قال: "لقد تولى الأخ توفيق حوري وضع التأشيرة في المطار، وسوف ينتظرنا ومعه الأخ هاني فاخوري".

بالفعل، وصلنا مطار بيروت، ودخلنا بسلام. وفي اليوم التالي، رافقني إلى المطار لأغادر إلى القاهرة. وصلت القاهرة، ومنها توجهت بالقطار إلى أرض الوطن الحبيب غزة. سافرت بالقطار كونه أكثر أمنًا، لأنني كنت وحدي. كنت قد أرسلت برقية إلى والدي أخبره بموعد قدومي، وعندما وصلت رفح، وجدت خالي

بانتظاري، وأخبرني أن والدي لم يستطع الحضور بسبب مرضه. عندما وصلت، توجهت إلى منزل والدي لزيارته، ومن ثم انتقلت إلى بيت عمي للبقاء معهم.

فرح الأهل كثيرًا بعودتي، ولكن بدت ملامح والدي قلقة ومضطربة؛ أخذني جانبًا وسألني عن خليل، وسبب عدم حضوره معي، وسألني إذا كان هناك خلاف بيننا اضطرني إلى العودة وحيدة؟ ضحكت، وطمأنته أننا سعداء جدًا، وأخبرته أنني حامل، وقد فضّل الطبيب ألاّ أركب بالطائرة في الأشهر الأخيرة من الحمل، فحضرت إلى غزة مبكرًا، وكنت أردد هذا العذر كلما بادرني أحد بالسؤال عن زوجي.

رغم إلحاح والدي واستفساره عن عدم مجيء زوجي معي، والأسئلة الكثيرة التي كان يطرحها عليّ بقلق شديد، فإنني احتفظت بالسر في أعماقي وتهرّبت من الإجابة، والتزم والدي الصمت. هذا الصمت كان يتحوّل إلى ابتسامة عريضة عندما كنت أطلب إليه أن يلقي نظرة على صندوق البريد ليجد رسائل تصلني من صديقتي في الجزائر، الدكتورة ليلى بن عمار، وهذه الصديقة الوهمية لم تكن إلا اسمًا مستعارًا، اتفقت مع زوجي أن يكتبه على الجهة الخارجية من رسائله ليتجنب الكثير من المتاعب، وحتى لا يُكتشف أمر وجوده في الجزائر. كنت أنتظر رسائله بشوق، خاصة وقد طالت أيام فراقنا لتمتد نحو عام. كان والدي يعرف خط خليل، وكان لديه شك أن هذه الرسائل منه، كان يقول لي: "بدي أجوزك إياها ليلى"، ويضحك. قلت له في وقتها إن خليل يكمل دراسته في جامعة بيروت العربية، وسوف يلتحق بي قريبًا.

أثناء وجودي في غزة، اشتد المرض على والدي ووافته المنية. بعد ثلاثة أيام من وفاته، وفي جو الحزن العميق، رُزقت بولدنا الأول جهاد، بتاريخ 20 تموز/ يوليو 1963. على الرغم من فرحتي بولادته، فإنّ أجواء الحزن طغت على بيتنا لوفاة والدي وغياب خليل عنا في هذه المحنة، إلا أنّ رسائله كانت تشد من أزري، وتخفف ألمي، وتبقيني على أمل اللقاء القريب به.

كنت على اتصال دائم بالإخوة في التنظيم طوال مدة وجودي في قطاع

غزة، خاصة الأخ محمد الإفرنجي، والشيخ هاشم الخزندار[21]، حيث كنت أنقل لهما رسائل أبو جهاد من الجزائر.

مكتب لفلسطين في الجزائر

عندما افترقنا في بيروت، قبل عام، وعدت إلى غزة، توجه خليل إلى الجزائر، وكانت مهمته صعبة للغاية، حيث واجه الكثير من المصاعب والعراقيل قبل بدء عمل المكتب، فقد مرت أكثر من ستة أشهر قبل وصول إشارة من أبو جهاد إلى زملائه في الحركة تفيد أن جميع القضايا التي كانت معلقة مع الحكومة الجزائرية، بالنسبة إلى موضوع موافقتهم على تسلمه المكتب، قد انتهت إيجابيًا، وكان إيمانه بعدالة القضية، وأهمية وجود مكتب في الجزائر لدعم الحركة هما الدافع الأكبر للتحمل وضبط النفس.

كان خليل، ومنذ وصوله إلى الجزائر، يذهب يوميًا إلى فيلا جولي، وهي مقر رئاسة الجمهورية الجزائرية، لمقابلة الرئيس أحمد بن بلة، ليأخذ موافقته على فتح المكتب، ويحدثه عن حركة فتح وأهدافها، ويؤمّن دعم الجزائر لها، وكان ينتظر عند مدير مكتبه إلى أن ينتهي الدوام من دون أن يتحقق موعد المقابلة، فينصرف ليعود في اليوم التالي. وقد أمضى ما يقارب ستة أشهر في محاولاته اليومية لمقابلة الرئيس أحمد بن بلة من دون كلل أو ملل. كانت تلك الأيام قاسية عليه، كان يصارع فيها الأمل الذي عاش حياته من أجله، وهو تحقيق أهداف حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) لبدء الثورة والكفاح، واليأس من تجاوب المسؤولين الجزائريين والسماح له بممارسة العمل الذي كان يطمح إليه.

كان خليل يسعى لأن تكون أرض الجزائر، أرض المليون شهيد، قاعدة للثورة الفلسطينية، تحتضن الثوار للتدريب والإعداد، وتساعد على الانطلاق بالرصاصة

---

(21) هاشم الخزندار (1915–1979): ولد في غزة. انتظم في صفوف جماعة الإخوان المسلمين في ثلاثينيات القرن العشرين خلال دراسته الجامعية في مصر، وشغل عضوية المكتب الإداري لجماعة الإخوان المسلمين في قطاع غزة، ورئيسًا لشعبة الرمال بين عامي 1951 و1954. شارك في النقاشات الأولى لتأسيس حركة فتح، وعُيّن عضوًا في مجلس بلدية غزة عام 1975.

الأولى، وتستفيد خلالها فلسطين من التجربة الجزائرية. الحلم الذي لم يتوقف عنه منذ أن شُرِّد هو وشعبه من بلده وأرضه فلسطين. وفي لحظة ما، بعد سته أشهر بلا جدوى، تغلّب عليه الإحساس باليأس، فاتخذ قراره وحسم أمره بالعودة إلى الكويت.

في ذلك اليوم، التقى صديقًا جزائريًا اسمه عثمان السعدي[22] الذي كان يعرفه حين كان ممثل جبهة التحرير الجزائرية في الكويت، وكان يعرفه حق المعرفة، التقاه، وسلّمه مفتاح المكتب، وأبلغه بقصّة انتظاره اليومية وعدم السماح له بالعمل في المكتب، وتجاهل الرئاسة الجزائرية حضوره، وعدم رغبتها بالبت في موضوع فتح المكتب، ومنحه الصلاحيات المطلوبة. كما روى له قصة انتظاره اليومي في فيلا جولي، حتى ظن الموظفون أنه أحد موظفي الرئاسة الجزائرية!

انزعج عثمان السعدي مما سمعه، وذهب في اليوم التالي للقاء الرئيس أحمد بن بلة، وحدّثه طويلًا عن أهمية دعم حركة فتح، وإصدار التعليمات بدعم مكتب فلسطين، وفتح علاقة ثورية مع هؤلاء الشباب الفلسطينيين، شباب حركة فتح. عندها اطمأن الرئيس أحمد بن بلة، والذي كانت تراوده الشكوك سابقًا حول الحركة وشبابها، وأبلغ الأخ عثمان أنه موافق على مطالب الشباب كلها، طالما أن عثمان يثق بهم، وعلى مسؤوليته. أسرع الأخ عثمان ليزف البشرى إلى صديقه خليل، فوجده قد غادر إلى المطار عائدًا إلى الكويت، فلحق به وأوقف سفره، وعاد به إلى المكتب ليبدأ العمل.

علمنا في ما بعد أن سبب تأخر القيادة الجزائرية في الموافقة على فتح مكتب

---

(22) عثمان السعدي (1930-): ولد في قرية تازبنت في ولاية تبسة. تخرج في معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة عام 1951، وأكمل تعليمه الجامعي في القاهرة وبغداد والجزائر. مناضل في جبهة التحرير الوطني منذ تأسيسها، وأمين مكتب جيش التحرير الوطني في القاهرة في أثناء الثورة المسلحة، ورئيس البعثة الدبلوماسية في الكويت بين عامي 1963 و1964. عُيّن سفيرًا في بغداد بين عامي 1971 و1974، وسفيرًا في دمشق بين عامي 1974 و1977. كان عضوًا في مجمع اللغة العربية الليبي في طرابلس، وعضوًا في المجلس الشعبي الوطني بين عامي 1977 و1982، وعضوًا في اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني بين عامي 1979 و1989، ورئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية منذ عام 1990.

فلسطين في الجزائر كان نتيجة ضغوطات تعرضت لها الجزائر من المخابرات المصرية حينها.

كانت فرحة خليل كبيرة ببدء العمل في المكتب، وعكف على وضع استراتيجية للعمل، تتضمن تحديد خطة إعلامية، وخطة علاقات عامة للمكتب. كما قام بإعداد دراسات حول القضية الفلسطينية، ونشرات أسبوعية وشهرية، إضافة إلى عقد الندوات والمحاضرات. كما بدأ يتصل مع وزارة التربية لطرق الباب لإحضار معلمين فلسطينيين للمشاركة في حملة التعريب التي أقرها حزب جبهة التحرير والحكومة الجزائرية. وضع رؤيته للعمل، وبدأ يخطط وينفذ بمساعدة الأخوين سعيد البرغوثي ووديع عبد اللطيف، وهما من أوائل من عمل في مكتب الجزائر مع أبو جهاد.

بدأ خليل بالاتصال مع الإخوة في قطاع غزة والضفة الغربية لإرسال أول فوج من المدرّسين، وكان يستقبل القادمين باسم مكتب فلسطين، ويقدّم لهم المساعدات والمعونات والقروض، ويسعى بحمل طلباتهم إلى الأكاديمية لإيجاد وظائف لهم في سلك التعليم الجزائري. كما استقطب، للعمل في الجزائر، مجموعة من الأطباء والمهندسين، وغيرهم من الكفاءات. في هذه الفترة، اتخذ خليل لنفسه اسمًا حركيًا وهو "علال بن عمار"، كان الاسم جزائريًا. ومن خلال احتكاكه بالإخوة الجزائريين، أتقن الهدرة الجزائرية "اللهجة الجزائرية".

كان الشباب الفلسطيني معجبًا بهذا الشاب الجزائري، علال بن عمار، لنشاطه وتفانيه في خدمتهم وخدمة القضية الفلسطينية، واقتنعوا أنه جزائري، وتعاملوا معه على هذا الأساس، إلى أن وصلت مجموعة من الشباب الفلسطيني من قطاع غزة، وكان من بين القادمين شاب اسمه قاسم الجاروشة، وتربطه بخليل صلة قرابة من جهة والدته، وعندما التقاه تعرّف إليه وسأله: "ألست خليل الوزير؟". أجابه خليل: "لا، أنا اسمي علال بن عمار". ولم يقتنع قاسم بذلك، فأرسل إلى والدته رسالة طلب فيها أن تزورنا في البيت في غزة. حضرت والدته لزيارتنا، وأمام عدد كبير من الأهل والزوار، أخرجت الرسالة من حقيبتها، وطلبت من إحدى الجالسات أن تقرأ لها الرسالة، والتي قال فيها: "بعد التحية والسلام، اذهبي يا والدتي إلى بيت خالي الحاج مصطفى الوزير، وقولي لهم إنني قابلت ولدهم خليل الوزير

في الجزائر، ومع الأسف الشديد أنه أنكر أصله!". ساد جو من الاستهجان، واتجهوا بأنظارهم إليّ مستفسرين عن صحة ما جاء في الرسالة، لكنني أنكرت الأمر، وقلت إنه موجود الآن في لبنان، وسيعود إلى الكويت، وإنني سألتقي به في الكويت خلال الأسبوع القادم.

لحسن الحظ، كنت قد حددت موعد سفري قبل أيام، وذلك عندما أبلغني الشيخ هاشم الخزندار بالتعليمات التي وصلت من القيادة في الكويت، والتي قررت أن أتحرك فورًا إلى الجزائر.

حضّرت نفسي للسفر إلى الجزائر، وكان ابني جهاد قد بلغ ستة أشهر من عمره. أتممت إجراءات الحجز وشراء التذكرة بنفسي حتى لا يعرف أحد وجهة سفري الحقيقية. جاء الأهل لوداعي، ومن الطريف أن بعض الأقارب والأصحاب أحضروا إليّ رسائل وهدايا لأولادهم في الكويت لأحملها إليهم، تسلمتها كلها، وقبل السفر بدقائق، طلبت من والدة زوجي أن تعيد الهدايا في اليوم التالي بحجة أنني نسيتها، وشرحت لها الموقف كاملًا، وأبلغتها أنني متجهة إلى الجزائر وليس إلى الكويت، ووعدتها أن أكتب لها عن أحوالنا هناك.

وصلت القاهرة، وهناك عانيت بعض الإشكاليات في السفر مباشرة إلى الجزائر. اضطررت إلى البقاء شهرًا كاملًا في ضيافة الأخ جمال عرفات (أبو رؤوف)، وزوجته صديقتي العزيزة الدكتورة فاطمة التي التقيتها أول مرة في تلك الزيارة. كانت مشكلتي مع شركة الطيران التي كانت ترفض أن أسافر في الطائرة الأسبوعية إلى الجزائر، بحجة عدم حملي لتأشيرة دخول إلى الجزائر. وعندما توجهت إلى السفارة الجزائرية للحصول على التأشيرة، كان الجواب أنني لا أحتاج إليها. وكان خليل قد طلب مني ركوب الطائرة بأي طريقة، لأن التأشيرة ستكون بانتظاري عند الوصول في المطار. واستمر الوضع على هذه الحال إلى أن أشفقت عليّ موظفة شركة الطيران في المطار، وسمحت لي بركوب الطائرة، شرط توقيعي على تعهد بدفع ثمن تذكرة العودة على حسابي في حال رفضت السلطات الجزائرية السماح لي بالدخول، فوقّعت التعهد أخيرًا. وبعد شهر من المعاناة، ركبت الطائرة أنا وجهاد، وتوجهنا إلى الجزائر.

شعرت أن الرّحلة طويلة، وكان الخوف يعتريني، هل أصل الجزائر وأجد زوجي قد غادر إلى بلد آخر في مهمة؟ إذ كان قد كتب لي في برقيته الأخيرة قبل مغادرتي القاهرة: "احضري فورًا، وإلا فأنا مضطر للمغادرة مدة من الوقت". وأخيرًا، حطّت بنا الطائرة على أرض الجزائر، ونزلت السلم وعيناي تتجه إلى شرفة المستقبلين، بحثت عنه بين الموجودين لكنني لم أجده بانتظاري! ختمت وثيقة السفر المصرية التي أحملها وتوجهت إلى أقرب هاتف للاتصال به، لكنني لم ألقَ جوابًا.

لم يكن أمامي حل سوى أن أركب سيارة أجرة وأتوجه إلى عنوان المكتب الذي كان قد أرسله إليّ سابقًا، كنت في غاية القلق ألا أجده، خاصة أنني لا أحمل معي نقودًا. كانت الأفكار تتصارع في رأسي؛ ماذا أفعل إن لم أجده؟ وقلت لنفسي إن لم أجده، فسأتوجه إلى أي فندق، وسوف أبيع بعض قطع الذهب التي أرتديها وأتدبر أمري إلى أن يعود.

وصلت إلى العنوان، وقرعت جرس الباب، نظرت حولي، إنها فيلا كبيرة، مظهرها الخارجي جميل، وتقع على تقاطع شارع ديدوش مراد، وشارع رو دو باريس. لحظات وأنا أتأمل في المبنى إلى أن فتح شاب الباب سألته: "هل علال بن عمار موجود؟". قال: "نعم". أخذت نفسًا عميقًا، وشعرت بالأمان، ها أنا ذا أخيرًا قد وصلت! ذهب الشاب إلى الداخل مدة دقائق، وبقيت أنتظر عند الباب، وعندما عاد قال لي: "يا سيدتي، لا يوجد لدينا وظائف شاغرة!". ضحكت، وأزحت الشاب عن طريقي، وصعدت الدرج، وقد اعترته الدهشة، كان الشاب قد أبلغ خليل سابقًا أن هناك سيدة تريد مقابلتك، واعتقد أنني أبحث عن عمل. لم يخطر ببال خليل أنني وصلت، حيث كان ينتظر موعد وصول الطائرة القادمة من القاهرة مساء ذلك اليوم.

وبينما كنت أصعد الدرج، نزل خليل مسرعًا ليرى من يسأل عنه، وكانت المفاجأة أنني وصلت في الطائرة الصباحية. كان لقاءً حارًا وحلوًا؛ حمل جهاد بين يديه، كان سعيدًا بنا جدًا، وفرحة اللقاء كبيرة، نزل خليل ليحاسب سيارة الأجرة، ثم صعدنا إلى غرفتنا في الطابق الرابع من مبنى المكتب نفسه.

كان المكتب مؤلفًا من أربعة طوابق من غير مصعد، كان طابق "القبو" تحت الأرض فارغًا، إلى أن تم استغلاله مكتبةً وقاعة اجتماعات، وكان المكتب الرئيس - الاستقبال - في الطابق الأول، والطابقان الثاني والثالث لمكاتب الموظفين. أما نحن، فكنا نسكن في الطابق الرابع. كان السكن عبارة عن غرفة نوم مربعة، ملحقة بحمام صغير فيه مغسلة ومرحاض، وغرفة ثانية على الطرف الآخر من الطابق مع مطبخ عرضه متر ونصف المتر وطوله متران مع مجلى من الإسمنت.

نظرت بإشفاق: "هل سنعيش هنا؟". قال بابتسامته المعتادة: "لا عليك، هذا سكن مؤقت وسيكون جنّة حينا". وانطلق يحدّثني عن المكتب وأهمية العمل الذي يقومون به هو وزملاؤه. سحبني من يدي ليعرفني إلى المكتب، وبدأ يشرح لي: "هنا غرف المكاتب، هذه غرفتي، وهذه غرفة للطباعة، وهذه غرفة نائب مدير المكتب، وأخرى للاجتماعات، والقبو سوف يغدو قريبًا قاعة للمحاضرات". كان سعيدًا وهو يتحدث عن أفكاره وخططه، قال إن هذا المكتب سيكون نافذتنا إلى العالم، وإننا سنبذل جهدنا كله، وإن الجزائر قد احتضنت جميع حركات التحرر من أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، ولذا سوف نعزز علاقاتنا مع الجميع. كما أخبرني أنه سيزور سفارات الدول الاشتراكية لبحث آفاق التعاون معهم.

كان قد أحضر لي ولجهاد هدايا فاجأنا بها؛ زجاجة عطر لي، وعربة أطفال لطفلنا جهاد. ذهبنا ذلك المساء لتناول طعام العشاء في مطعم قريب من المكتب، وضعنا جهاد في العربة وخرجنا مشيًا إلى المطعم في الطريق، أصرّ أن يدفع هو عربة جهاد وسرنا، وأنا أكاد لا أصدق أننا أصبحنا معًا.

في اليوم التالي، نزلت من غرفتي إلى المكتب لأجده يعج بالحركة والمراجعين؛ شباب ينتظرون الحصول على عقود العمل؛ فهذا تسلم عقده، وهذا ينتظر، وهذا يستفسر عن مكان عمله. مراجعون يوميًا في المكتب، واجتماعات، ولقاءات، ومواعيد. كان المكتب يعمل كخلية نحل من الصباح وحتى انتهاء الدوام.

مرّ أسبوع بدأت بعده أطرح على خليل بعض الأسئلة المتعلقة بحياتنا الخاصة، وأوضاعنا المادية، سألته عن بيتنا في الكويت، فأجابني أن الإخوة هناك تولوا مسألة بيع الأثاث وأرسلوا إليه المبلغ، إلا أنه استنفده في إقراض بعض

الشباب القادمين للعمل في مجال التعليم من الضفة والقطاع. وسألته عن رواتبه المستحقة الأخيرة من الكويت، فأجابني أن وزارة التربية والتعليم الكويتية لم توافق على التقرير الطبي الذي أرسله لتبرير غيابه عن عمله ومغادرته البلاد، لذلك لم تُصرف له مستحقاته، أو تعويضات عن أعوام خدمته. ثم سألته بوضوح عن وضعنا المالي، وكيف سنعيش، وعن مصدر دخلنا، فقال لي إنه قد خُصص له راتب شهري، ولكنه تبرع به للعمل، وإنّه حتى تلك اللحظة لم يتسلّم منه شيئًا. أبلغني أنّه يملك مبلغًا بسيطًا مما تبقى من قيمة أثاث البيت في الكويت، وابتسم وقال لي: "لا تخافي، بفرجها الله، ولن نموت من الجوع".

التزمت الصمت ولم أعلّق على كلامه. سألني عن سبب صمتي، فأجبته أنني أفكر كيف ستستمر حياتنا هكذا، وأنني يجب أن أجد حلًا، وقد وجدته، فقال: "كيف؟". قلت له: "أن أقدم أوراقي وشهاداتي للعمل في تدريس اللغة العربية في الجزائر". أعجبته الفكرة، لكنه أصرّ على أن يتم تقديم طلب بعد تعيين جميع من تقدموا بطلبات قبلي، وعددهم ستون شخصًا، فاتفقنا على أن أتقدم بالطلب غدًا صباحًا.

وفي صباح اليوم التالي، جهّزت ملف أوراقي وسلّمته إلى الأخ وديع عبد اللطيف لتقديمه إلى الأكاديمية، على أمل الحصول على وظيفة. وكانت المفاجأة عندما عاد، فقد كان يحمل لي بين يديه عقد العمل ومكانه! عندما قدّم الأخ وديع أوراقي، تم قبولي للوظيفة مباشرة لأنني أول فتاة من المجموعة تتقدم بطلب للعمل، وكانت الجزائر بحاجة لمعلمات لتعريب المناهج وتدريس الفتيات.

دخلت مكتب خليل فرحة أزفّ له نبأ قبولي للوظيفة، وإذ به يغضب، ويأخذ العقد ويضعه في درج مكتبه ويقفل الدرج بالمفتاح، وقال: "لن تذهبي إلى العمل قبل أن يتم تعيين جميع الإخوة الذين جاؤوا للعمل قبلك، لا أريد أن يقولوا إنني وظّفت زوجتي أولًا!". وكان محقًا في موقفه. لم أنزعج منه، بل أكبرته، أكبرت فيه روح العطاء والتضحية واحترام الغير والعدل. انتظرت أسبوعين، وبعد ذلك، أفرج عن أوراقي، واصطحبني إلى المدرسة بنفسه. بحثنا معًا عن العنوان، وذهبنا أول مرة للتعرف إلى المدرسة، والمواصلات إليها.

انتظمت في عملي في مدرسة بلكور. وعلى الرغم من أوقات الدوام المرهقة والمتقطعة، فإنني كنت أشعر بسعادة كبيرة، أعمل وأنفق على أسرتي، وجميع الإخوة العاملين معنا في المكتب الذين زاد عددهم ليصبح أحد عشر شخصًا. كنت أستيقظ في الساعة السادسة صباحًا، أحضّر حمام الصغير جهاد ورضاعته، وأعد الإفطار لزوجي، ثم أحضّر وجبة الصغير الثانية، وأغادر المنزل عند السابعة والنصف صباحًا. للوصول إلى المدرسة، كنت أسير مدة عشر دقائق لأصل محطة الترام، ثم أستقل الترام مدة عشر دقائق أخرى لأصل إلى باب المدرسة، وأدخل إلى الحصة مباشرة.

كان جو التدريس جيدًا، والطالبات الجزائريات متلهفات لدراسة اللغة العربية، لكن المشكلة الوحيدة كانت تتمثل في عدم وجود منهاج وكتب موحدة للتعليم، وعلى كل معلم أن يعتمد على منهج الدولة التي جاء منها، حيث يرسل في طلب مناهج اللغة العربية للصفوف الأولى. في البداية، واجهتني مشكلة اللغة، حيث إن الطالبات كنّ يتكلمن اللغة الفرنسية بطلاقة، بينما كنّ يتحدثن اللغة العربية بـ"الهدرة" الجزائرية، أي باللهجة المحلية، وقد شكّل هذا عقبة بيني وبين الطالبات في البداية، إلا أنني، ومع مرور الوقت، والاستفسار عن المعاني المقصودة، بدأت أتفاهم معهن بشكل أفضل.

كانت الفترة الأولى من دوامي الصباحي تنتهي في الساعة الحادية عشرة صباحًا. أعود بعدها إلى البيت في الطريق نفسه، أصل محطة الأوتوبيس (الحافلة). وقبل التوجه إلى البيت، سيرًا على الأقدام، كنت أذهب إلى السوق لأشتري اللحم والخضار والفواكه وبقية الاحتياجات. أدخل إلى المكتب لأجد صغيري جهاد محمولًا على يد والده بحكم وجوده في المكتب ورعايته له فترة غيابي. وإذا نام الصغير، كان يضعه في سريره في الطابق الرابع، وعندما يصحو، يسمع بكاءه، فيذهب إليه ويحمله، ويرعاه حتى أعود، لأنشغل بدوري بالصغير، وإعداد الطعام، وتحضير وجبة الغداء لنا ولجميع الإخوة العاملين في المكتب.

أحيانًا، كنت أجد الوقت لمشاركتهم الطعام، وأحيانًا أذهب مسرعة للعودة إلى العمل في الفترة المسائية التي كانت تنتهي الساعة الخامسة مساءً. وعند العودة إلى البيت، كان ينتظرني عملي الآخر، وهو طباعة جميع التقارير والدراسات والبيانات

على الآلة الكاتبة باللغة العربية، وكان الأخ سعيد البرغوثي يترجمها إلى اللغة الفرنسية، ليقوم بطباعتها باللغة الفرنسية أخ جزائري آخر، وهو موظف في المكتب.

كان دوام المكتب ينتهي في الساعة السابعة والنصف مساءً، وبعدها، يبدأ مشوارنا اليومي مع صغيرنا جهاد الذي يستمتع كثيراً بعربته الجميلة التي أهداها إليه والده، ويستمتع أيضاً بيد والده من جهة، ويد أمه من الجهة الأخرى، تدفعان العربة إلى الأمام. كنا نسير معاً جنباً إلى جنب في أجمل شوارع الجزائر العاصمة، واسمه شارع ديدوش مراد القريب منا، كانت وجهة سيرنا دائماً مبنى البريد، لنفتح صندوق بريدنا الخاص لتسلّم مجلة **فلسطيننا**، وبعض المجلات الشهرية والدوريات التي اشتركنا بها.

في إحدى ليالي تشرين الثاني/ نوفمبر 1963، عدت إلى البيت من عملي، لأجد عدداً من الإخوة يجلسون مع أبو جهاد، فقدّمني لهم، وعرّفني إليهم، وهم الإخوة: ممدوح صيدم[23]، وعبد الكريم العكلوك[24]، وأحمد عقل، وطالب

(23) ممدوح صبري صيدم (أبو صبري) (1940–1971): ولد في قرية عاقر جنوب غرب مدينة الرملة. تلقى تعليمه الأساسي والثانوي في غزة. ثم التحق بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية في مصر في عام 1963. ترأس اتحاد الطلبة الفلسطينيين في جامعة الإسكندرية، والتحق بصفوف حركة فتح، في بداياتها، عمل بعد عودته إلى قطاع غزة في عام 1963. ترأس البعثة الثقافية الفلسطينية في مكتب فلسطين في العاصمة الجزائرية بين عامي 1963 و1965. تفرغ للعمل العسكري في عام 1965، واعتقلته قوات الأمن السورية، في عام 1966، إثر حادثة مقتل النقيب يوسف عرابي. انتقل إلى الأرض المحتلة بعد حرب عام 1967 ليشرف على إقامة قواعد ارتكاز عسكرية في منطقة نابلس. انتُخب عضواً في اللجنة المركزية لحركة فتح، وعضواً في القيادة العامة لقوّات العاصفة في المؤتمر الثاني للحركة عام 1968. توفي بعد معاناته من مرض عضال.

(24) عبد الكريم العكلوك (1937–1995): ولد في مدينة دير البلح، وقد أنهى دراسته الثانوية عام 1956، التحق بجامعة عين شمس في القاهرة. تفرغ للعمل في مكتب حركة فتح في الجزائر عام 1963. عمل ممثلاً لحركة فتح في جمهورية الصين الشعبية في عام 1964، ثم عاد إلى دمشق وشارك في الانطلاقة الأولى للحركة عام 1965. اعتُقل في دمشق على خلفية الأزمة التي قُتل فيها يوسف عرابي. عُيّن أمين سر لإقليم سورية بين عامي 1967 و1969، وكان أحد مؤسسي مكتب التعبئة والتنظيم لحركة فتح، وتولى مسؤولية المنظمات الشعبية في الحركة بين عامي 1970 و1989، كان عضواً في المجلس الثوري لحركة فتح، وعضواً في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية. عُيّن رئيس هيئة الرقابة العامة في السلطة الوطنية الفلسطينية في عام 1994.

مطاوع أبو شمالة، ومحمد رواس، ووليد نمر (أبو علي إياد)[25]، ووجيه قاسم[26]، وأحمد وافي[27].

في تلك الليلة، دار بيننا نقاش طويل حول أوضاع الشعب الفلسطيني ومعاناته، وحول حركة فتح. كان واضحًا لي أن الإخوة هم من أبناء الحركة، فقد كان لديهم وعي تنظيمي عالٍ، والتزام مطلق بأهداف ومنطلقات حركتنا، وإخلاص وإصرار الجميع على المضي بهذا الطريق.

كان الإخوة يعملون في سلك التعليم في أماكن مختلفة في الجزائر. وقبل مغادرتهم البيت، تم الاتفاق على موعد لقاء ثابت كل أسبوع، وانتظمت اللقاءات، واتخذت الشكل التنظيمي بعد أشهر. وقد اعتُمدت هذه المجموعة لجنةً لإقليم الجزائر، حيث عمل أفرادها بجد في تأطير وتنظيم العديد من المعلمين والطلبة والمهندسين الفلسطينيين في إطار حركة فتح.

كنت عضوًا في لجنة الإقليم، وكان أبو جهاد عضوًا في اللجنة المركزية، ومكلفًا بالإشراف على التنظيم في الجزائر، كما كُلّف بالإشراف على التنظيم في أوروبا، فأرسل يدعو الإخوة يحيى عاشور[28]،

---

(25) وليد أحمد نمر شريم (أبو علي إياد) (1935-1971): ولد في قلقيلية، وتلقى تعليمه الأساسي والثانوي في مدارسها. انضم إلى صفوف حركة فتح في عام 1965، وتولى مسؤولية الإعداد العسكري في الأراضي الفلسطينية المحتلة. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح في مؤتمرها الثاني في دمشق عام 1968، كما انتُخب عضوًا في القيادة العامة قوّات العاصفة. استُشهد في أحداث أحراش عجلون في عام 1971.

(26) وجيه حسن قاسم (أبو مروان) (1938-): وُلد في سيلة الظهر شمال الضفة الغربية. أنهى المرحلة الثانوية وانتقل للعمل مدرسًا في السعودية، وهناك، التحق بحركة فتح في عام 1963. عمل مسؤولًا إعلاميًا في مكتب فلسطين، ثم مكتب منظمة التحرير في الجزائر قبل أن يشغل منصب سفير فلسطين لدى المغرب بين عامي 1988 و2005.

(27) أحمد وافي (أبو خليل) (1935-2013): ولد في مدينة خانيونس، ودرس في مدارسها. اعتُقل، خلال العدوان الثلاثي على مصر وقطاع غزة عام 1956. شارك في تأسيس حركة فتح، وعُيّن معتمدًا لحركة فتح في الجزائر وشمال أفريقيا في عام 1965، وعُيّن ممثلًا لمنظمة التحرير الفلسطينية في الجزائر عام 1971. انتخب عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح في المؤتمر الثالث للحركة في عام 1971. أُصيب إصابة بالغة في محاولة اغتيال تعرّض لها في عام 1972.

(28) "حمدان" يحيى أسعد عاشور (أبو عمر) (1940-2016): ولد في مدينة غزة وتلقى تعليمه فيها. بدأ عمله الوطني خلال دراسته في المرحلة الثانوية، إذ تعرف إلى خليل الوزير (أبو جهاد) وكمال عدوان =

وعبد الله الإفرنجي [29]. وهاني الحسن [30]، وهايل عبد الحميد [31]، للحضور إلى الجزائر، لمقابلتهم بشكل فردي لمناقشة أوضاع التنظيم في مناطقهم [32].

= وغيرهم من القيادات التي أسست حركة فتح، وانضم إلى صفوفها عام 1959. ساهم في تأسيس اتحاد الطلبة الفلسطينيين في النمسا في أثناء دراسته في عام 1960. تولى مسؤولية تنظيم حركة فتح في النمسا، ثم في ألمانيا بين عامي 1960 و1967. أُرسل إلى دورة عسكرية في جمهورية الصين الشعبية في عام 1967. عُيّن معتمدًا لإقليم حركة فتح في الساحة اللبنانية بين عامي 1969 و1972. انتُخب عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح بين عامي 1971 و2009. عُين نائبًا لمفوض التعبئة والتنظيم، خالد الحسن (أبو السعيد)، في حركة فتح بين عامي 1972 و1980. عُيّن وزيرًا للأشغال العامة والإسكان في عام 2003 في السلطة الفلسطينية. شغل عضوية المجلس الاستشاري لحركة فتح بين عامي 2011 و2016.

(29) عبد الله الإفرنجي (1943–): ولد في بئر السبع. انتقل وعائلته إلى العريش بعد النكبة. سافر إلى ألمانيا في أواخر عام 1962، وشارك في العمل الطلابي هناك إلى جانب هاني الحسن وهايل عبد الحميد وآخرين. انتقل ومجموعة من المتطوعين، بعد عام 1967، لتلقي التدريب في الجزائر، وبعدها توجهوا إلى دمشق، ومن دمشق تسللوا عبر الحدود الأردنية إلى الأرضي المحتلة، متجهين إلى الخليل وبحوزتهم السلاح. اعتُقل الإفرنجي ومن معه بعد فشل مهمتهم. أُطلق سراحه بعد عام ونصف العام، فعاد إلى العمل في ألمانيا، حتى أُبعد عنها بعد عملية ميونخ في عام 1972. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية في مؤتمر الحركة الخامس في عام 1988.

(30) هاني محمد سعيد الحسن (1938–2012): ولد في قرية إجزم قضاء مدينة حيفا. تلقى تعليمه الأساسي والثانوي في حيفا ثم في دمشق، وأتم تعليمه الجامعي في ألمانيا. ساهم في تأسيس الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين في ألمانيا، وأسس مع هايل عبد الحميد تنظيم "طلائع العائدين". التحق بحركة فتح في عام 1963، أُرسل إلى دورة عسكرية في الصين في عام 1967. عُيّن أمين سرٍّ لإقليم الأردن، بين عامي 1967 و1969، وعُيّن نائبًا لمفوّض جهاز الأمن والمعلومات في حركة فتح في عام 1973، وكان أول ممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية في طهران عقب الثورة الإسلامية في عام 1979. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية، وعُيّن مفوضًا لدائرة العلاقات الخارجية للحركة في عام 1980. عمل مستشارًا سياسيًّا للرئيس ياسر عرفات. عُيّن وزيرًا للداخلية في السلطة الفلسطينية بين عامي 2002 و2003.

(31) هايل رضا عبد الحميد (أبو الهول) (1937–1991): ولد في مدينة صفد، وتلقى تعليمه الأساسي فيها. انتقل إلى دمشق وتلقى تعليمه الثانوي هناك، ثم التحق بكلية الاقتصاد والتجارة في جامعة فرانكفورت في ألمانيا. ساهم في تأسيس اتحاد عمال فلسطين، وكذلك ساهم في تأسيس فروع اتحاد طلاب فلسطين في أوروبا. التحق بصفوف حركة فتح في عام 1963. انتُخب عضوًا في اللجنة التنفيذية لاتحاد طلبة فلسطين، ومسؤولًا عن العلاقات الداخلية في الاتحاد بين عامي 1963 و1965. أصبح مسؤولًا عن تنظيم حركة فتح في مصر في عام 1967. أصبح معتمدًا للحركة في لبنان في عام 1972. عُيّن عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح في عام 1973، وعُيّن مفوّضًا لجهاز الأمن والمعلومات في الحركة. تولى قيادة القطاع الغربي، بعد استشهاد خليل الوزير. اغتيل في تونس مع صلاح خلف وأبو محمد العمري، ودُفن فيها.

(32) كتب أبو جهاد لعبد الله الإفرنجي في ألمانيا، رسالة جاء فيها: "أخي، لقد انتهيت من عملي في =

خلال وجودنا في الجزائر، نجحت في إقامة الكثير من العلاقات الاجتماعية مع أبناء الجالية هناك، كانت أول الأخوات اللوات تعرفت إليهن، وقمت بتنظيمها في حركة فتح، هي الأخت توحيدة وافي، شقيقة أحمد وافي.

كانت توحيدة من مدينة خانيونس، وجاءت للتدريس في الجزائر، حيث بدأ عدد الفلسطينيين الذين يتوافدون إلى الجزائر للعمل يتزايد؛ مهندسين ومعلمين وأطباء وطلاب. خلال تلك الفترة، تردد إلى الجزائر عدد من الإخوة في اللجنة المركزية، قادمين من الكويت، بدعوة من خليل، لإقامة ندوات بالمكتب، كان يحضرها العديد من القيادات الجزائرية، وأبناء الجالية الفلسطينية. وقد حضر أبو عمار، وخالد الحسن، وعلي الحسن[33]، وهايل عبد الحميد، للمشاركة في تلك الندوات. وكان خليل يدير الندوة أحيانًا، كما كان يديرها يحيى عاشور وعبد الله الإفرنجي أحيانًا أخرى.

ذات مساء، كنا على موعد لقاء مع أحد الإخوة القادمين من الكويت، وقد حمل إلينا رسالة من اللجنة المركزية، وكنا نجلس في أحد مقاهي الرصيف في شارع ديدوش مراد. وصل الأخ الذي انتظرناه، وتعارفنا، إنه الأخ محمد أبو ميزر[34]، كان يحمل رسالة من اللجنة المركزية، من الأخ فاروق القدومي

= الكويت مع أصحابي، وجئت إلى هنا لنعمل في هذا المكتب في الجزائر أرض الثورة، وهي معنا قلبًا وقالبًا، ولا أريد أن أطيل معك الحديث، فأنت بروحك معنا من زمن، لكن الذي أريده منك أن تكون خلية ثورية تجمع الشباب حول هدف الثورة لتحرير أرضنا المحتلة، والتجمع بعيدًا عن كل تيار حزبي أو إقليمي او أي جهة كائنة من كانت، فليس لنا إلا راية واحدة نتجه لها بقلوبنا وهي راية الثورة التي يجب أن تنفجر على الأعداء ليسمع العالم أننا أحياء ما زلنا". "نص رسالة الشهيد خليل الوزير الى الأخ عبد الله الإفرنجي في ألمانيا عام 1963"، مؤسسة خليل الوزير، شوهد في 8/ 12/ 2021، في: https://bit.ly/3DxY9ct

(33) علي الحسن (1932–2017): ولد في حيفا، وتلقى تعليمه في مدارسها. بعد النكبة عام 1948، انتقل إلى دمشق وعمل مدرسًا فيها. كان مسؤولًا عن التعبئة الفكرية في حركة فتح في الكويت.

(34) محمد سليمان سلامة أبو ميزر (أبو حاتم) (1936–): ولد في مدينة الخليل، ونشأ في القدس. درس في الكلية الرشيدية، وتابع دراسته العليا في جامعة القاهرة. انتمى إلى حزب البعث العربي الاشتراكي في عام 1951، وأنهى علاقته التنظيمية بالحزب في عام 1961، ثم التحق بحركة فتح في عام 1962. تولى مسؤولية مكتب حركة فتح في الجزائر بعد خليل الوزير، وعُيّن ممثلًا عن حركة فتح في باريس في عام 1968. شغل عضوية المجلس الثوري لحركة فتح في دورات عدة، وعمل مديرًا لمكتب العلاقات الخارجية في الحركة.

(أبو اللطف)، تقول إنه جاء إلى الجزائر للعمل في صحيفة **المجاهد**، ولمساعدتنا في العمل التنظيمي. رحّبنا به بحرارة. كان الأخ أبو ميزر يعمل في الصحيفة صباحًا، ثم ينضم إلينا في المكتب مساءً لنعمل على القضايا التنظيمية معًا[35].

كان نشاط مكتب فلسطين في تلك الفترة فاعلًا ومكثفًا، فبين الندوات واللقاءات والاجتماعات التنظيمية والتعبوية مع أبناء الجالية، ومع القيادات الجزائرية، ومكاتب حركات التحرر في الجزائر، وما يقوم به من استقطاب للكفاءات الفلسطينية، للعمل في التعليم والطب والهندسة وغيرها، أثبت مكتب فلسطين وجوده على الساحة الجزائرية. وقد لفت عمل المكتب أنظار أجهزة المخابرات المختلفة، وبخاصة المصرية، إذ حاولت، وبتحريض من السفير المصري في الجزائر، علي خشبة، دفع مجموعة شباب فلسطينيين، بقيادة عثمان السقا، إلى عرقلة سير عمل المكتب، وافتعال المشاكل، وتحريض الجالية، وطرح أسئلة حول ما يمثله المكتب وأعضاؤه، ومن نصّبهم في هذا الموقع؟ ومن أين للمكتب بالموازنة المالية؟ وكيف تنفق؟ وغير ذلك من الأسئلة المفتعلة. كان هدف هذه المجموعة التي لُقبت بـ"مجموعة الشغب"، هو التشكيك، وعرقلة العمل، مما سبب لنا انزعاجًا كبيرًا، خاصة وأننا كنا لا نزال في مرحلة العمل السري.

حاول خليل وأفراد المكتب، خلال تلك الفترة، استيعاب هذه المجموعة، بدعوتهم إلى حضور الندوات واللقاءات، لتوعيتهم بأهداف الحركة وعملها، وأذكر حادثة تهجّم هذه المجموعة على المكتب، عندما غادر خليل وياسر عرفات في أول زيارة رسمية فلسطينية لهما إلى الصين. ففي إحدى الليالي، جاءت المجموعة إلى المكتب، وتهجمت عليه، وأرادت اقتحامه والعبث بمحتوياته. وكنت في المكتب في تلك الليلة، مع عدد من الزملاء العاملين معنا، ومن بينهم محمد أبو ميزر وأحمد وافي. اقترح بعض الزملاء استدعاء الشرطة، إلا أنني اقترحت أن يتم إدخالهم، والحوار معهم. فوافقني الحضور، وفعلًا، جلسنا

(35) يُنظر: محمد أبو ميزر (أبو حاتم)، **الجذور والتراب: حوار عن القدس والمنفى والعودة الصعبة**، حاوره صقر أبو فخر (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020)، ص 171.

نتحاور معهم طوال الليل حتى الساعة الثالثة صباحًا. ونتيجة الحوار، تراجعت المجموعة. بعد انطلاقة الثورة، وفهمهم أهدافنا وعملنا، انضم العديد من أعضاء هذه المجموعة إلى الحركة لاحقًا، حتى أن السفير المصري علي خشبة نفسه، أصبح من أنصار الحركة ومؤيديها.

في مؤتمر القمة العربية المنعقد في القاهرة عام 1964، صدر قرار بتأسيس إطار سياسي لتنظيم طاقات الشعب الفلسطيني وتمثيله في المحافل الدولية، وكُلّف حينها أحمد الشقيري[36] بهذه المهمة. بدأ الشقيري مهمته بزيارة التجمعات الفلسطينية في مختلف الدول التي يوجد فيها الشعب الفلسطيني، وكان يعقد لقاءات مع العديد من الشخصيات الفلسطينية، ويتباحث معهم حول أفضل السبل لتحقيق ذلك. وخلال جولته، وصل إلى الجزائر. قامت وزارة الخارجية الجزائرية بإبلاغ مكتب فلسطين بتلك الزيارة، فخرج لاستقباله في المطار خليل الوزير، وأحمد وافي، وسعيد البرغوثي، وعدد من كوادر المكتب. وقد تفاجأنا يومها أن السفارة المصرية قد أرسلت مجموعة من الشغب إلى المطار.

قام خليل بمرافقة أحمد الشقيري خلال هذه الزيارة، واستغل وجوده معه ليشرح له عن دور المكتب، وأهداف حركة فتح، وآليات عملها، فأبلغه الشقيري أنه قد سمع كثيرًا عن الحركة من خلال لقاءاته مع كوادرها في الأردن، والكويت، ولبنان، والسعودية، أثناء جولته لقاءاته. كما قام خليل بعقد لقاء موسّع في المكتب للشقيري، مع كوادر الحركة وأبناء الجالية الفلسطينية في الجزائر. استمع الشقيري

---

(36) أحمد أسعد الشقيري (1908–1980): ولد في بلدة تبنين جنوب لبنان. تلقى تعليمه الأساسي في طولكرم وعكا والقدس، ثم انتقل إلى بيروت ليكمل تعليمه الجامعي في الجامعة الأميركية في عام 1926. انضم إلى نادي "العروة الوثقى" أثناء فترة دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت. اعتقلته قوات الاستعمار الفرنسية في بيروت بسبب نشاطه الوطني، وأبعدته إلى خارج لبنان، فعاد إلى مدينة عكا. عمل في صحيفة الزُّمر في مدينة عكا، ثم انتقل إلى القدس ليعمل في صحيفة مرآة الشرق. شارك في تأسيس لجنة قومية في مدينته عكا إبّان إضراب عام 1936، وشغل عضويتها. اعتقلته قوات الاحتلال الإنكليزي في عام 1936، حيث أبعدته إلى قرية سمخ القريبة من بحيرة طبرية. انتقل إلى مدينة واشنطن، وأسس فيها مكتب الإعلام العربي، بناءً على توصية مجلس جامعة الدول العربية في عام 1945. ترأس الوفد السوري لدى الأمم المتحدة بين عامي 1951 و1956، وانتُخب أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية بين عامي 1964 و1967. قدّم استقالته من منصبه وتفرّغ بعدها للكتابة والتأليف.

إلى حديثهم حول الأوضاع، ودور المكتب، وأهداف الحركة. كما قدّم له خليل، باسم حركة فتح، اقتراحًا حول تشكيل المجلس الوطني الفلسطيني الأول.

استطاع مكتب فلسطين أن ينسج علاقات متينة مع قيادة حزب جبهة التحرير الجزائرية وكوادر الحزب، وكانت رؤية خليل أن تكون الجزائر هي القاعدة الصلبة لانطلاقة حركة فتح، وبناء على ذلك، اتصل بوزارة الدفاع، وطلب إليهم توفير معسكر لتدريب الشباب الفلسطيني على السلاح، تحضيرًا لانطلاقة العمل المسلح. كما طلب موافقتهم على قبول عدد من الشباب الخريجين للالتحاق بالكلية العسكرية في شرشال. وبالفعل، قدّمت الجزائر معسكر تدريب في تيبازة، واستقبلت خمسين شابًا فلسطينيًا للدراسة في الكلية العسكرية، كانوا من أبناء التنظيم في قطاع غزة والضفة الغربية ولبنان وسورية والأردن. وكان بينهم زياد الأطرش[37] ومنهل شديد[38] ووديع عبد اللطيف[39] وآخرون، وقد شكّل هؤلاء النواة الأولى لضباط قوات العاصفة بعد تخرجهم، وقد استشهد غالبيتهم لاحقًا.

كما دعتنا الجزائر إلى المشاركة، باسم فلسطين، في معرض الجزائر الدولي الأول الذي أُقيم في مطلع شباط/ فبراير 1965، حيث أعطتنا الحكومة

---

(37) محمود الأطرش (زياد الأطرش) (1940-1999): ولد في قرية طبعون، قضاء حيفا. انضم إلى حركة فتح عام 1964، عن طريق شقيقه أحمد الأطرش، وتلقى تدريبه العسكري في كلية شرشال العسكرية في الجزائر. عُيّن قائدًا للقوة المحمولة في عام 1972، وقائدًا لكتيبة الكرمل في عام 1974. تولى مسؤولية قيادة الميليشيا في لبنان في عام 1976، وأصبح قائدًا للقوات في البقاع في عام 1983. كان عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني، وعضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح، وعضوًا في المجلس الأعلى للأمن القومي الفلسطيني.

(38) منهل توفيق مكاوي شديد (1942-1967): ولد في بلدة علار - قضاء طولكرم، ودرس في مدارسها المرحلة الثانوية. التحق بحركة فتح في عام 1964، وتلقى تدريبًا عسكريا في كلية شرشال العسكرية في الجزائر. توجه، في عام 1966، إلى دمشق وكُلّف بمهمة الإعداد للعمليات العسكرية والتدريب، واستشهد في انفجار لغم أثناء التدريب في معسكر الهامة القريب من دمشق.

(39) وديع عبد اللطيف حسن شديد (منير) (1940-1968): ولد في بلدة علار قضاء طولكرم. عمل في الكويت، ثم انتقل إلى الجزائر حيث عمل مدرسًا هناك. استقال من عمله ليعمل في مكتب فلسطين في الجزائر بتاريخ 2/ 8/ 1965. شارك، بعد تلقيه التدريب، في عمليات عسكرية عدة، كان آخرها معركة العوجا التي استشهد فيها بتاريخ 8/ 2/ 1968.

الجزائرية مساحةً من أرض المعارض لنقيم عليها جناح فلسطين. لم تكن لدينا إمكانيات مادية للتعاقد مع خبراء في تنظيم المعارض وتنفيذ الجناح، فقررنا إنجاز المعرض بأنفسنا، حيث عمل شباب الحركة ليل نهار على التصميم المطلوب وتنفيذه. كما كُلِّف الأخ ممدوح صيدم بالسفر إلى قطاع غزة لإحضار بعض المطرزات والمواد الإعلامية. ولا أزال أذكر حركة الشباب وهم يجمعون الأخشاب من بقايا الأجنحة الأخرى لاستخدامها في بناء المعرض، وفي بناء مجسم كبير لخارطة فلسطين. كان المعرض ناجحًا جدًا، إذ حضر إليه العديد من الزوار، لما يحتويه من صور عن فلسطين، والنكبة، ومطرزات، وكتيبات، وملصقات، وشكَّل فرصة مهمة لتعريف الزوار بمعاناة شعبنا ونكبته، وحقه بالنضال والتحرر.

أصبحت الجزائر، بعد انتصار الثورة وإعلان الاستقلال، مركزًا مهمًا لمختلف حركات التحرر العالمية، من أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، تلك الحركات التي افتتحت مكاتب لها لتحصل على الدعم والتضامن العالميين، وتستفيد من نجاح تجربة الثورة الجزائرية. كان مكتب فلسطين من أكثر المكاتب نشاطًا ونجاحًا في نسج علاقات مع المكاتب الأخرى. وقد ساهم اكتظاظ الجزائر بالمؤتمرات التضامنية المنعقدة فيها مع الشعوب المكافحة ضد الإمبريالية والاستعمار، في توطيد هذه العلاقات وتجذيرها. وكان خليل يشارك بشكل دائم من خلال إلقاء كلمة فلسطين في هذه المؤتمرات التي كانت تُعقد عادة في قاعة بن عكنون، أكبر قاعات الجزائر.

وقد التقينا، أنا وخليل، مع تشي غيفارا (Ernesto "Che" Guevara) (1928–1967)، أثناء انعقاد أحد المؤتمرات، حيث وصلتنا دعوة للمشاركة، وقد اهتم غيفارا كثيرًا بالتفاصيل المهمة التي تحدَّث عنها خليل حول قرب انطلاقة الثورة الفلسطينية والكفاح المسلح، وقال حينها إنه سيكون سعيدًا بانطلاقة هذه الثورة، وتمنى لنا التوفيق.

أمّا المؤتمرات والمهرجانات التي كانت تُعقد خارج العاصمة في المدن الجزائرية الأخرى، فكان خليل يكلِّف أحد الإخوة بحضورها، وإلقاء كلمة

فلسطين، وكنت أشارك في تلك المؤتمرات وألقي كلمة المرأة الفلسطينية للتضامن مع نساء العالم.

كما كنا على اتصال دائم مع مكاتب حركات التحرر، من خلال عقد حوارات ولقاءات ثنائية، لتعريفهم بالقضية الفلسطينية، ومعاناة شعبنا، وبحث أفق التعاون معهم، ثوارًا ضد الاستعمار. كما عقدنا العديد من اتفاقات الدعم والتعاون والمناصرة معهم. وأجرى خليل نقاشات طويلة مع سفارة الاتحاد السوفياتي في الجزائر، ومع السفارة الصينية، وسفارة ألمانيا الديمقراطية، ومع سفارة كوريا الشمالية، وسفارة فيتنام. وقد أسست هذه اللقاءات لعلاقات الثورة المستقبلية مع هذه الدول والحركات.

من أهم العلاقات الثنائية التي أسس لها مكتب فلسطين في الجزائر، العلاقة مع الرفاق في سفارة الصين، إذ كنا نعقد معهم اللقاءات بشكل مستمر، وكان تجاوبهم معنا، ومع أهداف حركتنا، كبيرًا. واستطعنا أن نبني علاقات صداقة ودّية معهم من خلال تبادل الزيارات الاجتماعية، ومشاركتنا الغداء أحيانًا. وقد زار الجزائر مسؤول كبير في القيادة الصينية في عام 1964، التقيناه، ووجّه، بعد عودته، دعوة إلى خليل الوزير وأبو عمار لزيارة الصين، وقد شكّلت هذه الزيارة منعطفًا تاريخيًا في تاريخ القضية الفلسطينية، حيث كانت أول زيارة للفلسطينيين إلى الصين. بعد وصول الدعوة، أرسل خليل إلى أبو عمار يطلعه على الدعوة، ويطلب إليه الحضور إلى الجزائر ليتوجها معًا إلى الصين، ويغادر الوفد إلى هناك.

عند هبوط الطائرة في مطار الصين، استُقبل الوفد الفلسطيني بحفاوة، حيث أُقيم له استقبال جماهيري واسع. وكان برنامج الزيارة حافلًا باللقاءات والندوات. وقد التقى الوفد وزير الخارجية، ولجنة التضامن الآسيوي - الأفريقي التي أقامت لهم مهرجانًا حاشدًا للتضامن مع القضايا العربية، ومع قضية الشعب الفلسطيني العادلة. وألقى كلٌ من خليل وياسر عرفات كلمات لتحية الشعب الصيني وقيادته، وشكرهم على دعم النضال الوطني الفلسطيني. وبعد المهرجان، غادر أبو عمار

إلى الكويت، بينما استكمل خليل الزيارة، وقام شو إن لاي[40]، رئيس الوزراء الصيني حينها، باستقبال خليل الوزير، وأعلن في اجتماعه معه أن جمهورية الصين الشعبية لن تعترف بإسرائيل، لا اليوم ولا غداً ولا بعد مئة عام، إلى أن يحصل الشعب الفلسطيني على حقوقه. وقال شو إن لاي إنه يتمنى أن يعيش ليرى هذه الثورة قد بدأت، لأن فلسطين لها موقع استراتيجي مهم، فلن تكون المهمة سهلة. وتمنى للثورة النجاح، وأكّد أنها ستنجح ما دام هناك إرادة لدى الشعب الفلسطيني.

في 28 أيار/مايو 1964، عُقد المؤتمر الوطني الأول في القدس، وقد حضره أكثر من 433 عضواً من مختلف مناطق تجمعات الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس والشتات. شارك في هذا المؤتمر خليل الوزير ممثلًا عن الجالية الفلسطينية في الجزائر، إضافة إلى سميرة السقا التي كانت من "مجموعة الشعب". لم تكن حركة فتح مشاركة بشكل رسمي في المؤتمر، إلا أنّ العديد من شبابها شاركوا بصفتهم المستقلة، ومنهم: خالد الحسن، وسعيد المسحال، وفاروق قدومي، وكمال عدوان، وغيرهم. لم يشارك ياسر عرفات، لكنه كان موجوداً في القدس على مقربة من مكان انعقاد المؤتمر، وكان على تواصل دائم مع شباب الحركة المشاركين.

نتج عن المؤتمر الوطني الفلسطيني في القدس قرار إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، ممثلة للشعب الفلسطيني، واعترفت جامعة الدول العربية بها، وبدأ الشقيري بالعمل على فتح مكاتب للمنظمة في الدول العربية.

وفي 30 تشرين الأول/أكتوبر 1964، حضر أحمد الشقيري إلى الجزائر في زيارة ثانية، وكان في استقباله خليل الوزير، والإخوة أحمد وافي ومحمد أبو ميزر. وانضم إليهم وفد من الكويت، فيه ياسر عرفات، والدكتور زهير العلمي[41]، وكانوا على موعد مسبق للقائه.

---

(40) شو إن لاي (1898-1976): شغل منصب رئيس وزراء الصين بين عامي 1949 و1976.

(41) زهير يوسف محمد العلمي (1935-): ولد في غزة وأنهى الدراسة الثانوية فيها، ودرس الهندسة =

كان الاجتماع بين وفد الحركة وأحمد الشقيري صاخبًا؛ فقد طرح الوفد أن يقوم الإطار السياسي، المزمع إنشاؤه بعد قرار القمة العربية بتبني نهج الكفاح المسلح لتحرير فلسطين، الأمر الذي عارضه الشقيري. كما أبلغهم عن نيته فتح مكاتب تمثيل لمنظمة التحرير في الدول العربية، ليقوم بتمثيل الشعب الفلسطيني في المحافل الدولية، عندها طالب الوفد أن يظل مكتب فلسطين في الجزائر قائمًا يؤدي بمهماته، دون الحاجة إلى فتح مكتب تمثيل آخر، ووافق الشقيري على ذلك.

يوم وصول الشقيري إلى الجزائر، كنتُ في أواخر أيام حملي بطفلي الثاني. في تلك الليلة، حضر الأخ أحمد وافي وطلب حقيبة لخليل، وفيها ما يلزمه للنوم في فندق الضيافة مع أحمد الشقيري. أعطيته ما طلب، وحاولت أن أخلد إلى النوم، ولكنني لم أستطع، فقد بدأت أشعر بأعراض الولادة، وإذ بخليل يدخل الغرفة قائلًا: "تأخرت بالعودة إليك، ولكن لا أدري، لدي شعور أنك ستضعين مولودك، دفعني للعودة مسرعًا". رغم تأخره، قلت: "الحمد لله أنك وصلت، ويبدو أن المولود يريد أن يرى النور". قال ممازحًا: "تأخر الوقت الآن، أجليها للصباح!". ضحكت وقلت: "لن أستطيع، هيا بنا". وكانت أعراض الولادة قد بدأت تتسارع.

خرجنا إلى الشارع العام مسرعين، ومشينا إلى موقف السيارات، وانتظرنا حتى ركبنا إحدى سيارات الأجرة، أعطاه أبو جهاد العنوان، وسأله إذا كان بعيدًا، فأجاب السائق: "يحتاج إلى ساعة ونصف الساعة!". قلت: "بسرعة أرجوك، أنا في حالة ولادة وأخشى أن يولد الطفل في السيارة!".

أسرع السائق حتى وصل إلى المستشفى في نصف ساعة فقط. كان المصعد معطلًا، وعلينا أن نصعد إلى الطابق الرابع مشيًا على الأقدام، وتقلصات الطلق

= المدنية في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حاليًا)، ثم حصل على درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة تكساس في أوستن بين عامي 1959 و1962. نشط في العمل الطلابي خلال دراسته الجامعية، وشهد مرحلة تأسيس حركة فتح، وكان أحد كوادرها الأوائل. انتخب عضوًا في المجلس الثوري للحركة، وعضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية عام 1970، وترأس مجلس إدارة الصندوق القومي الفلسطيني في العام نفسه، كما ترأس المؤتمر العام الثالث لحركة فتح عام 1971.

أدفعها إلى الداخل في محاولة لتأخير خروج الطفل. وصلت إلى غرفة الولادة وأنا أطلب من الطبيبة أن تسرع، لأن الطفل سيخرج إلى النور، وأنا أصرخ: "أرجوكِ بسرعة".

وبينما كانت الطبيبة ترتدي قفازاتها، إذ بي أضع مولودي دون مساعدة. أسرعت الطبيبة وأمسكته، وتزامنت صرخته الأولى مع صوت المدفعية الجزائرية احتفالًا بذكرى انطلاقة الثورة.

دخل أبو جهاد الغرفة وهنأني بسلامتي وسلامة مولودنا. حمل الطفل بين يديه وقال: "ما رأيك أن نسميه نضال؟". قلت: "نعم، لدينا جهاد وهذا نضال. كدنا أن نضيعه بسبب انشغالنا وعدم الاهتمام بزيارة المستشفى ومعرفة عنوانه، وكاد أن يولد في السيارة". ضحك وقال: "الحمد لله، ربنا سلّم".

جاء أبو عمار في زيارة إلى الجزائر في مهمة مستعجلة لنقاش موعد انطلاقة حركة فتح مع خليل الوزير. وأكدّ خليل، حينها، على ضرورة الإسراع بالانطلاقة، لأن المزيد من التأجيل سيحبط الكوادر التي انضمت إلى صفوف الحركة، وتدربت، وانتظرت فترة طويلة انطلاقة العمل العسكري.

شهدت اللجنة المركزية خلافًا في الرأي حول موعد الانطلاقة بين مجموعتين؛ مجموعة سُميت "بالمجانين"، وترى إعلان الانطلاقة فورًا، والتي تأجّل موعدها أكثر من مرة، على الرغم من شح الموارد المالية والسلاح. وكان يقود هذا الرأي أبو عمار وخليل الوزير. بينما سُمي الفريق الثاني بـ"العقلانيين"، وهم ممن دفعوا باتجاه تأجيل موعد الانطلاقة إلى أن تتوفر الإمكانيات المادية والسلاح، وكان على رأسهم عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان[42].

فور عودة أبو عمّار إلى الكويت، اجتمعت اللجنة المركزية لنقاش الموضوع، وأبلغهم بموقف خليل الوزير الداعم للانطلاقة، ودارت نقاشات معمقة، ولحسم الموضوع، تقرر تكليف كل من سليم الزعنون ومحمد يوسف النجار بزيارة أبناء تنظيم

(42) عبد الله مصطفى الدنان (1931-): أحد المؤسسين الأوائل لحركة فتح، ولد في مدينة صفد عام 1931. وظل عضوًا في اللجنة المركزية للحركة إلى أن قدّم استقالته في عام 1966.

الحركة في الضفة والأردن وقطاع غزة، واستمزاج رأيهم واستعداداتهم للانطلاقة.

وبعد عودة الفريق المكلف من هذه الجولة، اجتمعت اللجنة المركزية مرة أخرى، وأبلغهم سليم الزعنون استعداد الكوادر وجاهزيتهم للانطلاقة وبداية العمل. وصل محمود عباس إلى الاجتماع متأخرًا، بعد بداية التصويت وتعادل الأصوات، فحسم القرار بانضمامه إلى الفريق المؤيد لانطلاقة الرصاصة الأولى وبدء الكفاح المسلح.

وقد اتُّخذ القرار بإعلان الانطلاقة تحت اسم "القيادة العامة لقوات العاصفة"، وذلك لحماية حركة فتح من أي تأثيرات سلبية عليها في حال فشل الانطلاقة.

أحرجت حركة فتح الأخ أحمد الشقيري، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، والذي كلّفه مؤتمر القمة العربي بتشكيل الإطار السياسي للشعب الفلسطيني، وفشلت جهود قيادة فتح في تغيير المنهج الذي رسمته الدول العربية لها، ودفعها لتبني خط الكفاح المسلح. وقد ارتكب الشقيري خطأه الأول عندما أصدر بيانه الشهير، يتهم فيه حركة فتح بجر الدول العربية وتوريطها في حرب مع إسرائيل. وضمن سياسته المتصادمة أحيانًا مع حركة فتح، ومهادنته أحيانًا أخرى، حاول إبعاد كل من له علاقة بالحركة عن مواقع العمل في مكاتب المنظمة، وتراجع عن وعده أن يبقى مكتب فلسطين في الجزائر كما هو، حيث عيّن الدكتور رفعت عودة[43] مديرًا لمكتب المنظمة في الجزائر، بعدما كان خليل الوزير مديرًا لمكتب فلسطين منذ عام 1963.

أدى وصول المدير الجديد المكتب إلى إحراج الحكومة الجزائرية التي لم تفهم ضرورة تغيير مدير المكتب، أو وجود مكتبين لفلسطين، إلا أنّ خليل، وحرصًا على وحدة العمل الفلسطيني وظهوره بمظهر إيجابي أمام الثوار الجزائريين، استقبل الدكتور رفعت عودة، وسلّمه مفاتيح المكتب، وقدّمه للمسؤولين الجزائريين.

---

(43) رفعت محمود عودة (1911-1988): ولد في قرية بديا. درس الطب في المعهد الطبي في دمشق، ثم أكمل دراسته في إيطاليا وتخرج في عام 1939. اتُّهم بالمشاركة في محاولة انقلاب في الأردن عام 1959، فحُكم بالإعدام، ولكن خُفف الحكم وبقي في السجن حتى عام 1964. عُيّن مديرًا لمكتب منظمة التحرير في الجزائر، وما لبث أن استقال في آب/ أغسطس 1964 ليستقر في بغداد. عاد إلى عمّان عام 1969، وأصبح عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني والمجلس المركزي حتى وفاته.

عند وصول الدكتور عودة إلى الجزائر، تبرع بعض الشباب بطلاء المكتب. أما نحن، فبدأنا نبحث عن مسكن للانتقال، وواجهتنا صعوبة في إيجاد مسكن غير مفروش، فأقمنا فترة وجيزة في منزل الأخ أحمد وافي، إلى أن استأجرنا غرفة نوم واحدة في منزل سيدة كبيرة بالسن. سمحت لنا السيدة باستخدام الغرفة والمطبخ والحمام فقط دون باقي غرف البيت الكبير، ولكن بعد فترة من وجودنا في البيت، أصبحت السيدة تعاملنا وكأننا من أفراد عائلتها، فقد أحبّتنا، وتعلّقت بالأطفال وعاملتهم كأنها جدتهم.

لم تطل الإقامة عندها أكثر من شهرين، حيث وصلنا البلاغ الأول لانطلاقة حركة فتح في الأول من كانون الثاني/ يناير 1965، الأمر الذي دفعنا إلى مغادرة الجزائر، والعودة سريعًا إلى لبنان.

الفصل الثالث

الهروب إلى دمشق

من الجزائر إلى بيروت

في 21 آذار/ مارس 1965، غادرنا الجزائر متجهين إلى العاصمة اللبنانية بيروت، لنواصل رحلة الكفاح والثورة، وكان قرارنا بالانتقال إلى بيروت لنكون أقرب إلى قواعدنا، وإلى مركز الحدث، والفعل الثوري.

وصلنا إلى بيروت، وكان في استقبالنا الأخوان توفيق حوري وهاني فاخوري. دخلنا هذه المرة إلى الأراضي اللبنانية بلا عراقيل، كوننا كنا نحمل جوازات سفر جزائرية، وبأسماء مستعارة.

أمضينا ليلتنا في فندق بلازا، وفي اليوم التالي، بدأنا البحث عن شقة مفروشة للإقامة فيها؛ فوجدنا شقة صغيرة في بناية الجلاد الواقعة في نهاية شارع الحمراء المتصل بشارع السادات، وكانت بسيطة في الطابق الثالث، وهي عبارة عن غرفة نوم وغرفة صالون، وكان فرشها متواضعًا.

أمضى أبو جهاد معي، ومع الأولاد جهاد ونضال، ليلة واحدة، قبل أن يغادرنا إلى الكويت للاجتماع مع اللجنة المركزية. في صباح اليوم التالي، قبل سفره، وبينما كان يحلق ذقنه في الحمّام، وأنا أقف بجانبه كعادتي، قال لي بلهجة جادة: "انتبهي، وأغلقي نافذة الحمام المطلة على المنور قبل النوم، حتى لا يدخل عليكم منها لصوص!". ضحكت مستنكرة وقلت: "هل هذا معقول؟ في بيروت، هذا البلد الحضاري الجميل يوجد لصوص؟". قال: "انتبهي، لقد حذرتك!". قلت له مبتسمة: "سافر مطمئنًا، مع سلامة الله".

مرّت ليلتان، وكان كل شيء على ما يرام، وفي الليلة الثالثة، وبينما كان الأطفال نيامًا، كنت أجلس وحدي أشاهد التلفاز، وإذا بي أسمع حركة مفتاح

يدور في باب الشقة! أسرعتُ نحو الباب لأسأل من هناك، وقد انتابني الشك فورًا؛ أبو جهاد لم يأخذ مفتاح الشقة معه، فقد تسلّمنا نسخة واحدة فقط! وأخذت أسأل من في الباب، وإذا بصوت مخمور يجيب بابتذال: "افتحي الباب يا حبيبتي، افتحي يا روحي". واستمر ينادي بكلمات الغزل، فأحكمت إغلاق الباب من الداخل، ووضعت المفتاح في ثقب الباب، وأدرته بالعرض، إذ تذكرت نصيحة إحدى الصديقات، أن وضع المفتاح بشكل عرضي يمنع فتحه من الخارج، وحاولت الاتصال بمسؤول البناية، ولكن الهاتف كان يُغلق بعد التاسعة مساءً.

أخذت أضرب الباب بقوتي كلها من الداخل، لعل أحد الجيران يسمع الطرق فيأتي لنجدتي! انتابني الفزع، بينما صوت المفتاح من الخارج لا يزال يتحرك، وبينما استمرت الكلمات المعسولة وأنا في داخل البيت لا أعرف ماذا أفعل. تعبت يداي من الطرق ولا أحد يسمعني، كنت أتنقل بين مدخل البيت والبلكونة التي تطل على الشارع العام، أرى رجل الشرطة في الأسفل، والمارة، وأفكّر في الصراخ لأتذكر أنني وحدي وزوجي مسافر، فأتخيّل أنني قد أتعرض للأسئلة، ووضعنا الحرج قد يؤدي إلى الشك بنا، وتعطيل مهمتنا في بيروت، فأتراجع وأعود إلى المَدخل لأقف بجانب الباب من داخل المنزل، وأسمع محاولات فتح الباب لا تزال مستمرة.

دفعني الخوف للركض إلى المطبخ، وإحضار سكينة كبيرة وزجاجة ماء لأكسرها على رأسه، إذا دعت الحاجة واستطاع الدخول. كما أحضرت كرسيًا وجلست قرب الباب، متأهبة للدفاع عن نفسي بهذا السلاح المنزلي.

في إحدى اللحظات، لم أعد أسمع صوت المفتاح يتحرك من الخارج، وساد الصمت، لا أدري كيف قفزت إلى ذهني كلمات أبو جهاد عن ضرورة إغلاق شباك الحمام، فاندفعت باتجاه الحمام مسرعة، كان الشباك مرتفعًا، أعلى من متناول يدي، فصعدت على كرسي لأغلقه، وإذا بي أصاب بالذهول؛ رأيت الرجل يحاول القفز من الشباك المجاور إلى بيتنا، استجمعت قواي وصرخت في وجهه وأنا أشهر سلاحي، السكين الكبيرة التي بيدي: "سأقتلك إذا حاولت التقدم!". وأغلقت الشبّاك، وأغلقت باب الحمام، ونقلت الكرسي لأجلس بقية الليل قرب

باب الحمام حتى السابعة صباحًا. عندما عاد الهاتف إلى العمل، استنجدت بالأخ الدكتور زهير العلمي الذي جاء مسرعًا، وقدم شكوى لمدير البناية. وعندما جاؤوا لمعاينة الشقة، تبيّن أن الساكن في الشقة المجاورة كانت تربطه علاقة عاطفية مع ساكنة شقتنا السابقة، وأن الحادث وقع بالخطأ، وجاء الرجل ليعتذر. أما أنا، فقررت عدم البقاء في هذه الشقة أبدًا، وانتقلت فورًا إلى شقة أخرى.

مرت الأيام في بيروت، وأبو جهاد يتنقل بين دمشق وبيروت. لم أتمكن من مرافقته إلى دمشق لأنني كنت مكلّفة بمتابعة الاتصال مع مجموعاتنا المسلحة والعاملة في أرضنا المحتلة، وكوادرنا التنظيمية في لبنان. كنا نعمل بمنتهى السرية والحذر. يأتي أبو جهاد من دمشق أحيانًا، والأخ أبو عمار أحيانًا أخرى. يصل معهم تقرير العمليات العسكرية، فأطبع البيانات العسكرية على ورق الحرير، وأسحبه على ماكينة "الاستنسل"، ثم أقوم بطيها ووضعها في مغلفات، وأكتب العناوين، وأضع الطوابع عليها، وحينما ننتهي، نخرج لتوزيعها على صناديق البريد. وكانت الأسماء والعناوين تتضمن جميع الصحف ورؤساء تحريرها، وجميع الوزارات في لبنان، وقيادات الأحزاب والمؤسسات، والعديد من الشخصيات العربية.

كنا دائمًا ثلاثة: أبو عمار وأبو جهاد وأنا، وفي إحدى الليالي، بينما خرجنا ثلاثتنا لتوزيع البلاغات في صناديق البريد في سيارة "الفولكس فاجن" الصغيرة التي كان يقودها الأخ أبو عمار، والتي حصلت عليها الحركة بتبرع من غالب الوزير في قطر. وصلنا إلى ساحة البرج، فنزلت قرب صندوق البريد، وكانت الساعة حوالى الثانية عشرة ليلًا، وإذا بشرطي لبناني يقف بقربنا يسألنا ماذا نفعل.

كانت مجموعة البلاغات في مغلفاتها جاهزة لوضعها في صندوق البريد، كنت أحملها بيدي، فقام الأخ أبو عمار بتناول المغلفات وأسقطها مباشرة في الصندوق، قائلًا للشرطي: "هذا أخي، وهذه خطيبته، ونحن نوزع دعوات زفافهما، سوف نحتفل بهما في الأسبوع القادم، نرجو أن تقبل دعوتنا، ستكون الحفلة في فندق عاليه بالجبل، أرجو أن تشرفنا بحضورك". ابتسم الشرطي، وبارك لنا وغادر. عدنا مسرعين إلى السيارة، لم أتمالك نفسي، فانفجرت ضاحكةً وأنا أتخيل منظر الشرطي اللبناني إذا لبّى دعوتنا ولم يجد العرس.

بدأ بيتنا في بيروت يأخذ وضعه مركزًا للاتصال بجميع الإخوة من أبناء فتح في لبنان والخارج. وكانت مسؤوليات وأعباء العمل تزداد بغياب أبو جهاد عند ذهابه في مهمات تنظيمية إلى دمشق، وأحيانًا للمشاركة في اجتماعات اللجنة المركزية، وإلى المغرب العربي، أو بعض الدول الأوروبية. وقد لفت غيابه المتواصل عن المنزل، وتردد العديد من الإخوة لتلقي التعليمات، أنظار إدارة البناية.

أصبح متعارفًا أن الأخ أبو عمار هو خالي، والأخ أبو يوسف النجار هو عمي، والأخ زكريا عبد الرحيم[1] أخي، والأخ أحمد الأطرش ابن خالتي، حتى انتحل أغلب الإخوة صفات أقاربي وأهلي، ولقد كانوا جميعهم فعلًا إخوتي وأهلي.

وصل الأخ أبو عمار، في أحد الأيام، من دمشق، وعد لقائه مع خليل والدكتور زهير العلمي، طلب مني مرافقتهم لزيارة أحد الإخوان. دخلنا إلى المنزل لنتعرف إلى صاحبه، وهو الأخ خالد اليشرطي[2]، وزوجته ندى. كان خالد فلسطيني الأصل من مدينة عكا، وكان مهندسًا مدنيًا ورجل أعمال، كما كان عضوًا في القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وكان، حينها، من أصغر السياسيين الذين تبوؤا هذا المنصب.

تعرفت إلى زوجته ندى، وقد جمعتني بها، في ما بعد، علاقة صداقة حميمة.

---

(1) زكريا عبد الرحيم (أبو يحيى): انضم إلى حركة فتح عام 1963، وعمل في جهاز الرصد المركزي. أصبح عضوًا في المجلس الثوري، وعضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني. وفي عام 1975، ساهم في تأسيس مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في قبرص. عمل سفيرًا في الصين بين عامي 2002 و2005.

(2) خالد محمد الهادي اليشرطي (1935–1970): ولد في مدينة عكا، وتلقى تعليمه الأساسي فيها، ثم انتقل إلى بيروت عقب النكبة في عام 1948 ليتابع تعليمه الثانوي والجامعي هناك. انتسب إلى حزب البعث العربي الاشتراكي في مطلع خمسينيات القرن الماضي. انتُخب عضوًا في القيادة القطرية لحزب البعث العربية الاشتراكي في لبنان، ثم عضوًا في القيادة القومية لحزب البعث في عام 1957. ترك حزب البعث في عام 1965، والتحق بصفوف حركة فتح في العام نفسه. أصبح عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني الرابع الذي عُقد في القاهرة في عام 1968، وانتُخب عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في المجلس الوطني الخامس في عام 1969، ورئيسًا لمجلس إدارة الصندوق القومي الفلسطيني. شغل عضوية الوفد الفلسطيني الذي وقّع على اتفاق القاهرة، بين الفصائل الفلسطينية والسلطات اللبنانية، لتنظيم الوجود الفلسطيني المسلّح على الأراضي اللبنانية، في عام 1969، في مدينة القاهرة. توفي في بيروت ودُفن فيها.

انضم خالد اليشرطي إلى حركة فتح بعد الانطلاقة المسلحة في عام 1965، بعد أن جمّد عضويته في الحزب.

وفي أحد الأيام، كنت أنتظر وصول الأخ أحمد الأطرش، حيث كانت لدي تعليمات مهمة لمجموعته، ولديّ أمانة يجب أن أسلمها له. جلست أنتظر رنين الهاتف، انتابني القلق وأنا حبيسة المنزل ثلاثة أيام من الانتظار. ما بال الأخ أحمد قد تأخر عن موعده! وأخيرًا، جاءني صوته يقول: "يا أختي، لا أستطيع الحضور لأنني لا أعرف العنوان، أرجو أن أراكِ في ساحة البرج لنشرب معًا فنجان قهوة في محل الحلاب، في باب إدريس". قلت: "لا مانع، وسوف أحضر لك معي الهدية التي أرسلتها الوالدة". واتفقنا على الموعد. بالطبع، كان يعرف عنوان البيت، لكنه تصرف هكذا حتى لا تكشف المخابرات اللبنانية أمرنا.

خرجت من البيت أحمل الصغير نضال على يد، وأمسك بيد جهاد بالأخرى، وأحمل تلك الحقيبة التي كنت أتحسس ما بداخلها برفق، كم سيفرح الإخوة بهذه الهدية. تذكرت ما حدث قبل شهر عندما التقى أبو عمار وأبو جهاد بإحدى المجموعات الفدائية لاستلام السلاح، قبل التوجه لتنفيذ مهمتهم. وكان سلاح أحدهم رشاشًا قديمًا، والثاني قنبلة يدوية، والثالث حمل مسدسًا، أما العبوة، فقد كانت مجهّزة محليًا، وقد وضع بداخلها كمية كبيرة من المسامير المعكوفة. سمعت قائد الدورية يقول: "ما هذا يا أخ أبو جهاد؟ بمثل هذا السلاح سنحرر فلسطين ونهزم إسرائيل؟". أجابه أبو جهاد والابتسامة لم تفارق شفتيه: "نعم يا أخ، هذا السلاح البسيط هو الذي سيأتينا بالسلاح الحقيقي، والمد الشعبي الحقيقي. المهم أننا أطلقنا رصاصتنا الأولى، والمهم أن نستمر وسنحصل على السلاح الكثير إن شاء الله".

كنت أتخيل فرحة أحمد ومجموعته بهذه الهدية، كمية "الجنجلايت"، وهو نوع من المتفجرات ذات القوالب اللّيّنة، برتقالية اللون. رأيته أول مرة عندما فتح أبو جهاد الحقيبة، وأخذ يقسّم ما فيها إلى عدة مجموعات. كنت أعدّ الطعام في المطبخ عندما سمعت صوته يناديني، فأسرعت إليه، واعتقدت من بعيد أنه أحضر لنا قمر الدين من دمشق. عندما اقتربت، استمعت إلى ملاحظاته قائلًا:

"هذان القسمان سوف أتصرف بهما اليوم، أما القسم الثالث، فهو لمجموعة الأخ أحمد الأطرش، ومعه هذه الكمية من الأسلحة، ستبقى هنا حتى يتصل بك هو". وسافر أبو جهاد مرة أخرى، وبقيت في البيت أيامًا أنتظر اتصال الأخ أحمد، وكنت أحرص على عدم مغادرة البيت خوفًا من أن يتصل أثناء غيابي عن المنزل.

حملت الحقيبة والأطفال، وسرت مسافة حتى صادفتني أول سيارة أجرة، فركبت فيها. وصلت المكان المتفق عليه في باب إدريس، محلات الحلاب، دخلت المحل؛ الطاولات والكراسي تملأ المكان، و"الفترينات" الزجاجية في الداخل مملوءة بصحون المغلي والمهلبية، وأنواع مختلفة من الحلويات والمشروبات. اخترت طاولة بعيدة عن الناس، وجاء النادل ليسألني ماذا أريد أن أشرب أو آكل، فطلبت فنجانًا من القهوة لي، وطبقين من المهلبية للأولاد. كنت أُطعم الصغار وعيناي مثبتة على مدخل المحل، إلى أن رأيته يدخل ملتفتًا يمينًا ويسارًا، تبحث عيناه في كل مكان، وهو يحمل معه مجموعة من الصحف والمجلات. وعندما رآني، ابتسم، وأقبل على الأولاد يعانقهم.

جلس معنا إلى الطاولة، وطلب فنجانًا من القهوة، وتحدثنا عن العمل والمهمة، وعن جاهزية المجموعة للتحرك إلى الأرض المحتلة. هممنا بالخروج من المحل، فحمل الصغير نضال على يده اليمنى، وفي يده اليسرى حمل الحقيبة الصغيرة، وقال: "إنها ثقيلة! كيف تمكنت من حملها؟"، وضحك مازحًا: "والله قبضاية!"، باللهجة اللبنانية.

خرجنا من المحل لنركب سيارة أجرة، متوجهين إلى شارع الحمراء، وقبل أن نصل إلى الشارع المطلوب، نزلت من السيارة وأخذت الأولاد. بقيت الحقيبة معه، واستمر هو متجهًا إلى موقف سيارات صيدا. وقفت أنظر إلى السيارة وهي تبتعد، وجهاد يسألني عن عمو أحمد أين يذهب، وفي أعماقي كنت أبتهل إلى الله أن يصل بالسلامة.

كان الأخ أبو عمار يصل إلى بيروت دائمًا بشكل مفاجئ، يحمل معه البلاغ العسكري، وآخر تطورات العمليات الفدائية ضد قوات الاحتلال، فأجلس أمام الآلة الطابعة لأطبع البيان من جديد، وكان الأخ أبو عمار يتابع المهمات التي كلّف

الإخوة بها، وبلتقيهم في بيتنا، ويناقش معهم المهمات الجديدة، ويعود ثانية إلى دمشق لمتابعة عمله هناك، إذ كانت دمشق قاعدة الارتكاز الأولى، وسورية كانت الدولة الوحيدة التي سمحت لنا بحرية الحركة والإقامة في حينها.

وقد وقع أول خلاف بين فتح والاستخبارات العسكرية السورية عندما وُجهت لأبو عمار تهمة نسف خط نفط التابلاين الذي يصل خزانات أرامكو في السعودية بخزانات الزهراني في جنوب لبنان، إذ استُدعي وخضع للتحقيق، وصدر بحقه قرار إبعاد عن الأراضي السورية، ولكن نتيجة لبعض التدخلات، أُلغي القرار، وعاد أبو عمار لممارسة عمله كالسابق من الأراضي السورية، وقد كان هذا أول موقف استفزازي تقوم به أجهزة الأمن السورية ضد حركة فتح.

عاد أبو جهاد من رحلة عمل في أوروبا وطرابلس وتونس والمغرب والجزائر، واستمرت حياتنا كما هي؛ يذهب إلى دمشق ليتابع العمليات العسكرية، ويعود إلى بيروت ليقضي معنا يومين، يتابع خلالهما لقاءاته مع الشباب، والقادمين من الخارج، ومسؤولي المجموعات، ويزور رؤساء تحرير صحف **النهار والحياة والمحرر**، ويُعِد مقالات سياسية يحاول نشرها ولا يجد تجاوبًا، وقد دفعه هذا الأمر إلى اتخاذ قرار في قيادة قوات العاصفة أن يصدر نشرة تحت اسم **العاصفة**، وهكذا بدأ يعدّها ويصدرها.

المشاركة في المؤتمر الأول للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية

في 13 تموز/ يوليو 1965، جاء الدكتور زهير العلمي إلى البيت يحمل إليّ دعوة للمشاركة في المؤتمر الأول للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية[3]. وكانت الدعوة قد وصلته من مكتب منظمة التحرير الفلسطينية، كان المؤتمر سيُعقد في

(3) الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية: أُسس عام 1965، وعُرّف بإنه تنظيم شعبي ديمقراطي يمثل المرأة الفلسطينية في جميع أماكن وجودها، وقاعدة من قواعد منظمة التحرير الفلسطينية. عُقد المؤتمر التأسيسي الأول له في القدس في الفترة ما بين 15 و20/ 7/ 1965، تحت شعار: "نحو توحيد جهود الهيئات النسائية الفلسطينية من أجل تحرير الوطن المغتصب". تشكلت اللجنة التحضيرية من: زليخة الشهابي، وسميرة أبو غزالة، وسعاد الكيلاني، وفايزة عبد المجيد، وسلمى الخضراء الجيوسي، ووديعة خرطبيل، ورشيدة المصري، والحاجة عندليب العمد.

مدينة القدس بعد يومين، بتاريخ 15 تموز/ يوليو، فطلب مني أن أذهب لمقابلة الأخت وديعة خرطبيل [4] لأنضم إلى وفد المرأة الفلسطينية المشارك في المؤتمر من لبنان، حيث التقيتها أول مرة، ورحّبت بي ترحيبًا حارًا.

كان الأخ الدكتور زهير العلمي قد حدّثها عن فتح، وعن دوري في الحركة، وفوجئت عندما وقع نظرها عليّ وأنا مع الدكتور زهير، وقالت: "لقد حدّثني الدكتور عنك وعن نضالك، ولقد كنت أعتقد أنك أكبر سنًا، وأنا سعيدة بمعرفتك". وفي ذلك اللقاء قمت بتعبئة طلب انتساب إلى الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، ودفعت الرسوم، وأبلغتني موافقتها على انضمامي إلى الوفد بعد أن أوصى بي الأستاذ أحمد الشقيري، وأبلغتني أن سفرنا سيكون في اليوم التالي. بدأت أفكر وأنا في طريق العودة إلى البيت، ماذا أفعل بالأولاد؟ من سيقوم برعايتهم أثناء غيابي، وهذه المرة الأولى التي سأتركهم بها؟ ناقشت الأمر مع أبو جهاد، فقال: "اتصلي بزوجة عمك في صيدا، واطلبي منها أن ترعى الأولاد أثناء غيابك، أنا لديّ مهمات، وسوف أغادر غدًا أيضًا إلى أوروبا".

اتصلت بزوجة عمي، وطلبت منها الاعتناء بالأولاد مدة أسبوع، ولكنها اعتذرت لأن ظروفها لا تسمح. كان أبو جهاد يستمع، قال لي: "تعالي نخرج من البيت لنتمشى ونفكر في الأمر ونحن في الطريق، لعلنا نصل إلى حل". طلبت منه أن يؤجل سفره أسبوعًا، ويبقى مع الأولاد، ولكنه اعتذر وقال: "أنا لا أستطيع ذلك لأني مرتبط بموعد مسبق مع المحامي الفرنسي جاك فيرجس

---

(4) وديعة قدورة خرطبيل (1915-2007): ولدت في بيروت. التحقت بكلية بيروت للبنات، حيث درست السنتين التحضيريتين للطب، ثم انقطعت عن الدراسة. انخرطت في العمل النسائي الفلسطيني، فدُعيت إلى تولي رئاسة "جمعية السيدات الخيرية الاجتماعية" في مدينة طولكرم. كانت الجمعية تسهم في إيصال الأدوية والأطعمة والألبسة إلى مجاهدي ثورة 1936-1939، وتساعد عائلات الشهداء وترعى أبناءهم. أسست في بيروت، عام 1952، "الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني"، وهو أول تنظيم نسائي عام للمرأة الفلسطينية في الشتات، وترأست هيئته الإدارية. وفي أواخر عام 1955، انبثقت من هذا الاتحاد مؤسسة "مبرة إسعاد الطفولة" في بلدة سوق الغرب في لبنان. وبعد عدوان إسرائيل في حزيران/ يونيو 1967، غدا اسمها "بيت إسعاد الطفولة"، وصارت تُعنى بتربية أبناء وبنات شهداء منظمة التحرير الفلسطينية وتعليمهم، إلى أن دُمر مقرها خلال العدوان الإسرائيلي على لبنان في صيف عام 1982.

(Jacques Verges) الذي دافع عن المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد[5]، وقد اتفقنا معه أن يتولى الدفاع عن الأسير الأول محمود بكر حجازي[6]. ومن أجل الأسير محمود لا أستطيع تأجيل الموعد".

خرجنا من المنزل، وسرنا في شارع الحمراء، وأمسك جهاد بيد والده، وكنت أنا أدفع نضال بالعربة. خَيَّمَ علينا الصمت، وكنا نسير بلا هدف، ثم غيّرنا اتجاه سيرنا لنعود إلى طريق كركاس باتجاه الرَوْشة. وفجأة، صرخ أبو جهاد فرحًا: "وجدت الحل!". قلت بلهفة: "كيف؟". قال: "انظري باتجاه هذا السهم!". وأشار إلى الحائط إلى علامة ترشد لحضانة الأطفال، مشينا باتجاه السهم لنجد أنه يشير إلى مدخل بناء كبير في الروشة، وأن الحضانة في الطابق الثالث. صعدنا، وهناك استقبلتنا مديرة الحضانة. سألنا عن طبيعة الحضانة، وكانت الإجابة أن هذه الحضانة ترعى الأطفال أثناء غياب الوالدين بسبب انشغالهما أو سفرهما، وأنها تستقبل الأطفال ساعات، أو أيامًا، أو أسابيع، أو أشهرًا، حسب ظروف الأهل. سألنا عن شروط قبول الأطفال، فأجابت المديرة أنه يجب تحديد المدة الزمنية لسفر الوالدين، ودفع الرسوم مقدمًا، إضافة إلى ضرورة وجود كفيل أثناء سفر الوالدين. كما يجب توفير الملابس، والغيارات، والحليب للطفل الرضيع. وكانت الشروط مناسبة لظرفنا ووجدنا فيها الحل.

حددنا موعد إدخال الأولاد، جهاد عمره نحو ثلاثة أعوام، ونضال عمره خمسة أشهر. وفي اليوم التالي، وصل الدكتور زهير العلمي إلى البيت صباحًا، واصطحبنا الأولاد إلى دار الحضانة، ووقّع ورقة، ودوّن فيها اسمه وعنوانه

(5) جميلة بوحيرد (1935-): مناضلة جزائرية، ولدت في حي القصبة في العاصمة الجزائرية. انضمت، في عام 1954، إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وشاركت في تنفيذ عمليات عسكرية في مرحلة مبكرة من عمرها. اعتُقلت في عام 1957 وتعرضت للتعذيب الشديد، وحُكم عليها بالإعدام، إلا أنه، بعد حملات إنسانية واسعة، خُفف الحكم إلى مدى الحياة، وأُطلق سراحها بعد تحرير الجزائر.

(6) محمود بكر حجازي (1936-2021): ولد في القدس ونشأ فيها. اعتُقل بعدما نفّذ ورفاقه عملية فدائية بالقرب من بلدة بيت جبرين المحتلة، وذلك في 1965/1/17، وجُرح قبل اعتقاله، وأصدر الاحتلال بحقّه حُكمًا بالإعدام. وفي عام 1971، أُفرج عنه في أول عملية تبادل للأسرى جرت بين الاحتلال وحركة فتح. ويُعتبر حجازي أول أسير فلسطيني ينتمي إلى حركة فتح.

وعمله ورقم الهاتف، كونه سيكفل الأطفال أثناء غيابنا. سلّمنا الأولاد للحضانة، وتوجهت وأبو جهاد إلى المطار لأنضم إلى الوفد. وكنت قد أعددت حقيبتي التي اكتظّت بالمطبوعات والنشرات والبلاغات، وكانت كلها ضمن قائمة الممنوعات في الأردن، كما حملت تعليمات الاتصال بالإخوة محمد غنيم، وحمد العايدي، وصلاح خلف، وبدوي جنيدي.

توجهت وأبو جهاد إلى المطار، وكان كل منا سيغادر إلى وجهة مختلفة في اليوم نفسه. وفي المطار، سأل الضابط عن الأطفال، كونهم مسجلين في جواز سفري، ومن سيرعاهم خلال سفري، فأجاب أبو جهاد أنه والدهم، وسيبقى معهم حتى أعود، إلا أنه غادر إلى باريس بعد ساعات.

وفي قاعة المغادرين، التقيت بالسيدة وديعة خرطبيل، وأعضاء وفد المرأة الفلسطينية في لبنان إلى المؤتمر، وكان عددنا خمسة عشر، أذكر من بينهن سميرة عزام، ورقية حوري وصبا الفاهوم. وصلنا مطار قلنديا، واستقبلتنا مجموعة من الأخوات المشرفات على تنظيم المؤتمر. نزلنا في فندق الإمبسادور، وحضرنا المؤتمر، وقد كنت من أصغر العضوات سنًّا. شكّل المؤتمر فرصة مهمة للتعرف إلى مجموعة من الأخوات الفلسطينيات من الضفة وقطاع غزة والشتات، ومن بين الحضور كانت الأخت نبيلة النمر (أم اللطف)[7]، وعصام عبد الهادي[8]،

---

(7) نبيلة راشد صدقي النمر (أم اللطف): درست في جامعة القاهرة في أوائل ستينيات القرن العشرين، وانتسبت إلى حركة فتح أثناء دراستها الجامعية. انتقلت إلى الكويت للتدريس. شاركت في تأسيس رابطة المرأة الفلسطينية، إلى جانب سلمى الخضرا الجيوسي وسميرة أبو غزالة وغادة القدومي وسلوى الخطيب. عملت في صحيفة الاتحاد النسائي في دمشق بعد حرب عام 1967. انتُخبت عضوًا في اللجنة التنفيذية لاتحاد المرأة الفلسطينية، عملت في دائرة الشؤون العربية في مقر جامعة الدول العربية حتى عام 1979. انتُخبت عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح في المؤتمر الخامس للحركة عام 1988، وفي الفترة نفسها عُيّنت نائبًا للأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية لشؤون فلسطين، وكانت أول امرأة تشارك في مؤتمر القمة العربية في بغداد، كما ساهمت في تشكيل المجلس العربي للطفولة والتنمية عام 1989. عُيّنت عام 2011 عضوًا في المجلس الاستشاري لحركة فتح.

(8) عصام عبد الهادي (1929–2013): ولدت في مدينة نابلس. انتُخبت أمينة سر لجمعية الاتحاد النسائي العربي في نابلس بين عامي 1949 و1969، واختيرت عضوًا في المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس في أواخر أيار/ مايو 1964، وشاركت في تأسيس الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في المؤتمر =

كما التقيت الوفد القادم من قطاع غزة، وكان من بينهن عدد من معلماتي، ومديرة مدرستي السيدة يسرى البربري. لم أكن قد التقيت بهن منذ مغادرتي قطاع غزة، ففرحت بلقائهن، وكن سعيدات وفخورات بلقاء إحدى تلميذاتهن في المؤتمر.

شكّل هذا المؤتمر محطة مهمة في نضال المرأة الفلسطينية، كونه أول مؤتمر نسوي يُعقد بعد نكبة عام 1948؛ فبعد تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، أصبح الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية أحد أهم قواعد منظمة التحرير النضالية، يلتزم بميثاقها وأهدافها، وصدر عن هذا المؤتمر بيان يتضمن قضايا عدة، وعلى رأسها المطالبة بالإفراج عن الأسير محمود بكر حجازي.

كنت أحضر جلسات المؤتمر وأعود لأتصل مع الحضانة في بيروت للاطمئنان على الأولاد، وبعد انتهاء أعمال المؤتمر، بدأت الاتصالات مع كوادر الحركة، وخاصة مع الأخ محمد غنيم، حيث سلّمته الرسائل والمطبوعات التي كنت أحملها، مثل أعداد مجلة فلسطيننا.

كان الأخ محمد غنيم يقلني بسيارته لمقابلة الإخوة الذين كنت أحمل إليهم الرسائل، فزرنا الأخ صلاح خلف، والأخ عوني بطاش[9] في رام الله، والأخ حمد العايدي في أريحا، والأخ بدوي جنيدي في الخليل، والأخ رمضان البنا في القدس. كنا نجتمع، ويضعونني في صورة تطورات الأوضاع التنظيمية لديهم، ويحمّلوني رسائل واستفسارات إلى القيادة. وبعد انقضاء الأسبوع الحافل بالقدس، عدت إلى بيروت، توجّهت من المطار مباشرة إلى دار الحضانة لأعانق أولادي وأصطحبهم إلى البيت. كم كانت فرحتي كبيرة

=الذي عُقد في القدس في تموز/يوليو 1965، وانتُخبت رئيسة له، ثم انتُخبت عضوًا في المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام 1974، فكانت أول امرأة فلسطينية تحتل هذا الموقع الذي شغلته مدة أربع أعوام. انتُخبت عام 1981 رئيسة الاتحاد النسائي العربي، وانتُخبت في العام نفسه نائبًا لرئيسة الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي، وظلّت في هذا الموقع حتى عام 1992.

(9) عوني محمد حامد بطاش (1937-2020): ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت بين عامي 1978 و1990، وفي هذه الفترة تعرض لمحاولة اغتيال، في عام 1980. عاد إلى أرض الوطن مع قيام السلطة الوطنية، وتولى منصب المدير العام للشؤون العربية في وزارة التخطيط والتعاون الدولي في عام 1995، وفي عام 1997 أصبح سفيرًا لفلسطين لدى سلطنة عُمان حتى عام 2005.

أنهم بخير وبصحة جيدة، إذ كنتُ أشعر بالقلق الشديد أثناء غيابي عنهم. عدتُ إلى مواصلة العمل، وعاد خليل بعد أيام من فرنسا، متنقلًا بين بيروت ودمشق والخارج.

أبو عمار والهروب من بيروت

في صباح يوم 2 أيلول/ سبتمبر 1965، وبينما كان خليل في مهمة إلى المغرب العربي، فوجئت بحضور أبو عمار إلى منزلنا في ساعة مبكرة من الصباح. كان التوتر والقلق باديان على وجهه، قال لي: "يا أختي، يجب أن تغادري معي بيروت أنتِ والأولاد فورًا. أحضري حقيبة صغيرة، وضعي بعض الملابس للأولاد". توجه مسرعًا، وبدأ وضع بعض الملابس في الحقيبة، بينما وقفت حائرة وصامتة دون فهم ما يجري.

غادرنا المنزل بسرعة، وركبنا سيارة الأجرة التي جاء فيها. كان متوترًا طوال الطريق، ويتمتم بآيات قرآنية، وكلما استفسرت عما يجري، كان يقول: "شوي يا أختي!". أخذت الأفكار تتصارع في ذهني، وكنتُ أتساءل عمّا حصل، هل حصل مكروه لخليل، لا سمح الله؟

اتجهت السيارة إلى طريق الجبل، وقطعنا مناطق عاليه وصوفر وبحمدون وشتورة. وبعد أن قطعنا الحدود اللبنانية ودخلنا الأراضي السورية، قرأ الشهادتين وقال: "الحمد لله على السلامة، أنت الآن في أمان! لقد اعتقلت المخابرات اللبنانية أحمد الأطرش. وخوفًا من أن يتعرض للتعذيب ويعترف عليك، قررت القيادة إخراجك من الأراضي اللبنانية بسرعة، ونقلك إلى سورية".

كان أحمد الأطرش شابًا مناضلًا من كوادر حركة فتح في مخيم عين الحلوة، وكان من أوائل الكوادر الذين تعرفت إليهم في الساحة اللبنانية. كان أحمد يتردد إلى بيتنا كثيرًا ليأخذ التعليمات أو الأسلحة، وقد كان شديد الحرص، ولديه حسّ أمني عالٍ، فقد لمحته من الشرفة أكثر من مرة، وهو قادم لزيارتنا، يلتفت يمينًا ويسارًا ليتأكد من أن لا أحد يتبعه.

اعتُقل مع أحمد الأطرش، حينها، جلال كعوش[10] الذي استُشهد في ما بعد تحت التعذيب. أما أحمد الأطرش فعُذِّب بشدة، ولم يعترف على أحد. وألقته المخابرات اللبنانية أمام منزله، بعد انتهاء التحقيق، وهو يصارع الموت من آثار الضرب والتعذيب. تعافى، وتسلل من الأراضي اللبنانية إلى سورية، بينما بقي والده وعائلته في لبنان، وتمت ملاحقتهم، على نحو دفعهم لمغادرة لبنان إلى سورية لاحقًا.

وصلنا دمشق، بعد أن مكثت في بيروت ستة أشهر. أقمت، عند وصولي، في شقة يستخدمها المقاتلون الذين كانوا يصلون إلى سورية، كانت الفوضى والغبار يملآن المكان، لم أستطع النوم في تلك الليلة. ومنذ الصباح الباكر بدأت تنظيف البيت وترتيبه حتى أتمكن والأولاد من البقاء فيه. وفي اليوم اللاحق، جاء شاب ألتقيه للمرة الأولى، واسمه محمد حشمة، كان أحد قيادات الحركة العسكريين، كما التقيت الكثير من الإخوة الموجودين في الساحة السورية، وكانت أول عائلة تعرفت إليها هي عائلة الأخ محمود الخالدي[11] وزوجته. كان الأخ محمود عضوًا في اللجنة المركزية في حركة فتح، ونائبًا لمدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في سورية. كما تعرفت إلى والدة وشقيقات الأخ حسام الخطيب[12]، وكان أيضًا

(10) جلال محمد العبد كعوش (1924–1966): ولد في قرية ميرون قضاء مدينة صفد، وتلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة القرية. في عام 1948، هُجِّر مع عائلته إلى مخيم عين الحلوة في لبنان. اعتقلته السلطات اللبنانية عام 1957 لإقدامه على نسف السفارة الفرنسية في بيروت، وقضت المحاكم اللبنانية بسجنه مدة 15 عامًا، لكنه هرب من سجن بعلبك أثناء حوادث عام 1958، وتوجه إلى سورية، حيث التحق بالعمل ضمن تشكيل كتيبة الفدائيين (68) التي شكلتها الحكومة السورية ضمن مرتبات الجيش السوري. انضم لاحقًا إلى حركة فتح، وفي 23/ 12/ 1965، وأثناء عودته من تنفيذ عملية داخل الأرض المحتلة، اعترضتهم دورية تابعة للمخابرات اللبنانية، وتمكنت من اعتقاله، وأودعته في زنازين المخابرات، حيث تعرض لتعذيب قاسٍ أدى إلى استشهاده داخل الزنازين بتاريخ 9/ 1/ 1966.

(11) محمود الخالدي (1932–2021): ولد في حيفا وتلقى تعليمه الابتدائي فيها، وأكمل تعليمه الإعدادي والثانوي والجامعي في مدينة دمشق. حضر المؤتمر الفلسطيني الأول الذي عُقد في القدس عام 1964، وكان أحد مؤسسي حركة فتح، وعضوًا في لجنتها المركزية. عُيِّن ممثلًا لمنظمة التحرير الفلسطينية لدى سورية بين عامي 1969 و2021.

(12) حسام أمين الخطيب (1932–): ولد في طبريا، وتلقى تعليمه الأساسي فيها، لجأت أسرته بعد النكبة إلى دمشق، حيث أكمل تعليمة الجامعي في جامعة دمشق، ثم في جامعة كامبريدج. عُيِّن مستشارًا =

أحد أعضاء اللجنة المركزية. كنا نلتقي بشكل دائم، وكان وجودهم يخفف عني غربتي.

في سورية

"هذه المرأة تجيء دائمًا، تصعد من قلب الأرض
وكأنها ترتقي سلمًا لا نهاية له"

غسان كنفاني

بعد مضيّ أسبوعين على وجودي والأولاد في دمشق، وفي أحد الأيام رنّ جرس الهاتف الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل، وعندما أجبت، وإذ بصوت أبو جهاد على الطرف الآخر، قال مستغربًا: "أنت في دمشق؟". قلت له: "نعم". فقال: "لقد وصلت هذا المساء إلى بيروت، وذهبت إلى البيت، ولكني لم أجدكم، ولم أجد أي ملاحظة. اتصلت بالأخ أبو عمار لأطمئن عليكم، وإذ بك في دمشق، جيد أنا قادم!". طلبت منه ألا يأتي ليلًا، وأن ينتظر حتى الصباح، لأكون مطمئنة عليه أكثر، ووعدني بذلك، فخلدت للنوم. ولم تمضِ ساعتان حتى كان جرس الباب يقرع؛ وصل أبو جهاد، وسألني عما حدث، ولماذا جئت إلى سورية، فشرحت له الوضع، وقلت له إن القيادة قررت انتقالي إلى دمشق بعد اعتقال الأخ أحمد الأطرش وجلال كعوش، خشية أن يعترفوا عليّ في التحقيق، فقال: "حمدًا لله على سلامتك".

في دمشق، كانت حركة فتح تمارس نشاطها علنيًا، فقد منحت الحكومة السورية الدعم والمساندة الكاملة للحركة، كما منحت الحركة المعسكرات للتدريب. ذهبت لزيارة أحد معسكراتنا، معسكر الهامة[13]، ورأيت الشباب يتدربون، فرحت كثيرًا بهذه الحرية، وبدأت أتعرف إلى الكوادر، كما تعرّفت إلى

=في رئاسة الدولة في سورية بين عامي 1966 و1970، وعيّن عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، ورئيسًا لدائرة الشؤون الثقافية والتربوية بين عامي 1969 و1971. كُتب البيان الذي أعلن انطلاقة الثورة الفلسطينية في منزله في دمشق، حين كان عضوًا في لجنتها المركزية قبل أن يغادرها.

(13) معسكر الهامة: أحد أهم معسكرات الفدائيين التي أقامتها حركة فتح قريبًا من دمشق. فكّكته الحركة عام 1975.

العديد من الفتيات في مدينة دمشق وفي المخيمات. كنت أتحدث معهن بحرية عن حركة فتح وأهدافها ومبادئها، وكنت ألمس منهن الحماسة الوطنية، والتجاوب مع أفكار الحركة وأهدافها.

أول خلية نسوية في حركة فتح

كان بيتنا في دمشق، كالعادة، مقر عمل وتنظيم واجتماعات. لم أسعَ للحصول على وظيفة في تلك الفترة، لأنني كرّست وقتي للعمل الحركي. حينها، كان تركيز الحركة على استقطاب الشباب الذكور دون الانتباه إلى ضرورة استقطاب الفتيات، وقد كنت وتوحيدة وافي، في الجزائر، الفتاتان الوحيدتان الملتزمتان بالحركة في حينها، إلا أنني وبعد وصولي إلى سورية، وزيارتي مخيم اليرموك، وبعد أن تعرفت إلى مجموعة من الفتيات اللواتي أبدين حماسًا وطنيًا ورغبة شديدة بالالتحاق بالحركة، بدأت أفكر في ضرورة مشاركة المرأة في النضال، وتطوير دورها في الحركة.

كان أبو جهاد، في تلك الفترة، مكلفًا بملف التعبئة والتنظيم في اللجنة المركزية، وعندما طرحت عليه فكرة تنظيم الفتيات، شجعني على تطوير الفكرة، والبدء بالعمل على تنفيذها، لأنه كان مؤمنًا بدور المرأة الفلسطينية في الثورة والنضال. وعندما زارنا الأخ النقيب محمد حشمة، طرحت عليه الفكرة، وشجعني، خاصة أننا كنا نعمل في ساحة مفتوحة، وهناك إمكانيات لتنفيذها، فطلبت منه أن يرشح لي أسماء عدد من الفتيات موضع الثقة، وأن يقوم بترتيب مواعيد للقائهن.

وبالفعل، حدد لي أول موعد مع الأخت لوسيا حجازي، الموظفة في وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين. وعندما التقينا وتحدثنا، كان لديها استعداد كبير للانضمام إلى حركة فتح. كما التقيتُ الأخت وجدان عاصي، والتي كانت تشغل موقع مديرة مدرسة في وكالة الغوث، واجتمعنا في بيتي، وبعد نقاشات معمقة، شكّلنا أول خلية نسوية في حركة فتح مكوّنة من الأخوات: لوسيا حجازي، ووجدان عاصي، وابتسام الترك، وحسنة بكداش، وأنا.

أقسمت الأخوات يمين الولاء للحركة أمام أبو جهاد، وتم تكليفي بأمانة سر التنظيم النسائي الأول الذي امتد من دمشق حتى حلب، وقد استطعنا أن نستقطب العديد من الأخوات للتنظيم النسائي، ومنهن: الأخت مريم الأطرش، شقيقة الأخوين أحمد وزياد الأطرش، والتي التحقت بالحركة فور مغادرتها لبنان، بسبب الضغوط التي لحقت بعائلتها بعد اعتقال شقيقها أحمد. وأُضيفت الأخت سهام أبو النور، والأخت عدوية الدجاني، وغيرهن.

قدّم التنظيم النسائي خدمات للنساء في المخيم. وتمكّنا، بمساعدة الأخ إبراهيم العلي[14] الذي كان قائد الجيش الشعبي السوري، من افتتاح نادي فتيات فلسطين في مخيم اليرموك، وهو نادٍ ثقافي واجتماعي وتأهيلي. وقد التحقت بالنادي المئات من الفتيات والسيدات الفلسطينيات للاستفادة من دروس الخياطة والتطريز والآلة الكاتبة، ومن ثم تطوّر عمل النادي ليشمل التدريب العسكري. وقد افتتحنا أول دورة للتدريب العسكري لمجموعة من الفتيات البالغ عددهن حوالى مئة وخمسين فتاة، في معسكر الزبداني. وكان المعسكر نهاريًا، حيث تذهب إليه المتدربات في الصباح، ويعدن في المساء، الساعة الخامسة، ثم يفترقن إلى بيوتهن.

في عام 1966، أُبعد الأخ فاروق القدومي من الكويت إلى دمشق. وصل دمشق مع زوجته نبيلة النمر، وطفليهما لطف ورامي، واستقر في سورية. كُلّف الأخ أبو اللطف بملف التعبئة والتنظيم، وأُوكل إلى أبو جهاد ملف الإعلام في الحركة.

شكّل الأخ أبو اللطف ما اتُّفق على تسميته "مكتب المرأة الحركي"، وكان

---

(14) محمد إبراهيم العلي (1934–2021): ولد في أم حارتين في حماة وتلقى تعليمه فيها، وتخرج في الكلية العسكرية. كان قائد قوات الجيش الشعبي برتبة وزير في عام 1963، وكان قد حُكم عليه بالإعدام عام 1962، في عهد ناظم القدسي، على خلفية الأحداث العسكرية التي وقعت في مدينة حلب. وكان مشرفًا على معسكر لتدريب مقاتلي حركة فتح في منطقة حرستا، والذي امتد لاحقًا لإنشاء معسكرات تدريب أخرى في القلمون، ومصياف. أُعفي من مهماته، في عام 2005، على خلفية إدلائه في وقت سابق بتصريح تلفزيوني طالب فيه بحل القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي.

التشكيل الأول للمكتب بعضوية كل من الأخوات: انتصار الوزير، ولوسيا حجازي، ووجدان عاصي، وحسنة بكداش، ونبيلة النمر، ومريم الأطرش، وفاطمة العبد الله. طَلَب من معتمد الإقليم الأخ سعد الغندور[15] أن يجتمع باللجنة، وأن تنتخب اللجنة أمينة سر ونائبة ومقررة. وعندما اجتمعت اللجنة وتم التصويت، انتُخبتُ أمينة سر للمكتب، وانتُخبت لوسيا حجازي نائبة، ومريم الأطرش مقررة.

خلال عام 1966، تمكنًا من استقطاب آلاف الفتيات. كنا نزور المحافظات، ونعقد الندوات والمحاضرات، وندعو العديد من الإخوة في اللجنة المركزية لتقديم الندوات والدورات التثقيفية، ومناقشة أوضاعنا التنظيمية. كما نظمنا رحلات ترفيهية للأخوات، وأذكر رحلة لا تُنسى نظمناها إلى الجولان، حيث انطلقت بنا خمس حافلات إلى الجولان الذي نزوره أول مرة. في الطريق، صدحت أصوات الفتيات، ينشدن الأهازيج الشعبية والأناشيد الوطنية. كم كان الجولان جميلًا بخضرته وأشجاره ومياهه! وفي بانياس انتشرت الفتيات بين الخضرة، وتقاسمنا العمل في مجموعات لتحضير الطعام، ثم انطلقت بنا الحافلات إلى منطقة الحمّة للاستحمام في المياه الساخنة. كانت رحلة لا تُنسى، من أجمل رحلات العمر، تعززت خلالها علاقات الأخوّة والنضال بين المشاركات.

بدأ دور المرأة الفلسطينية يبرز في النضال جنبًا إلى جنب مع المناضلين الفلسطينيين، فقد كانت حشود المرأة الفتحاوية تتصدر المظاهرات والاحتجاجات، خاصة عندما استشهد الأخ جلال كعوش تحت التعذيب على يد المكتب الثاني اللبناني، فقد عمّت المظاهرات مدينة دمشق، والمدن السورية كافة، احتجاجًا على الحادثة، وإدانة للمكتب الثاني اللبناني.

---

(15) سعد الدين محمد الغندور [أبو عمار سعد] (1932-2021): ولد في يافا، وهاجرت عائلته بعد نكبة عام 1948 إلى خان يونس، ومن ثم إلى العريش. درس الهندسة الزراعية في جامعة القاهرة، ثم أكمل دراسته في جامعة بوخارست في عام 1984. ساهم في تشكيل النواة الأولى لتنظيم الحركة في محافظة اللاذقية عام 1964، وأصبح معتمد الإقليم السوري في عام 1968.

رعاية أسر الشهداء والأسرى والجرحى

كنت وأبو جهاد نقوم مقام العائلة للعديد من الإخوة المناضلين في فتح، فإذا استُشهد أحد المناضلين؛ أقوم بواجب العزاء، وأهتم بزوجة الشهيد وأولاده، وأنقل إلى أبو عمار وأبو جهاد احتياجات أسرة الشهيد، وأتابع جميع شؤونها.

في عام 1966، ومع ازدياد أعداد الشهداء والجرحى في صفوف الثورة الفلسطينية، اتخذت اللجنة المركزية للحركة قرارًا بتشكيل "لجنة لرعاية أسر الشهداء والأسرى والجرحى"، وتم تسميتي رئيسة للجنة، وبعضوية الأخوين ربحي كعوش، وسميح درويش، على أن تتبع اللجنة للقيادة العامة لقوات العاصفة ومقرها دمشق. وفي الاجتماع نفسه، تم اتخاذ قرار من اللجنة المركزية بتشكيل جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، وتكليف الدكتور فتحي عرفات[16] برئاسة الجمعية. وقد أدت لجنة رعاية أُسر الشهداء والجرحى والأسرى، وجمعية الهلال الأحمر الفلسطيني، دورًا كبيرًا على مستوى الشعب الفلسطيني في أماكن وجوده كافة، وأصبحتا جزءًا لا يتجزأ من نضال شعبنا ودعم صموده.

اجتمعت لجنة رعاية أُسر الشهداء والجرحى للمرة الأولى، ووضعنا خطة عمل لتحركنا. بدأنا بزيارات ميدانية لجميع عائلات الشهداء، والذين كان عددهم، في حينها، أحد عشر شهيدًا. طوّرنا استمارة تحتوي على البيانات والمعلومات اللازمة عن الشهيد؛ مكان ميلاده، وسكنه، وتحصيله العلمي، وتاريخ استشهاده، ونبذة عن ظروف استشهاده، إضافة إلى معلومات عن حالته الاجتماعية ووضع عائلته.

كان لنا مكتب في مقر القيادة العامة لقوات العاصفة. مع تطور العمل العسكري، واستمرار الغارات الإسرائيلية على معسكرات الحركة، والاشتباكات

---

(16) عبد الفتاح عبد الرؤوف عرفات القدوة "فتحي عرفات" (1933–2004): ولد في مدينة القدس. تلقى تعليمه في مدارس مدينة القاهرة، ثم التحق بكلية الطب في جامعة القاهرة، ليتخرج فيها في عام 1962. التحق بصفوف حركة فتح منذ بداياتها. انتقل إلى سورية ليتفرغ للعمل طبيًا في صفوف قوات الثورة الفلسطينية الموجودة هناك منذ عام 1967. ساهم في تأسيس جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني في عام 1968. شغل عضوية المجلسين الوطني والمركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية، وعضوية المجلس الثوري لحركة فتح. توفي في القاهرة ودُفن فيها.

المتواصلة، وازدياد العمليات العسكرية، ازداد عدد الشهداء، وازدادت أعباء اللجنة. قررنا الاستعانة بالتنظيم النسائي، حيث تم فرز عدد من الأخوات في اللجنة الاجتماعية لزيارة عائلات الشهداء والاطلاع على أوضاعهم، وتسليم المخصص الشهري لعائلة الشهيد، وتفقد أوضاع أولاده في المدارس، وفرز معلم أو معلمة لمساعدة المقصرين منهم، وأخذ الأطفال إلى طبيب عند الحاجة.

من خلال عمل اللجنة، طورنا علاقات إنسانية قوية مع عائلات الشهداء لإدراكنا أهمية التواصل معهم، وعدم تخلي الثورة عنهم. كنا نتعامل مع أبناء الشهداء كأبنائنا؛ نهتم بهم، ونُتابع قضاياهم، ونفخر بنجاحاتهم. ومن الحالات الأولى التي قمنا برعايتها، وبقيت محفورة في الذاكرة، كانت رعايتنا لابن الأسير عبد الله هلال وكان طفلًا يعاني مرض سرطان الدم. كنا نوفر له الدواء، ونأخذه مع والدته لمراجعة الطبيب، ونجري له الفحوص المخبرية المطلوبة باستمرار. وبعد صراع مع المرض، توفي وهو في سن الثالثة عشرة، وقد أحزنني رحيله كثيرًا لأنني عرفته عن قرب.

خلال تلك الفترة، تزايدت وتيرة العمليات الفدائية، وتطوير التنظيم، وتوسيع شبكة العضوية بالحركة، على نحو تطلب إمكانيات مالية أكبر لتغطية نفقات العمليات والمجموعات كافة، إضافة إلى الحاجة لتغطية النشاطات التنظيمة، ومخصصات أسر الشهداء. كان المال شحيحًا في تلك الفترة، وأذكر أن الأخ أبو عمار استدان مني مبلغ خمسمئة جنيه إسترليني كانت قد وصلتني من الجزائر، وهي مخصصات رواتب متأخرة صُرفت بعد مغادرتي الجزائر. وظل أبو عمار فترة يستدين المبلغ ثم يعيده إليّ عندما كانت تصل أموال للحركة.

قصة يوسف عرابي

بعد زيارة أبو جهاد للصين، والتي طالبهم خلالها بدعم الحركة بعد الانطلاقة، أوفت الصين بوعودها وأرسلت طائرة مليئة بالسلاح بأنواعه كافة؛ كلاشينكوف، وألغام أرضية، وقنابل يدوية، وعتاد. وصلت الطائرة إلى مطار دمشق، واستقبلها أبو جهاد، ومعه قائد الجيش الشعبي السوري، محمد إبراهيم العلي الذي كان

صديقًا للحركة، وساعد في نقل السلاح وتخزينه في بيتنا، وقد امتلأت غرفة الضيوف بصناديق السلاح الثقيلة حتى يتوافر مستودع لنقلها.

بينما كان ثقل العمل العسكري والتنظيمي يزداد في سورية، استمر بعض أعضاء اللجنة المركزية بعملهم الوظيفي في الخليج من دون التفرغ للعمل الكامل في الحركة. وعلى الرغم من استمرار التواصل بينهم وبين الأعضاء المتفرغين على الأرض في سورية، فإنّ الصورة لديهم عن حقيقة الوضع لم تكن مكتملة بسبب غيابهم، وقلة المعلومات التفصيلية للعمل اليومي واحتياجاته، الأمر الذي دفع عددًا منهم إلى توجيه الاتهام للأخ أبو عمار بالتفرد بالقرار الحركي، وبخاصة، في ظل رغبتهم أن تتم استشارتهم قبل أي عمل، أو دورية، أو عملية عسكرية، الأمر الذي كان مستحيلًا في ضوء التطورات المتسارعة على الأرض.

وبغير سابق إنذار، جاءت رسالة من الإخوة أعضاء اللجنة المركزية في الكويت، حملها الأخ مختار بعباع[17]، وهو أحد كوادر الحركة، ومعه الحاج صبري بدر، عضو الأمانة العامة لاتحاد العمال، وهو كادر آخر في فتح. كانت الرسالة موقعة من عادل عبد الكريم، وعدد من أعضاء اللجنة المركزية، بعد اجتماع للجنة المركزية تغيّب عنه كل من خليل الوزير وياسر عرفات ومحمود عباس وأبو يوسف النجار.

حملت الرسالة قرارًا بعزل ياسر عرفات عن العمل قائدًا عامًا لقوات العاصفة، وتكليف النقيب يوسف عرابي ليحل مكانه، وتم تسليم الرسالة إلى يوسف عرابي، وانتشر خبر الرسالة والقرار بين كوادر الحركة. كان عُرابي صديقًا لأبو عمار وأبو جهاد اللذين حاولا، بعد وصول القرار، التوجه إلى الإخوة في القيادة السورية لوقف تنفيذه إلى حين عقد اجتماع لجنة مركزية بكامل أعضائها، إلا أن النقيب

(17) مختار محمد إبراهيم بعباع (1942–2000): ولد في طولكرم. انتقل إلى الكويت وشارك في تأسيس حركة فتح هناك. ساهم في التأسيس للعمل العسكري في دمشق. اعتُقل في عام 1966، إثر مقتل النقيب يوسف عرابي. عُيّن في عام 1968 نائبًا لمفوض جهاز الرصد الثوري، ومن ثم مسؤولًا عن جهاز الأمن في الساحة السورية. عمل لاحقًا في اللجنة الأردنية الفلسطينية المشتركة لدعم صمود الأرض المحتلة.

يوسف عرابي، ومعه مجموعة، منهم عدنان العالم، وآخرين من أصدقائه، حاولوا تنفيذ القرار بالقوة، من خلال الاستيلاء على مكتب الحركة في منطقة الشعلان في دمشق، ومحاولة الاستيلاء على معسكر الهامة، وعلى مواقع أخرى عدة للحركة، كما اختطفوا أحد كوادر فتح، واسمه وليد أبو شعبان، ونقلوه إلى منطقة الزبداني.

في عصر ذلك اليوم، جاء إلى منزلنا في منطقة ركن الدين[18] في دمشق، الأخوان منهل شديد وموسى عرفات[19] اللذان تخرجا في كلية شرشال العسكرية في الجزائر، والتحقا بالحركة في سورية، جاءا يسألان عن خليل وياسر عرفات، وأجبتهم أنني لم أرَ أيًّا منهما، وأنهما لم يعودا إلى المنزل منذ الصباح. سألتهما عما يحدث، وسبب قلقهما، فأبلغاني بقصة اختطاف وليد أبو شعبان، وعن استفزازات النقيب يوسف عرابي وجماعته منذ وصول القرار. وبعد مغادرتهم، انتظرت عودة خليل بقلق شديد. في حوالى الساعة السادسة مساءً، قُرِع جرس الباب، لأجد الأخ النقيب محمد حشمة الذي أقلقه وجودي وحدي في البيت في هذه الظروف بلا حراسة، وخاصة أن المنزل مستودع للأسلحة، فاستأذن البقاء معي حتى عودة أبو جهاد.

كان النقيب محمد حشمة في غاية التوتر أثناء انتظاره معي، الأمر الذي زاد توتري. كان يهدد ويتوعد يوسف عرابي، وأقسم أنه سيقتله إذا تجرأ وجاء إلى هذا المنزل. كنت أهدئ من روعه، وأقول له إن هذه مشكلة داخلية، وسيتم حلها بالحوار، وإن هذا القرار الخاطئ سوف يُعالج ويُحسم داخل اللجنة

---

(18) أحد أحياء دمشق.

(19) موسى علي عرفات القدوة (1940–2005): ولد في يافا. أتم تعليمه الابتدائي والثانوي في غزة، ثم التحق بجامعة القاهرة. انتسب إلى حركة فتح في عام 1963. أُرسل إلى أول دورة تدريبية عسكرية في الصين، وعاد منها في عام 1968. ترأس، بعد العودة من الصين، ما يُسمى بالقطاع الجنوبي في حركة فتح بالأردن. وظل في الأردن حتى أحداث أيلول/ سبتمبر 1970. عُيّن نائبًا لقائد قوات أجنادين في لبنان بين عامي 1976 و1982، ثم عُيّن نائبًا لمدير جهاز الاستخبارات العسكرية في حركة فتح. كان عضوًا في المجلس الثوري للحركة، وعضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني، وعضوًا في مجلس الأمن القومي الفلسطيني. بعد توقيع اتفاق أوسلو وتأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية، عُيّن مديرًا لجهاز الاستخبارات العسكرية، ثم مديرًا للأمن الوطني الفلسطيني في غزة، ومستشارًا عسكريًا للرئيس ياسر عرفات.

المركزية في أول اجتماع لها. تحدّثنا وتناقشنا حول الموقف منتظرين عودة أبو جهاد وأبو عمار.

قاربت الساعة على التاسعة مساءً ولم يأت أحد. كنت أخشى ثورة غضب الأخ النقيب محمد حشمة، وإصراره على قتل النقيب يوسف عرابي. ساد الصمت بيننا فترة من الوقت، وسرحت في خاطري بعيدًا، وتساءلت ماذا إن جاء يوسف عرابي إلى البيت الآن وتبادلا إطلاق النار، وأنا وحدي في المنزل؟ كيف سيكون موقفي عندها؟ خاصة أننا لا نزال نعمل تحت الأرض، وبسرية تامة، على الرغم من المساحة الشاسعة التي أعطتها الحكومة السورية لحركة فتح وقوات العاصفة للعمل بشكل واضح وصريح على الأراضي السورية. تدافعت الأفكار في ذهني، على نحو زاد توتري وقلقي، انعكست هذه الأفكار فورًا على إجابتي: "أنا لا أخاف"، عندما سألني النقيب محمد حشمة إن كنت أخاف من البقاء وحدي إذا تركني وذهب إلى بيت أبو عمار لاستطلاع الوضع والعودة، كررت إجابتي: "لا، أنا لا أخاف، اذهب إذا أردت". وفعلًا، خرج مسرعًا، فأغلقت الباب وجلست أنتظر.

مرت ساعة من الزمن، كانت دقائقها بطيئة، وكأن الزمن قد توقف، وإذا بالباب يُقرع من جديد، وعندما فتحت الباب، كان القادم هو الأخ أبو علي إياد. قال، موضحًا سبب مجيئه، إنه ذهب إلى منزل أبو عمار في منطقة المزرعة، ووجد جميع الإخوة الذين يقيمون مع أبو عمار في المنزل هناك يعدون العشاء، سألهم: "جميعكم هنا ولا أحد منكم عند الأخت أم جهاد؟". فأجابه الأخ النقيب محمد حشمة: "أنا كنت عندها مدة ساعتين ونصف الساعة، وقبل أن أغادر سألتها إن كانت تخاف أم لا إذا تركتها"، فقاطعه أبو علي وقال له: "هل تريد من الأخت أم جهاد أن تقول لك إنها تخاف؟ أنا ذاهب للبقاء معها!".

جلست والأخ أبو علي إياد ننتظر عودة أبو جهاد وأبو عمار ونحن في حالة من القلق الشديد، لا نعرف مكانهما أو ما حصل معهما. في الساعة الرابعة صباحًا، وقفت سيارة أجرة أمام المنزل، ونزل منها أبو جهاد وأبو عمار. ركضنا إلى الباب لاستقبالهما، وعند دخولهما، كان أبو عمار يبكي، وقال: "البقية بحياتك يا أختي

أم جهاد!". صرخت: "من؟". قال: "استشهد النقيب يوسف عرابي، وكذلك، النقيب محمد حشمة!".

كان للخبر وقع الصاعقة في نفسي، وعشت أعوامًا طويلة وأنا اشعر بتأنيب الضمير، فلو قلت للأخ محمد حشمة إنني أخاف، وبقي عندي، هل كان سيحصل ما حصل ويستشهد الاثنان؟

في ما بعد، روى لنا الإخوة في منزل أبو عمار، في المزرعة، ما حصل في تلك الليلة؛ كان في المنزل حوالى 12 من كوادر الحركة، أذكر منهم الإخوة أبو صبري (ممدوح صيدم)، والنقيب محمد حشمة، والأخ عبد الكريم العكلوك. وبحسب أقوالهم، كان عبد الكريم العكلوك يُعد الشاي للعشاء في المطبخ عندما دخل عليهم يوسف عرابي، وعدنان العالم، وآخرون، ووقفوا عند باب الغرفة، حيث كان الموجودون يجلسون على الأرض حول مائدة العشاء، ومن بينهم محمد حشمة. تبادل النقيب يوسف عرابي ومحمد حشمة الشتائم قبل أن يتبادلا إطلاق النار. وبينما أصابت رصاصة حشمة الحائط، أصابت رصاصة عرابي محمد حشمة وقتلته. في تلك اللحظة، خرج أحد الإخوة، وهو مرافق محمد حشمة، واسمه عبد المجيد زغموت، على صوت الرصاص من الغرفة المجاورة، يحمل بندقية كلاشينكوف، ورأى محمد حشمة غارقًا بدمه، فأطلق النار على يوسف عرابي وقتله[20].

(20) في رواية زكريا عبد الرحيم أن زغموت بدأ يطلق النار، ما أن سمع صوت الرصاصات الأولى التي أطلقها يوسف عرابي، فقتله وقتل محمد حشمة خطأ. وفي الأثر، اعتُقل الجميع، بمن فيهم ياسر عرفات وأبو جهاد، وخضع الجميع للمحاكمة التي رأسها المقدم مصطفى طلاس، فأفرج عن عرفات وأبو جهاد ومختار البعباع، وحُكم عبد المجيد زغموت بالإعدام، ثم خُفض الحكم إلى المؤبد، وتوفي في سجنه في شباط/ فبراير 2000. أما إبراهيم العلي فيشير في مذكراته إلى أن حزب البعث العربي الاشتراكي، منذ المؤتمر القطري الثالث والمؤتمر القومي التاسع، اعتبر القضية الفلسطينية قضيته المحورية، ما خلق شعورًا بالمنافسة لدى بعض البعثيين الفلسطينيين للوصول إلى قيادة حركة فتح، وإبعاد ياسر عرفات منها، حيث كان النقيب يوسف عُرابي أحد هؤلاء. تفجّر الخلاف عندما أطلق عبد المجيد زغموت - المُراسل الذي انتدبته حركة فتح لنقل الرسائل من قيادتها إلى قيادة الحرس القومي التي كان يرأسها إبراهيم العلي آنذاك - النار على النقيب يوسف عُرابي والملازم الأول محمد حمشة اللذين قُتلا بسبب خلاف سياسي، وليس بسبق إصرار وترصّد من زغموت. يُنظر: إبراهيم العلي، **حياتي والإعدام**، ج 3 (دمشق: [د. ن]، 2004)، ص 235-237.

عندما وقعت الحادثة، كان أبو عمار وأبو جهاد في مكتب منيب المجذوب، مسؤول المخابرات في حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية، وقد سمعوا إطلاق النار، لأن منزل أبو عمار قريب، وعندها قال أبو عمار: "الله يستر".

أُقيمت للشهيدين جنازتان منفصلتان. اتهمت، جماعة يوسف عرابي، قيادة حركة فتح أنها وراء استشهاده.

اعتقال أبو عمار وأبو جهاد

في إثر حادثة مقتل يوسف عرابي ومحمد حشمة في منزل أبي عمار، جاءت إلى منزلنا، في حوالى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، مجموعة من المخابرات السورية، وأبلغونا بأمر توقيف أبو عمار احترازيًا، وأخذوه معهم بحجة حمايته والخوف على حياته.

بعد ثلاثة أيام، وبينما كنت في المطبخ أعدّ القهوة لأبو جهاد وكمال كعوش، دقّ جرس البيت، كان شابًا يريد التحدث إلى أبو جهاد، فناديته وتوجهت إلى المطبخ لأكمل القهوة، وعندما عدت إلى الصالة عند الضيف، لم أجد أبو جهاد، فتشت عليه في كل مكان، كان قد خرج رفقة الشاب الذي حضر من دون أن يخبرني أنّه ذاهب معه، وإلى أين. توقعنا أن تكون المخابرات السورية قد اعتقلته. ذهبت وأبو علي إياد، وأحمد الأطرش للبحث عن أبو جهاد في مختلف مراكز الشرطة والأمن ولم نحصل على أي معلومة عن وضعه أو مكان احتجازه.

مضى أكثر من أسبوع من دون أي خبر عنه، ازداد قلقي، حتى أنني فكرت في إمكانية أن تكون المخابرات الإسرائيلية قد اختطفته. فتك القلق بأعصابي وأنا أبحث عنه في كل مكان، فصرت أفكر بأسوء الاحتمالات. قررت طلب المساعدة من أحد جيراننا، ويدعى رئيف علواني، وكان حينها قائد فرقة في الجيش العربي السوري. توجهت إليه وأخبرته عن اختفاء أبو جهاد، وعن بحثنا عنه طوال الوقت لدى الأجهزة الأمنية والشرطة، ولكنهم نفوا وجوده لديهم. فسألني إن كنا من حركة فتح، فأجبته: "نعم، فقط أريد أن أعرف أين هو". وكانت إجابته سريعة: "انتظريني هنا عند زوجتي، وسوف أتصل بك بعد قليل". خرج من البيت، وجلست مع زوجته بانتظار اتصاله.

بعد نصف ساعة، كانت بالنسبة إليّ دهرًا، جاءني صوته عبر الهاتف قائلاً: "إن أبو جهاد محتجز لدى الشرطة العسكرية، وهو بصحة جيدة، وقد حصلت لك على تصريح لزيارته اليوم، الساعة الثانية عشرة ظهرًا، في مقر الشرطة، لدى الرفيق عدنان دبور، قائد الشرطة الذي سيوصلك إليه".

شكرته وغادرت مسرعةً إلى مقر الشرطة العسكرية، رحّب بي الرفيق عدنان دبور، واستدعى أحد عناصر الشرطة، وقال له: "خذها لأبو جهاد". رافقت الشرطي عبر عدة أبواب حديدية حتى وصلنا إلى إحدى غرف السجن، حيث وُجد أبو جهاد وأبو عمّار، ومعهما عدد آخر من الإخوة. كانت غرفة السجن كبيرة خالية من أي أثاث سوى بعض الحُصر والحرامات، وقد فوجئوا جميعهم برؤيتي.

تحلّقوا حولي وسألوني عن الوضع في الخارج، وعن زملائهم أعضاء الحركة وكادرها في الساحة السورية. كما سألوني عن الخطوات التي اتخذها إخوتنا في الحركة من أجل الإفراج عنهم. قدّمت ملخّصًا للوضع الصعب الذي تعيشه الحركة بعد اعتقالهم، وذكرت أن عددًا من الإخوة، أعضاء اللجنة المركزية في الساحة، قرروا الاعتزال أو الاستقالة من فتح نتيجة ما حدث، ولم يسمحوا لأحد من الكوادر بالاتصال بهم، الأمر الذي خلق حالة من القلق والبلبلة لدى الفتحاويين.

عندها قال أبو عمار أمام الجميع: "أم جهاد، أنت الآن القائد العام لقوات العاصفة، استعيني باثنين من الإخوة الذين تثقين بهم لمساعدتك، وقودي أنت العمل، ونحن نثق أنك قادرة على القيام بالمهمة. يجب أن تستمر الثورة، ويجب أن تستمر قوات العاصفة بعملياتها، وليُفهم الإخوة السوريون والجميع، أننا إذا اعتُقلنا فإن الثورة مستمرة، هذا فقط سيساعدك في الإفراج عنا".

ثم أضاف: "أم جهاد، المؤامرة على فتح كبيرة؛ حزب البعث يريد الاستيلاء على الحركة، وهو الذي دفع يوسف عرابي إلى هذا التصرف". أضفت: "كما أنّ أعضاء اللجنة المركزية الذين وافقوا وأصدروا هذا القرار في الكويت، هم من منحوه هذه الفرصة، وقادوه إلى هذا العمل، وتجب محاسبتهم!". ردّ أبو جهاد: "نعم، الإخوة في الكويت يتحملون المسؤولية، ولكن الآن علينا أن ننتهي من هذا

الموقف ونخرج من السجن، ولن نخرج إلا إذا شعر السوريون أن فتح وقواتها العاصفة قوية في كل مكان. العمل، والعمل من الجهات كلها، فقط هو المُنقِذ للحركة وقواتها من هذا الوضع". ثم سألني عن الأولاد، وأخبرته أنهم بخير.

ودّعتهم وخرجت، ووعدتهم بزيارة أخرى إن أمكن. في طريق العودة إلى البيت، بدأت أفكر في المهمة التي كُلّفت بها، وبدأت أسترجع أسماء الإخوة لأختار منهم اثنين لمساعدتي في العمل، واستقر رأيي على الأخوين وليد نمر (أبو علي إياد)، وأحمد الأطرش، حيث إنهما من الكوادر الفتحاوية الصلبة، وهما أهل للثقة، ويمكن الاعتماد عليهما في إنجاز المهمة.

وليد نمر (أبو علي إياد)، شاب يمتاز بالصلابة والإخلاص في العمل، التحق بالعمل في الجزائر معلمًا للغة العربية، وقد طلب أبو جهاد حضوره إلى الجزائر، وكان من أبناء حركة فتح في قلقيلية. عمل فترة معلمًا للغة العربية في الجزائر، وكان يتردد على المكتب باستمرار مع الأخ ممدوح صيدم (أبو صبري)، وبعد فترة، التحقا بمعسكر تدريب الكوادر في تيبازة في الجزائر. كنا نعمل معًا، أعضاء لجنة إقليم الجزائر، وكان معنا أيضًا الأخ عبد الكريم العكلوك، وأبو مروان المغرب (وجيه قاسم)، وأحمد وافي، ومحمد أبو ميزر، وعبد الهادي السويس، وسعيد البرغوثي.

أما أحمد الأطرش، فكان أحد الكوادر المسؤولة في الساحة اللبنانية، وقد قاد دوريات عسكرية عدة، ودخل الأرض المحتلة أكثر من مرة، وقد عانى الاعتقال، وتعرّض للتعذيب في المكتب الثاني اللبناني، وشارف على الموت ولم يعترف على أحد. كان إيمانه بالحركة راسخًا، وقد تحمّل التعذيب والملاحقة، وملاحقة عائلته، وأثبت كفاءته ووعيه الوطني.

وصلت إلى البيت وانتظرت الأخوين أبو علي إياد، وأحمد الأطرش، وقد جاءا للاستفسار عن زيارتي للإخوة في السجن، قلت لهما إنني زرتهم، وهم بخير، ولكن ظروف الاعتقال صعبة، فجميع الإخوة في غرفة واحدة خالية من

أي أثاث سوى البرش[21] التي تملأ الأرض، كما أبلغتهم بتكليف الأخ أبو عمار لي أن أكون القائد العام لقوات العاصفة في أثناء اعتقالهم في السجن، وأن عليّ اختيار اثنين من الإخوة لمساعدتي في إنجاز المهمة. وقلت: "لقد فكرت كثيرًا، ولم أجد أفضل منكما. هل توافقا أن نقوم بهذه المهمة معًا؟". قالا: " نعم، نحن تحت أمرك". قلت: "على بركة الله، تعالوا في الغد لنناقش خطة العمل، وبرنامج التحرك من أجل الإفراج عنهم".

في اليوم التالي، جلسنا حول الطاولة، وتناقشنا كثيرًا، وخرجنا بتصور موحّد، واتفقنا على الاتصال بالإخوة في الكويت، ووضعهم بالصورة، وطلب إرسال وفد لزيارة سورية، والتدخل لدى القيادة السورية من أجل الإفراج عن الإخوة المعتقلين. كما اتفقنا أن يتولى الأخ أبو علي إياد مَهمّة الاتصال بالمجموعات العسكرية في الأردن وقطاع غزة والضفة الغربية، لتحريك دوريات ضد أهداف للعدو الإسرائيلي. وأن يتولى الأخ أحمد الأطرش الاتصال بمجموعات قوات العاصفة الموجودة في جنوب لبنان، وأن يعطوا الأوامر بالتحرك في عمليات عسكرية نوعية، بينما أقوم أنا بالاتصالات مع أعضاء اللجنة المركزية في الكويت، والعمل مع الإخوة السوريين، من أصدقاء الحركة وأنصارها، من أجل الضغط للإفراج عنهم، إلى جانب الاستمرار بالتواصل مع كوادر الحركة، ومتابعة قضاياهم كافة.

لم نتوقف عن العمل؛ كنت أذهب يوميًا للقاء المسؤولين من أصدقاء الحركة، كانوا يستمعون، ويعدون بالتدخل من أجل الإفراج عنهم، ولكن مضت الأيام دون نتائج. في الكويت، أرسل الإخوة أعضاء اللجنة المركزية وفدًا مكونًا من الأخ فاروق القدومي والأخ عبد الله الدنان، وقابلا المسؤولين السوريين، ولكن من دون نتيجة.

كانت الساعة العاشرة صباحًا، عندما ذهبت لزيارة الأخ فاروق القدومي في فندق قاسيون، بعد وصوله إلى دمشق، يرافقني الأخ أبو علي إياد وأحمد

(21) الفراش الذي ينام عليه السجين.

الأطرش. انتظرنا في بهو الفندق إلى حين نزول الأخ فاروق من الغرفة، والذي بدا عليه التعب والسهر. سألناه عن نتيجة اتصالاته، وأين وصلت الأمور، فحدّثنا عن اتصالاته ومحاولات الإفراج عنهم، ولكن هذه المحاولات لم تؤتِ ثمارها بعد. كما انتقدنا قرار اللجنة المركزية بالكويت الذي تسبّب بالأزمة، وهو قرار تعيين يوسف عرابي في موقع ياسر عرفات، وحمّلناها المسؤولية عما جرى كله.

أقرّ الأخ فاروق القدومي حينها أن القرار كان خاطئًا ومتسرعًا، وأنه وجب التريث، وأكد أن الأولوية الآن هي الإفراج عن الإخوة من السجن، وقال: "لقد شرحنا الموقف للإخوة السوريين، وعلينا الآن أن نرسل رسالة إلى الرئيس السوري نور الدين الأتاسي[22] باسم الإخوة المعتقلين، نسترحم فيها الرئيس، ونطالبه بالإفراج عنهم. ثم طلب ورقةً وقلمًا، وأخذ يصوغ الرسالة، وأنا جالسة أمامه أنظر إليه والأفكار تتصارع في ذهني. بدأ كتابة الرسالة، ثم أخذ يقرأ لنا النص الذي كتبه، قلت له بشيء من الحدّة: "هذا الأمر مرفوض! أي رسالة استرحام تعني أنّهم مدانون! أنا لا أوافق على مثل هذه الرسالة، هذه إدانة لهم، واعتراف منهم بمسؤوليتهم عن الحادث!". فوجئ الأخ فاروق القدومي من انفعالي وقال: "بلاش تزعلي، ها"، ومزق الورقة.

استمرت زيارة وفد اللجنة المركزية من الكويت أسبوعًا، ولم يطرأ جديد على الموقف. حضر بعدها وفد آخر، من بينهم الأخ فاروق القدومي، والأخ صلاح خلف، والتقوا عددًا من القيادات في سورية، وحصلوا على وعود لم تُنفذ[23].

(22) "أحمد نور الدين" محمد الأتاسي (1929-1992): ولد في مدينة حمص. درس الطب في جامعة دمشق وتخرج فيها عام 1955. وخلال مرحلته الجامعية انتمى إلى حزب البعث، بعد أن سيطر حزب البعث على السلطة في سورية عام 1963 عُيّن وزيرًا للداخلية، ثم رُقّي إلى نائب رئيس وزراء في العام التالي، وفي عام 1966 وبعد انقلاب عسكري على اللواء أمين الحافظ، أصبح رئيسًا للجمهورية وأمينًا عامًا لحزب البعث. في عام 1970، قاد حافظ الأسد انقلابًا على الأتاسي، ونجح في إطاحة حكمه، وأودعه سجن المزة العسكري في دمشق مدة 22 عامًا، ولم يُفرج عنه إلا عام 1992 لأسباب صحية.

(23) يذكر صلاح خلف أنه، على خلفية الحادثة، طُلب إلى عادل عبد الكريم وعبد الله الدنان التوجه إلى سورية لمتابعة المسألة منتدبين عن حركة فتح، لأن يوسف عرابي كان قد انضم إلى حركة فتح عن طريقهما، لكنهما رفضا، فذهب هو، ومعه أبو اللطف وأبو يوسف النجار الذي جاء من قطر، إلى دمشق، =

واستمرت اللجنة القيادية بالعمل ومتابعة جميع القضايا الخاصة بالحركة. وبالفعل، تحرك الإخوة الفدائيون من المواقع كلها في عمليات عسكرية هزّت كيان العدو، وأصدرنا أكثر من بلاغ عسكري. العمل مستمر، وزيارتي للسجن كل أسبوع مستمرة، أعدّ لها جيدًا؛ آخذ لهم الملابس، والدّخان، وأدوات الحلاقة، والصابون، والطعام. كنت أشتري لهم دجاجًا مشويًا من مطعم "أبو كمال". أحمل هذه الأغراض كلها إلى مركز الشرطة، وأطلب مقابلة أبو جهاد، وأدخل لأجدهم جميعًا في الغرفة نفسها، لم يجر معهم أي تحقيق أو حوار. كانوا، كالعادة، يستفسرون عن جهودنا وجهود اللجنة المركزية خارج السجن، وخطواتنا من أجل الإفراج عنهم. فأضعهم في صورة مجريات الأمور، والأوضاع التنظيمية، والعمليات، والدوريات العسكرية، وعن العمليات العسكرية التي تمت. أخبرتهم عن استمرار اعتكاف أعضاء اللجنة المركزية في دمشق، محمود الخالدي وحسام الخطيب، في المنزل، ورفضهم استقبال أي من كوادر الحركة، وإصرارهم على استقالتهم من الحركة نتيجة جميع ما حصل.

مر شهران على اعتقال أبو جهاد والإخوة. ما أصعب أن تُقيّد حرية الإنسان، وما أصعب هذا الوضع الذي نحن فيه، كانت زيارتي لأبو جهاد والإخوة في السجن تعطيني الأمل، وتشعرني بالاطمئنان كلما رأيتهم.

في أحد أيام الجمعة، ذهبت، كالعادة، محملة بالأكل والملابس إلى مركز الشرطة لزيارتهم، ولكني صُدمت عندما علمت أن أبو جهاد والإخوة غير موجودين، وأنهم نُقلوا إلى جهة أخرى. عدت إلى البيت مثقلة بالهموم والقلق، وفكرت في التوجه للقاء الأخ محمد إبراهيم العلي، وكان قائد الجيش الشعبي السوري، وهو صديق مقرب لحركة فتح، يقدّم لها الدعم والمساندة والسلاح كلما توافر لديه، وقد قدّم لنا سابقًا مساعدة قيمة عندما افتتحنا نادي فتيات

= وهناك قابلوا صلاح جديد ثم وزير الدفاع آنذاك حافظ الأسد، والذي وعدهم بالإفراج عن المعتقلين من قيادة الحركة. وهذا ما يؤكده فاروق القدومي في روايته، لكن من الواضح أن هذه المحاولة لم تنجح في إطلاق سراح المعتقلين يُنظر: "تسجيل صوتي لصلاح خلف"، محفوظ في أرشيف المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. ملف رقم: 79-2: Tape 3, Side 1؛ يحيى يخلف، "شهادات تاريخية عن انطلاقة الثورة الفلسطينية/ شهادة فاروق القدومي".

فلسطين، حيث تكفل بدفع أجرة النادي، وقدم لنا تجهيزاته كافة، هدية منه. ذهبت إلى بيت الدكتور حسام الخطيب، وطلبت منه تحديد موعد لمقابلة الأخ محمد إبراهيم العلي (أبو ندى)، فوعدني خيرًا. وبعد أيام، اتصل بي وقال إن أبو ندى سيكون عنده في البيت في الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم التالي للقائي.

وفي اليوم التالي، بدأت أعد الأولاد، جهاد ونضال، لأصحبهم معي إلى منزل الدكتور حسام الخطيب، وقد وعدت والدة الأخ حسام أن أبقى عندهم حتى المساء.

وفي هذه الأثناء، دقّ جرس الباب، إنهما أبو علي إياد وأحمد الأطرش، وجداني مستعدة للخروج، فسألوني إلى أين أنوي الذهاب، فأخبرتهم أنني ذاهبة إلى منزل الأخ حسام الخطيب، حيث سألتقي بالأخ محمد إبراهيم العلي الذي وعد أن يحمل لنا أخبارًا عن أبو جهاد وأبو عمار والإخوة الآخرين.

فقال أبو علي: "لماذا تأخذين الأولاد؟ اذهبي وحدك كي تعودي بسرعة لنطمئن. اتركي الأولاد، سوف نبقى معهم إلى أن تعودي". فأجبته: "لا، سوف آخذهم معي، وسوف أعود مساءً". وبينما نحن نتناقش الموضوع، نام ابني نضال على الأرض على مقربة مني، وكان عمره سنتين. كان نضال من أجمل الأطفال، أبيض البشرة، أشقر الشعر، له عينان عسليتان تشّعان فرحًا، وكان كثير الحركة والنشاط. قال لي أبو جهاد أكثر من مرة: "انتصار انتبهي على نضال، أخاف يومًا من فرط حركته أن يتسلق درابزين البلكونة ويقع ويموت!". كان جسدي يقشعّر لدى سماعي كلامه، فأردد: "يا لطيف! يا رب احميه لنا".

نظرت إلى نضال، فوجدته قد استغرق في النوم، فحملته ووضعته على السرير، وأمسكت بيدي ابني جهاد ونزلت الدرج. وفي منتصف الطريق، عدت إلى البيت وقرعت الجرس، فتح أبو علي إياد الباب وقال: "لماذا عدت؟". قلت له: "أريد أن أغلق باب البلكونة، أخاف أن يصحو نضال فيتسلق الدربزين!". وفعلًا، أغلقت باب البلكونة، وأنزلت الأباجور، وطلبت منهم أن يهتموا بنضال عندما يصحو.

وصلت إلى منزل الأخ حسام الخطيب، وفعلاً، كان الأخ محمد إبراهيم العلي بانتظاري، وكان يحمل لي أخبارًا سيئة للغاية؛ لقد تم نقل أبو جهاد وأبو عمار وجميع الإخوة إلى قاعدة الضمير الجوية، ويجري الآن التحقيق معهم، وسوف يُعرضون على محكمة مدنية بتهمة التحريض على قتل يوسف عرابي.

عدت إلى البيت مسرعة بعد سماعي هذه الأخبار، وعندما وصلت رأيت أبو علي إياد يحمل الصغير نضال، ويجلس هو وأحمد الأطرش على البلكونة، دخلت المنزل، ووقفنا نحن الثلاثة في غرفة الضيوف. سألاني عن الأخبار، فقلت إنها سيئة، ولا تبشر بأي أمل بالإفراج عنهم، بل على العكس، سوف يُعرضون على محكمة مدنية.

بدأ بيننا حوار ساخن حول كيفية العمل للإفراج عنهم، قال أحمد الأطرش: "السوريون لا يفهمون إلا لغة القوة، يجب أن تقوم بعمليات ضدهم!". لم يعجبني هذا الطرح، فصرخت وقلت له: "هذا كلام خطير، نحن بذلك نضع المقصلة فوق رقابهم، علينا التحرك مع الشخصيات الفلسطينية والسورية لتشكل رأي ضاغط على الحكومة السورية".

ونحن في خضم هذا النقاش، كان الصغير نضال على يد الأخ أبو علي إياد، ثم نزل إلى الأرض واحتضنني، وطلب شرب الماء. ذهبت وأحضرت له كأس ماء، فشرب الماء، وقذف بالكوب إلى الأرض فتناثر الزجاج، ثم جلس على الأرض فرحًا، وأخذ يجمع الزجاج بيديه، فحملته ونظفت يديه، ووضعته على السرير الموجود في الغرفة. أحضرت المكنسة وأخذت أجمع الزجاج المكسور، ثم عدت إلى المطبخ لرميه في سلة المهملات، لم تسقط الزجاجات بالسلة بعد، فقد تسمرت يداي عندما سمعت جرس الباب يقرع بعنف شديد، وبشكل متواصل! أسرعت إلى الباب، وإذا بأولاد الجيران يصرخون: "الحقي ابنك وقع من البلكونة!". كان الخبر كالصاعقة، لم أتمالك نفسي، أخذت أركض على الدرج، كل ثلاث أو أربع درجات معًا، وصلت إلى الدور الأرضي، وكان الباب مقفلاً، فقفز أبو علي إياد من الشارع إلى القبو الذي وقع الطفل فيه، وحمله وناولني إياه، احتضنته إلى صدري وأنا أبكي وأركض إلى الشارع العام حتى وجدنا سيارة

أوصلتنا إلى عيادة طبيب صديق لنا في المنطقة. ارتأى ضرورة نقله إلى المستشفى فورًا، فطلب لنا سيارة الإسعاف وتمنى له الشفاء.

قلبي يهوي بين أضلعي، والألم يعتصرني وأنا أنظر إلى الصغير بين ذراعي، وأناجي الله أن يشفيه ويرحمه، وأن يحميه من هذه الوقعة الأليمة. في الطريق إلى المستشفى، سيارة الإسعاف تطلق زاموروها وتسرع، وأنا أرجوه أن يسرع أكثر، والطريق تطول وتطول، إلى أن وصلنا إلى قسم الطوارئ في مستشفى المجتهد بدمشق.

تناوله الأطباء مني ووضعوه على طاولة الفحص، وبسرعة، علّقوا له المصل، وأخذوا يفحصونه، صرخ صرخة واحدة ونادى: "ماما ماما!"، ثم فارق الحياة. خرجت من المستشفى والحزن يلفني، كنت منهارة، وبكيته بحرقة. حذّرني أبو جهاد من البلكونة، ومن سقوطه عنها، وهذا ما حصل! ضاقت الدنيا بي، ماذا أفعل؟ أبو جهاد في السجن، والصغير الجميل فارقنا إلى جوار ربه، ماذا أفعل الآن؟ أريد أبو جهاد، أريده الآن إلى جانبي!

لم أتمكن من العودة إلى البيت، فذهبت مباشرة إلى منزل الصديقة سعاد العبد الله. سعاد كانت صديقتي التي عرفتها من الجزائر، وكانت تعمل في السفارة السورية هناك، وجاءت إلى سورية لتعمل في وزارة الخارجية، وتتبوأ موقعًا مهمًا في حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية. رحّبت بي كعادتها، وأدخلتني إلى غرفة الضيوف، وكان لديها بعض الزوّار، جلست معهم، ساهمة صامتة، ثم طلبت أن أتحدث إليها على انفراد.

وعندما أصبحنا لوحدنا في الغرفة الثانية، أخبرتها أن نضال قد سقط من البلكونة. كانت سعاد تحبه كثيرًا، فصرخت: "وماذا حدث له؟". قلت لها: "لقد توفي"، وأكملت: "وأنا أرجوك أن تبذلي جهدك من أجل إخراج أبو جهاد من السجن ليقوم بدفنه". فوعدتني بذلك.

عدت إلى البيت، ولكن الأخ محمود الخالدي وزوجته أصرّا على عدم بقائي وحدي في المنزل تلك الليلة، وأخذاني معهما إلى منزلهما. بعد ساعات، اتصلت

الأخت سعاد العبد الله لتخبرني أنها تحدثت مع حافظ الأسد[24]، وكان وزيرًا للدفاع حينها، وأنه وعد بالإفراج عن أبو جهاد خلال الساعات القادمة للمشاركة في دفن ولده.

الدموع تنهمر، ولهيب من النيران تجتاح جسدي، من رأسي حتى أخمص قدميّ، وأنا أفكر في فلذة كبدي، كيف حصل ذلك؟ وماذا سأقول لأبو جهاد؟

انتظرنا طويلًا تلك الليلة، ولم يصل أبو جهاد، فاقترح أصحاب البيت أن أدخل لأنام، ولكني فضّلت الانتظار، بينما ذهبوا للنوم. كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل عندما قُرع جرس الباب، ذهبت مسرعة لأفتح، فرأيت أبو جهاد. نظر إليّ وقال: "ماذا بك؟! هل أصيب جهاد بسوء؟". قلت: "لا، جهاد بخير، ولكن نضال، لقد حدث ما كنت تخشاه وتحذّر منه، لقد سقط من البلكونة، وهو في المستشفى". قال: "وكيف حالته؟". أجبته: "البقية في حياتك، لقد فقدنا صغيرنا". وهنا، احتضنني بقوة بين ذراعيه، وقال لي: "لا تحزني، إن شاء الله نعوضه يا حبيبتي. الله يرحمه".

استيقظ أهل البيت، وجلس معهم أبو جهاد، وحدّثهم عن أوضاعهم في السجن، والتحقيق معهم، وكيف أنهم تعرضوا للإهانة والتعذيب في القاعدة الجوية للطيران (الضمير)، وأبلغهم أن المجموعة المعتقلة أضربت عن الطعام منذ عشرين يومًا، وطلب من الأخت أم عماد أن تعدّ له صحن شوربة. أخذتني معها إلى المطبخ، وطلبت مني ألا أبلغه عن نضال شيئًا حتى الصباح، فقلت لها إنه عرف بالنبأ منذ وصوله، وهو رابط الجأش رغم الألم والحزن الذي يعتريه.

---

(24) حافظ علي سليمان "الأسد" (1930–2000): ولد في اللاذقية. انتسب إلى الكلية العسكرية في حمص ليتخرج فيها طيّارًا في عام 1954. تم تسريحه من الخدمة في عام 1961، ثم عاد إليها إثر سيطرة حزب البعث على الحكم في عام 1963. عُيّن قائدًا للقوات الجوية في عام 1964. شارك في حركة 23/ 2/ 1966 التي أطاحت حكم أمين الحافظ حينها. عُيّن وزيرًا للدفاع بين عامي 1966 و1969. قاد ما عُرف بالحركة التصحيحية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1970، والتي أطاحت الرئيس نور الدين الأتاسي، وتولى منصب رئاسة الحكومة السورية، ومن ثم أصبح أمينًا عامًّا لحزب البعث العربي الاشتراكي، ورئيسًا للجمهورية العربية السورية منذ مطلع عام 1971.

في صباح اليوم اللاحق، ذهب أبو جهاد إلى المستشفى، يصحبه أبو علي إياد وأحمد الأطرش وآخرون، فغسّلوا الطفل ودفنوه في إحدى المقابر في منطقة ركن الدين القريبة من منزلنا. أخبرني الإخوة في ما بعد أن أبو جهاد بكى كثيرًا وهو يودّع الصغير ويواريه تحت التراب. وفي المساء، بدأ البيت يعج بالمعزّين.

خلال العزاء، كان أبو جهاد يحدّث الإخوة عن السجن، والأسباب التي أدت إلى اعتقاله والأخ أبو عمار، وعن الحادثة التي وقعت بين يوسف عرابي ومحمد حشمة، واعتقال هذا العدد الكبير من الفتحاويين، وأكد لهم أن ما حدث كان محض صدفة، لم يخطط لها أحد، بل كان قضاءً وقدرًا. تناسينا المأساة التي حلّت بنا بفقد طفلنا، وبدأنا نفكر في ما يجب عمله لإبقاء أبو جهاد خارج السجن، وتحرير باقي الإخوة المعتقلين.

في اليوم التالي لخروج أبو جهاد من السجن، طلب زيارة وزير الدفاع السوري حافظ الأسد. اصطحبني معه، وكان لقاءً طويلًا، تحدّث فيه أبو جهاد عن الملابسات التي حصلت، واستمع الأسد مطولًا، وعلى ما يبدو أنه اقتنع بكلام أبو جهاد، ثم سأله حافظ الأسد: "ما هي الفترة التي سُمح لك بها خارج السجن؟". أجاب أبو جهاد: "ثلاثة أيام، يجب أن أعود بعدها إلى السجن". قال حافظ الأسد: "وأنا أيضًا، سأطلب لك ثلاثة أيام إضافية قبل أن تعود، وعليك أن تقابل أحمد السويداني [25] رئيس المخابرات". هاتف حافظ الأسد أحمد السويداني، وقال له: "سوف يزورك أبو جهاد غدًا، أرجو أن تستمع إليه".

وهكذا، زار أبو جهاد وزير الداخلية السوري، وعددًا آخر من الوزراء، ولم يعد إلى السجن السوري ثانية، بل بقي خارجه يجري اتصالاته مع الجزائر والسعودية للإفراج عن باقي المعتقلين.

---

(25) أحمد السويداني (1932–1994): ولد في في قرية نوى التابعة لمحافظة درعا. بعد انقلاب عام 1963، كُلّف برئاسة مديرية المخابرات السورية في عهد الرئيس أمين الحافظ، وتسلّم رئاسة الأركان العامة منذ عام 1966، وأُعفي من مهماته عام 1968. اتُهم بالمشاركة بمحاولة انقلاب في عام 1969، فاعتُقل وأُودع في سجن المزة في دمشق، وحُكم عليه بالسجن مدة 25 عامًا.

وبدأت الوفود الداعمة، والتي أتت للوساطة للإفراج عن المعتقلين، تصل من السعودية ومن الجزائر، وبعد شهر ونصف الشهر، وفي إحدى الأمسيات، وكان في زيارتنا الأخ محمد يوسف النجار وزوجته أم يوسف، وإذ بالباب يقرع، إنه الأخ أبو عمار وجميع الإخوة المعتقلين معه، ما عدا الإخوة عبد الكريم العكلوك، وزكريا عبد الرحيم، وعبد المجيد الزغموت الذين عُرضوا على محكمة عسكرية في ما بعد.

وبذلك انتهت رحلة عذاب استمرت أكثر من ثلاثة أشهر ونصف الشهر. خرج أبو عمار وإخوانه من السجن، ولكن بشرط ألا يبقى في الأراضي السورية، وطُلب منه المغادرة فورًا.

قرر أبو عمار أن يغادر متوجهًا إلى الأراضي اللبنانية على رأس مجموعة من الفدائيين، ويتوجه معهم إلى الجنوب اللبناني، للنزول بدورية خلف خطوط العدو. رافقه في الدورية نحو خمسة عشر مقاتلًا، كان من بينهم أبو علي إياد، وسعيد محاد (مخيم اليرموك)، وخالد أبو العلا (مخيم اليرموك)، وسعيد الشرعان أبو جمال الشوف (مخيم اليرموك)، والشهيد مصباح عبد الحق (مخيم اليرموك)، ومصطفى الصالح (أبو محمود الخوري) (مخيم اليرموك)، وأبو بسام (الضفة الغربية)، ومنير (الضفة الغربية)، والشيخ صبري (الضفة الغربية)، وأبو علي شمدين (مخيم اليرموك)، وشعبان الشاعر (مخيم اليرموك)، وحسين الهيبي[26] (مخيم السيدة زينب)، ونعيم وشاح[27] تحركت المجموعة تحت جنح الظلام، ووصلوا إلى الجنوب اللبناني، وكان دليلهم أحد الإخوة اللبنانيين، أوصلهم إلى إحدى المغارات ليكمنوا فيها، وذهب لإحضار بعض الطعام لهم.

---

(26) حسين حسن الهيبي (1925-1987): ولد في قرية طوبا قضاء صفد. شارك في معارك حرب 1947-1949. بعد الهزيمة، لجأ وعائلته إلى سورية، والتحق بالجيش السوري، ثم التحق بحركة فتح، وشارك، مع أبو عمار ومجموعة من الفدائيين، في عمليات عسكرية في جنوب لبنان منذ عام 1966. اغتيل في 11/ 6/ 1987 في مدينة صيدا.

(27) نعيم وشاح (عبد الحميد) (1940-1976): ولد في قرية إجزم قضاء حيفا. هُجّرت عائلته، بعد نكبة عام 1948، إلى شمال الأردن. التحق بحركة فتح في عام 1964، وعُين قائدًا لكتيبة نسور العرقوب في جنوب لبنان. انتُخب عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح في عام 1971. توجه إلى فيتنام، في عام 1975، لتلقي دورة عسكرية. اختفى في عرض البحر في 20 تموز/ يوليو أثناء توجهه إلى طرابلس رفقة حنا ميخائيل (أبو عمر)، وأبو الوفا (جودت المصري).

عندما عاد، كانت قوات من الجيش اللبناني قد حاصرت الموقع واعتقلتهم جميعًا، واقتادتهم إلى ثكنة الحلو للتحقيق. أثناء التحقيق معهم، اعترفوا أن قائد المجموعة هو الأخ (أبو محمد)، وهو الاسم الحركي لأبو عمار في ذلك الوقت[28]. عندما علم أبو جهاد باعتقالهم، أجرى اتصالات مكثفة مع شخصيات لبنانية وعربية للتدخل من أجل الإفراج عن أبي عمار والمجموعة. وقد تم الإفراج عنهم بعد حوالى شهر بتدخل من رئيس المخابرات العسكرية السورية أحمد السويداني، وعاد أبو عمار والمجموعة إلى دمشق بعد أن سمحت له السلطات السورية بذلك، ليتابع عمله من جديد.

---

(28) يذكر صلاح خلف أنه، بعد حادثة مقتل يوسف عرابي ومحمد حشمة، تقرر تجميد عضوية ياسر عرفات، لكن الأخير لم يلتزم بالقرار، واقترح أن يتولى تنفيذ عملية فدائية، فوافقوا على ذلك، فتوجه إلى الحدود الإسرائيلية - اللبنانية، ورافقه أبو علي إياد وعدد من الفدائيين، لكن العملية فشلت، واعتُقل أبو عمار ومن معه. حقق مع المجموعة ضابطان لبنانيان هما سامي الخطيب وفريد أبو مرعي، وخلال التحقيق، ادعى أبو عمّار أنه أومباشي في الجيش المصري، وأنه مبعوث لتنفيذ مهمات استطلاعية بالتعاون مع المخابرات السورية. وعلى الرغم من أن المخابرات اللبنانية تمكنت من معرفة الاسم الحقيقي لياسر عرفات، فإنهم لم يعرفوا أنه عضو في اللجنة المركزية لحركة فتح. يُنظر: "تسجيل صوتي لصلاح خلف"، محفوظ في أرشيف المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. ملف رقم: 79-2 : Tape 3, Side 1.

الفصل الرابع

مواجهات وحروب

حرب حزيران/ يونيو؛ النكسة

في 4 حزيران/ يونيو 1967، وفي أولى ساعات العدوان الإسرائيلي، أعلنت الحكومة السورية إغلاق أراضيها برًا وبحرًا وجوًا. كان أبو جهاد حينها في مهمة إلى سويسرا (جنيف)، لمقابلة جلالة الملك فيصل، ملك المملكة العربية السعودية، وخلال ذلك اللقاء، وعد جلالة الملك فيصل بدعم حركة فتح ومنحها عشرة ملايين دولار، حيث كان هذا أول وأكبر مبلغ يصل الحركة حتى ذلك الوقت[1].

وقد تم ترتيب لقاء الملك فيصل مع أبو جهاد بوساطة الأخ فهد المارك[2]، وهو سعودي الجنسية، وقد عمل مستشارًا لدى الملك فيصل، وكان مقيمًا في سورية، كما كان صديقًا مقربًا لحركة فتح ولأبو جهاد وأبو عمار، وقد كان فهد المارك يتبرع من ماله الخاص لدعم الحركة وتغطية العديد من الاحتياجات.

كنت في داخلي أشعر بنوع من الراحة لغياب أبو جهاد بعيدًا عن الحرب، حرصًا مني على سلامته. ومنذ بدايتها، تطوعت مع عدد من الأخوات في الاتحاد العام النسائي السوري للمساعدة، وجلسنا نقص الشاش لنعدّه للجرحى بأحجام مختلفة، كما طلبت من بعض أخواتنا الحضور إلى مقر الاتحاد للمساعدة.

---

(1) في 5 حزيران/ يونيو عام 1967، كان خليل الوزير في زيارة للاتحاد العام لطلبة فلسطين في ألمانيا الغربية، بهدف الاطلاع على أوضاع التنظيم، واستكشاف إمكانيات شراء الأسلحة ونقلها إلى حركة فتح، وعندما سمع خبر اندلاع الحرب، عاد إلى المنطقة في اليوم نفسه. يُنظر: زياد أبو عمرو، **خليل الوزير أبو جهاد** (عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2013)، ص 46.

(2) فهد بن مارق بن عبد العزيز (1910-1978): ولد في حائل. التحق بمدرسة دار التوحيد في الطائف وتخرج فيها. شارك في حرب فلسطين 1947-1949. عمل في وزارة الخارجية السعودية، وعُرف بفهد المارك.

عدت مساءً إلى المنزل، ووجدت الجارة تقف بباب منزلها، ولمحت قرب الباب حقيبة أبو جهاد وسترته، قلت في نفسي: هل يُعقل أنه عاد؟ وكيف عاد؟ عندها قالت لي الجارة: "لقد حضر أبو جهاد قبل قليل ولم يجدك في المنزل، فترك حقيبته والسترة عندي وخرج".

علمت في ما بعد أن أبو جهاد كان قد ذهب إلى الجولان فور وصوله إلى الأراضي السورية، ولم أرَه، ولم نلتقِ إلا بعد وقف إطلاق النار. أخبرني لاحقًا أنه، بعد بدء العدوان، وهو في سويسرا، ركب الطائرة من جنيف إلى تركيا، والتقى، صدفة، وزير الخارجية السوري إبراهيم ماخوس[3]، وعادا معًا إلى الأراضي السورية برًّا.

كانت الصدمة قاسية عندما أُعلن سقوط الجولان السوري، فقد دارت هناك معارك طاحنة استبسل فيها الجنود السوريون، والكتيبة الفلسطينية التي كانت حينها في تل الفرس، حيث سقط العديد من ضباطها وجنودها بين شهداء وجرحى. كان الجرحى يُنقلون إلى المشافي في العاصمة، وكنا نزورهم في المستشفيات، ونساعد في إطعامهم، ورعايتهم، والعناية بهم.

بعد انتهاء العدوان، كانت الهزيمة قاسية، وعمّ اليأس أبناء الشعوب العربية، ومنها الشعب الفلسطيني الذي فقد الأمل بالأنظمة العربية وجيوشها لتحرير فلسطين، في الوقت الذي قررت فيه حركة فتح وقيادة قوات العاصفة رفض الهزيمة والاستسلام، وبدأت العمل على انطلاقة جديدة، تعطي شعبنا الأمل بالحرية من خلال تحرير الأرض بالكفاح المسلح، لتحرير كامل التراب الفلسطيني المحتل.

عقدت اللجنة المركزية لحركة فتح اجتماعات مستمرة مع الكوادر الحركية، وأعضاء المجلس الثوري لمناقشة الخطوات اللاحقة. تساؤلات كثيرة طُرحت في الاجتماعات: هل نقبل بالنكسة ونستسلم للهزيمة؟ هل هُزمنا نحن، أم الأنظمة العربية هي التي هُزمت؟ وكان التساؤل الأبرز: ماذا علينا أن نفعل؟

(3) إبراهيم ماخوس (1925–2013): ولد في اللاذقية. عُيّن وزيرًا للخارجية السورية في عام 1961.

كان النقاش بين القيادة والكوادر الحركية يتمحور حول آلية تطوير الكفاح المسلح واستمراريته، بهدف منح الشعوب العربية التي أُحبطت بفعل الهزيمة دفعة جديدة من الأمل، وكان القرار أن نجدد الانطلاقة. وأول ما بدأت به قوات العاصفة، إرسال دوريات إلى الجولان، هدفها جمع الأسلحة المنتشرة من بقايا الجيش وتخزينها استعداداً للمعركة القادمة.

كانت فتح تسعى لتحقيق الانطلاقة الثانية من خلال وضع آلية عمل داخلية لتعزز من الكفاح المسلح، من ناحية، وحشد الدعم، من ناحية أخرى، وتهيئة الأجواء، والحصول على تأييد للعمل خاصة من مصر وسورية والعراق. وفعلاً، أرسلت اللجنة المركزية مبعوثين إلى تلك الدول.

في إثر النكسة، وازدياد أعداد الشهداء والجرحى، وبينما كنت رئيسة لجنة رعاية عائلات الشهداء والجرحى والأسرى في حركة فتح، حضر الأخ محمود عباس من قطر، ودعاني إلى حضور اجتماع حضره عدد من كوادر الحركة، وبعض الشخصيات الفلسطينية المستقلة. طرح الأخ محمود عباس خلال الاجتماع فكرة تأسيس جمعية خيرية في سورية، تحمل اسم "جمعية رعاية مجاهدي وشهداء فلسطين"، لتكون العنوان لتقديم المساعدات لعائلات الشهداء والجرحى والأسرى. وبالفعل، تم إنشاء الجمعية تحت رقم 877 بتاريخ 28 أيلول/ سبتمبر 1967، كما تم انتخاب مجلس إدارة لها برئاسة الأخ سعيد عزيز، وعضوية آخرين كنت من ضمنهم.

كان من أهم أهداف الجمعية رعاية عائلات الشهداء، وتعليم أبنائهم في المراحل التعليمية كافة. بدأنا الإعداد لإنشاء مدينة تعليمية لأبناء الشهداء، وبذلنا جهودًا كبيرة لتأمين الموارد المالية من خلال إرسال وفود إلى الدول العربية لطلب الدعم، بعد توفير قطعة أرض في منطقة عدرا قرب دمشق. وقد شاركت ضمن وفد زار كلًا من الكويت وقطر والبحرين والإمارات العربية. وقد اقترحنا على رؤساء تلك الدول المساهمة في بناء المدينة التعليمية، فتبنّت كل دولة منهم إقامة جناح باسمها داخلها. كما تبنّت بعض الدول الإسلامية بناء

مبانٍ تعليمية وسكنية، واستمر التحضير لبناء المدينة التعليمية أعوامًا عدة. وفي 12 كانون الأول/ ديسمبر 1974، وضع حافظ الأسد حجر الأساس للمدينة التعليمية، بحضور الأخ أبو عمار والقيادة الفلسطينية.

في يوم الأحد، 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1967، توجّه أبو جهاد إلى لبنان، وركب الطائرة في اليوم نفسه إلى بغداد. وفي صباح اليوم التالي، قابل السيد إسماعيل خير الله[4]، وزير الدولة لشؤون الرئاسة، ووزير الخارجية العراقي بالوكالة، ودار الحديث حول موضوع تطورات الموقف الفلسطيني، وطبيعة عملنا، والظروف الجديدة التي نواجهها، وحاجتنا إلى السلاح والعتاد. وهنا سأله السيد إسماعيل خير الله إن كان قد وصلنا أي شيء من السلاح الذي قدموه إلى فصائل فلسطينية أخرى، فأجابه أبو جهاد بالنفي، قائلًا: "لم يصلنا شيء، ولكننا الآن في هذه المرحلة بحاجة إلى السلاح". فقال إسماعيل خير الله: "لقد ذكر لي وديع حداد[5] أنكم تعملون معًا، هو وباسل الكبيسي[6]. على كلٍ، سوف أراجع الموضوع".

كما التقى أبو جهاد، خلال تلك الزيارة، وزير الدفاع العراقي، ورئيس مكتب حركات التحرر وصفي عبد الرحمن، وغيره. رُتب لقاء مع الرئيس

(4) إسماعيل خير الله: ولد في بغداد. تخرج في كلية الحقوق عام 1951. شغل منصب وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية، ثم وزير الخارجية بالوكالة بين عامي 1967 و1968.

(5) وديع إلياس حداد (1927-1978): ولد في صفد، وفيها تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي، ثم التحق بكلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت. ساهم في تأسيس حركة القوميين العرب، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. عمل طبيبًا في الأردن، واعتُقل بعد أحداث نيسان/ أبريل 1957 في الأردن. بعد هزيمة حزيران/ يونيو 1967، كان أحد أبرز قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وتولى مسؤولية العمل العسكري الخارجي للجبهة الذي نفذ سلسلة من العمليات ضد مصالح إسرائيلية وغربية.

(6) باسل الكبيسي (1934-1973): ولد في مدينة بغداد، وتلقى تعليمه الأساسي فيها، ثم التحق بالجامعة الأميركية ببيروت عام 1951، ولكنه فُصل من الجامعة، إثر مشاركته في مظاهرات طلابية استنكارًا لإعلان قيام الحلف التركي - الباكستاني في شباط/ فبراير عام 1954، فسافر إلى أميركا وأتم فيها دراسته الجامعية، ثم عاد إلى العراق وساهم في تأسيس فرع حركة القوميين العرب هناك. تولى رئاسة تحرير مجلة الوحدة الناطقة بلسان الحركة في العراق عام 1963، وتولى مسؤوليات عدة في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. اغتيل في باريس في 6/ 4/ 1973.

العراقي عبد الرحمن عارف قبل مغادرته. وخلال لقاء الرئيس العراقي، نقل إليه أبو جهاد تحيات المناضلين الفلسطينيين، وقدّم عرضًا موجزًا للمرحلة الحالية، واستعداد حركة فتح للكفاح، وضرورة اشتعال المقاومة بعد النكسة. كما أكدّ له أبو جهاد حرص حركة فتح على لقائه، باعتباره مواطنًا عربيًا قوميًا، ومناضلًا عسكريًا، وأكد على ثقة الحركة بدعم العراق لها في المرحلة القادمة. وأضاف أبو جهاد أن الحركة استطاعت القيام بعملها بجهد ذاتي وإمكانات متواضعة، وحاولت أن تؤدي دورها خلال المعركة، وقامت بما استطاعت خلال الحرب. أما المرحلة القادمة، فتحتاج إلى حرب عصابات تتسع لتصبح حربًا تحريرية حقيقية. وقال إن تنظيمنا موجود، وهو متسع ومنتشر، وكل ما نحتاج إليه هو أن نقذف بأكبر كمية من السلاح، وأكثر ما يمكن من الدعم لنجعل احتلال الأعداء لفلسطين جحيمًا، وليكن شعارنا الحقيقي: "إن دخل الأعداء أرضنا، فمن العار أن ندعهم يخرجون أحياء". كما أكدّ له أبو جهاد ثقة شعبنا، وثقة حركتنا، أن العراق يستطيع أن يقدم لنا الكثير.

وأكدّ حينها الرئيس العراقي على أن القوات العراقية كانت مستعدة للقتال، وقد تحركت فيالقها ودخلت الأراضي الأردنية، إلا أنّه، فور وصولها، أُعلن وقف إطلاق النار. كما أكد استعداده واستعداد العراق لتقديم أشكال الدعم للمقاومة الفلسطينية.

وفي تلك الفترة، توجه أبو عمّار أيضًا للقاء الرئيس المصري جمال عبد الناصر، لوضعه في صورة العمل العسكري، واستمرار الكفاح المسلح، وطلب الدعم والمساندة[7]. كما توجه وفد من اللجنة المركزية لحركة فتح للقاء حافظ الأسد.

---

(7) قبل هذه الزيارة، كان صلاح خلف وفاروق القدومي قد توجها إلى مصر، فالتقيا أولًا محمد حسنين هيكل، ثم جمال عبد الناصر الذي استقبلهم بحفاوة، وقد أجابوا، خلال اللقاء، عن جميع استفسارات عبد الناصر حول تنظيم فتح، وحول معركة الكرامة، وفي نهاية اللقاء الذي استمر مدة خمس ساعات، قبل الرئيس عبد الناصر بإقامة علاقات مباشرة مع الحركة، وقدّم لهم مبلغًا رمزيًا، ووعد بتزويدهم بالسلاح، وتدريب عناصرهم. يُنظر: "مقابلات إريك رولو مع صلاح خلف"، تسجيل رقم: 7-B؛ مقالة لصلاح خلف بعنوان 'قال لنا عبد الناصر: أمرت بتعويض خسائركم من مخازن الجيش المصري'"، مجلة روز اليوسف، العدد 2208، السنة الخامسة والأربعون، =

صدرت التعليمات لكوادر فتح في قطاع غزة وسورية للعمل على جمع السلاح وتخزينه من الجبهة المصرية في سيناء، وكذلك من الجبهة السورية في الجولان، وطلب استعداد جميع قواعد الحركة للعمل العسكري. كان همّ الحركة، في حينه، مسح آثار النكسة، واستعادة الروح المعنوية، وشحذ الهمم، فدُعي أبناء الحركة في خارج فلسطين، من الذين يستطيعون العودة إلى الداخل، العودة أفرادًا ومجموعات صغيرة، في دوريات عن طريق نهر الأردن، والعمل على إعادة من نزحوا إلى الأردن أثناء الحرب للعودة إلى مدنهم وقراهم، إن أمكن. كانت التعليمات للكوادر صارمة، وكان الالتزام قويًا.

بدأت الدوريات المسلحة بالتسلل من سورية إلى الأردن، ثم إلى الضفة الغربية، وأذكر كيف كان المقاتلون يحملون صناديق السلاح على أكتافهم، ويسيرون مسافات طويلة، وبسرية تامة. أذكر منهم ممدوح صيدم (أبو صبري)، وأبو علي إياد، وحمدان عاشور، وأبو إبراهيم عبود[8]، وغيرهم الكثير. وقد سهّل مهمتهم، قائد القوات العراقية المتمركزة في مدينة المفرق الأردنية، حيث كان، بمجرد وصولهم، يعطيهم ملابس الجيش العراقي للتمويه، وينقلهم بسيارات الجيش العراقي إلى القواعد التي بدأت تنتشر في الكرامة، على طول الحدود مع فلسطين، وقد ساهم ذلك في ازدياد وتيرة عمل الدوريات وتسللها إلى فلسطين بشكل كبير.

قررت اللجنة المركزية ضرورة وجود أحد أعضائها لقيادة العمل الميداني داخل الأرض المحتلة، عندها، تطوع أبو جهاد للقيام بالمهمة، ووافقت اللجنة

= 5 أكتوبر 1970، أرشيف صلاح خلف المحفوظ في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ملف رقم: 6-13.

(8) محمد إبراهيم أبو خليل (عبود أبو إبراهيم) (1932-2008): ولد في قرية أم الزينات في حيفا. هُجّرت عائلته إلى مخيم جنين. انضم إلى حركة فتح في بداية عام 1965. عمل بعد عام 1967 في القطاع الجنوبي لحركة فتح في الأردن، ثم انتقل إلى قطاع الجولان. أُرسل إلى دورة قادة كتائب إلى الاتحاد السوفياتي عام 1978. عُيّن نائبًا لقائد قوات الميليشيا في الساحة اللبنانية عام 1980. وأثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 عُيّن قائدًا لمنطقة الجبل. بعد العودة إلى فلسطين، عُيّن نائبًا لمدير الشرطة الفلسطينية حتى إحالته إلى التقاعد عام 2005.

المركزية على ذلك، إلا أن الأخ أبو عمار أَصَرَّ أن يقوم هو بذلك. وبالفعل، تسلل أبو عمار إلى داخل فلسطين في دورية مع عدد من الإخوة، ومنهم: أبو علي شاهين[9]، وعبد الحميد القدسي[10] (أبو ثائر)[11].

تعزز العمل العسكري انطلاقًا من الساحة الأردنية على طول الحدود مع الأراضي الفلسطينية. ساهم ذلك في تمكين الدوريات العسكرية والمجموعات من الدخول إلى الأراضي المحتلة، وتنفيذ العمليات النوعية. سقط منا شهداء وجرحى وأسرى، وفي بعض الأحيان، استطاع بعض الفدائيين العودة بسلام.

كما انتقل أبو جهاد إلى الأردن لبناء قاعدة ارتكازية، هدفها تزويد قوات العاصفة في الداخل بالسّلاح، ورفدها بالكوادر المقاتلة، وكانت عملية بناء هذه القاعدة الارتكازية من أهم ما قامت به فتح في تلك المرحلة، وذلك استعدادًا لانطلاقتها الثانية، حيث انتشرت قواعد فتح على طول الحدود الأردنية مع فلسطين المحتلة، وأصبحت هذه القواعد ركيزة أساسية لتدريب المقاتلين، وتسليحهم، وإرسالهم في دوريات إلى داخل حدود الأراضي المحتلة.

في جنح الظلام، كان الفدائيون يحملون الأسلحة على أكتافهم ويسيرون

(9) عبد العزيز علي شاهين (أبو علي شاهين) (1941–2013): ولد في قرية بشيت قضاء مدينة الرملة. تلقى تعليمه الأساسي والثانوي في غزة. انضمّ إلى حركة فتح عام 1962، أثناء عمله في دولة قطر. شارك في دورة عسكرية في معسكر الهامة في مدينة دمشق، ثم انتقل من هناك إلى فلسطين بعد حرب حزيران/ يونيو عام 1967 ليشارك في تكوين الخلايا العسكرية التابعة لحركة فتح في مدن الضفة الغربية. اعتقلته قوات الاحتلال الصهيوني بين عامي 1967 و1982. انتقل ليعمل في الساحة اللبنانية بين عامي 1986 و1987. انْتُخب عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح في عام 1989. عاد إلى قطاع غزة، عقب اتفاق أوسلو، في عام 1995. عُيّن وزيرًا للتموين بين عامي 1996 و2003، وانْتُخب عضوًا في المجلس التشريعي الفلسطيني بين عامي 1996 و2006.

(10) عبد الحميد القدسي: ولد في يافا. هُجّر وعائلته إلى غزة بعد عام 1948، ومن ثم انتقل إلى الأردن حيث درس وعمل. اعتُقل في السجون الأردنية، وفور الإفراج عنه اتجه إلى الحدود متسللًا، وبإيعاز من الحركة قام بتشكيل قواعد ارتكاز لاستقبال التجهيزات والسلاح. وشارك في عمليات عسكرية عدة في فلسطين وسورية.

(11) والبقية هم: أبو علي المدني، وعبد الإله الأتيري، وأحمد قمحية، ومحمود أبو راشد، ومازن أبو غزالة، وممدوح صيدم، وعمر أبو ليلى، ومنصور أبو دامس، وعبد الله السوري، ومحمد علي عمران.

مسافة طويلة قبل أن يصلوا نهر الأردن. كانوا يواجهون ارتفاع المياه في النهر، على نحو يعيق حركتهم، وقد أدى ذلك أحيانًا إلى عودتهم إلى القواعد، أو غرق بعضهم، ممن لا يعرفون السباحة. وكانوا أحيانًا يُفاجَؤون بدورية إسرائيلية تطلق عليهم نيران رشاشاتها، فيشتبكون معها، فيستشهد من يستشهد، وتصل باقي المجموعة إلى اليابسة دون توقف، وكان دائمًا مع هذه المجموعات دليل يسير أمامهم، يرشدهم إلى المواقع الآمنة ليكمنوا فيها.

كان أبو جهاد يتمركز في القواعد الارتكازية في الأردن فترات طويلة قد تبلغ أشهرًا متلاحقة، وبقيت أنا والأولاد في دمشق. وأحيانًا، كان أبو جهاد يصل دمشق فجأة ليجدني في مَهمّة في حلب، أو حمص، أو حماة، أو في قيادة أحد معسكرات تدريب الفتيات، وأحيانًا كان يعود إلى الأردن دون أن نلتقي.

كان أبو جهاد وأبو عمار على تواصل دائم من خلال الرسائل التي يتم تهريبها مع الدوريات العائدة من الضفة الغربية إلى الأردن. ونحن نتابع أخبار الوضع التنظيمي وأخبار أبو عمار، ونسمع بقلق عن ملاحقة قوات الاحتلال الإسرائيلي له خلال مكوثه في الضفة الغربية أشهرًا عدة.

وفي أحد الأيام، كان أبو جهاد قد عاد إلى دمشق، وبينما كنا نستمع إلى إحدى نشرات الأخبار ليلًا، جاء الخبر عبر المذياع أن جنود الاحتلال ألقوا القبض على أحد "المخربين"، واسمه أبو محمد. انتابنا القلق أن يكون المعتقل هو أبو عمّار، ولكن بعد يومين، وفي حوالي الساعة الرابعة فجرًا، طُرق باب بيتنا، وعندما فتحت الباب، وجدت أمامي رجلًا متنكرًا بهيئة راعي أغنام يضع على رأسه حطة، ولحيته طويلة، وبعد أن رفع الحطة عن وجهه، وإذ به أبو عمار!

جلسنا، أبو عمار وأبو جهاد وأنا، حتى ساعات الصباح، وهو يحدثنا عن الأوضاع في الأرض المحتلة وملاحقة قوات الاحتلال له، والمحاولات التي كانت في بعض الأحيان قد تؤدي إلى القبض عليه أكثر من مرة.

في 28 شباط/ فبراير 1967، في معسكر الهامة السوري، كان الأخ منهل شديد يدرّب ثلاثة من الشباب المناضلين على المتفجرات، وكان أبو علي إياد والأخ أحمد الأطرش يجلسان تحت إحدى الأشجار على مقربة منهم، وفجأة،

انفجرت العبوة التي كان يدربهم عليها، واستشهد منهل شديد، وأحمد الأطرش، والشبان الثلاثة، وأُصيب أبو علي إياد إصابة بالغة في عينه أفقدته إياها، كما أُصيب في ساقه. شكّل هذا الحادث الأليم ضربة قاسية للحركة، بفقدها هؤلاء المناضلين.

في 3 أيلول/ سبتمبر 1967، رزقنا الله بطفلنا الثالث، ليعوضنا عن فقدان ابننا نضال، شعرت يومها بأعراض الولادة، وكنت وحيدة في المنزل، ولم يكن أبو جهاد في البيت، ولم نتمكن من الاتصال به، فذهبت إلى المستشفى وحدي لأضع مولودي. عندما وصله الخبر السعيد، جاء فورًا إلى المستشفى، رفقة الأخ ياسر عرفات. أحضرت الممرضة الطفل، فأذّن أبو جهاد في أذنه، ثم حمله أبو عمار وقال: "ماذا ستسميه يا أبو جهاد؟". فقال أبو جهاد: "إنه باسم، باسم، رغم النكسة". كعادته، كان أبو جهاد يعطينا دائمًا الأمل والتفاؤل.

معركة الكرامة

توالت الأخبار والمعلومات عن حشود للجيش الإسرائيلي حول نهر الأردن، في محاولة للقضاء على قواعد الفدائيين في الغور. كان معظم قادة فتح في بلدة الكرامة؛ أبو عمار، وأبو جهاد، وفاروق القدّومي، وصلاح خلف، وممدوح صيدم، إضافة إلى العديد من كوادر الحركة. وكان الجميع يتابع بكل جدية واهتمام وقلق هذه الحشود، وقد شهدت أيام ما قبل المعركة نقاشًا طويلًا ومعمقًا داخل الحركة، وكذلك مع باقي الفصائل الفلسطينية الموجودة في قواعدها في المنطقة. كانت النقاشات تدور حول مواجهة العدو، وطرح بعض الحاضرين تساؤلًا: هل نواجه العدو أم ننحني للعاصفة؟ كان بعضهم يردد مقولة ماو تسي تونغ الشهيرة: "الفدائي مثل عود الخيزران، ينحني للرياح عند العاصفة، ثم يعود وينتصب من جديد". في محاولة للتأثير في القرار وعدم المواجهة.

إلا أنّ حركة فتح قررت خوض المعركة، وأخذت تحاور الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، لإقناعهم بالمشاركة في مواجهة "الجيش الذي لا يُقهر"، ولكنهم تمسكوا بمقولة الزعيم الصيني، وانسحبوا من المواقع التي كانوا فيها قبل المعركة[12].

(12) كان أحمد جبريل في ذلك الوقت القائد العسكري للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

كان وزير الدفاع الإسرائيلي، موشيه ديان، قد صرّح للصحافيين، وأمام حشود جيشه: "أن الفدائيين كالبيضة في يدي؛ عندما أغلقها أسحقهم، وغدًا سترون ذلك!". إلا أن هذه التصريحات زادت الفدائيين تحدّيًا وإصرارًا، كان القرار بالمواجهة؛ فإما أن نكون أو لا نكون.

في ليلة المعركة، كانت القيادة قد قررت إرسال أبو جهاد إلى سورية للحصول على مزيد من السلاح. وصل أبو جهاد إلى دمشق، وقابل المسؤولين، ثم عاد مسرعًا إلى الكرامة، وفي فجر يوم 21 آذار/ مارس 1968، بدأ زحف قوات العدو من محاور عدة، فواجه المقاتلون من قوات العاصفة وقوات التحرير الشعبية والجيش العربي الأردني قوات العدو التي تقدمت في محاور عدة، واستطاع المقاتلون، والجيش العربي (الأردني)، وقف تقدم العدو، ودفعه إلى الانسحاب من أرض المعركة بعد أن مُني بخسائر جسيمة، مخلفًا وراءه عددًا من دباباته وآلياته في أرض المعركة.

كنت في دمشق أتابع أخبار المعركة بقلق، فقررت أن أتوجه إلى نادي فتيات فلسطين في مخيم اليرموك، حيث وجدت الأخوات يتابعن الأخبار مثلي بقلق شديد، فقررنا أن نُعِدّ فريق تمريض ليذهب إلى الأردن للمشاركة في المعركة، وكنا 21 امرأة. ذهبنا إلى معسكر الهامة، وطلبت إلى الأخ أبو علي إياد أن يؤمّن نقلنا إلى الأردن لنقوم بإسعاف جرحى المعركة.

قبل سفري بأيام، جاءت لزيارتي إحدى قريبات أبو جهاد، وكنت أتعرف إليها أول مرة. رحّبت بها في منزلي، وعندما قررنا الذهاب إلى الكرامة، طلبت منها رعاية الأولاد إلى حين عودتي. وافقت السيدة وأخذت الأولاد، حيث كان عمر ابني جهاد خمسة أعوام تقريبًا، وباسم ستة أشهر.

غادرنا إلى الأردن، أنا ومجموعة من الأخوات، منهن لوسيا حجازي، ونبيلة النمر (أم اللطف)، وجميلة صيدم، ومريم الأطرش، وعدوية الدّجاني، وسهام أبو النور، وزندة الخالدي، وأخريات. عند وصولنا الحدود الأردنية، سمحت لنا السلطات الأردنية بالدخول إلى الأردن بورقة إجازة من حركة فتح، تخوّلنا المرور بلا جوازات سفر.

وصلنا منطقة السلط، ولكن لم يُسمح لنا بالتقدم، ولم نتمكن من الوصول إلى مواقع المعركة، ولكننا تمكنا، في اليوم التالي، من الوصول إلى الكرامة بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي، وقد ترك دباباته المحترقة في أرض المعركة، وصلنا بينما النيران لا تزال مشتعلة في العديد من المنازل، والكثير منها مدمر. لقد كان يومًا مشهودًا.

كان استبسال الشباب المقاتلين، واستخدام التكتيك العسكري، والالتزام بالخطة والتعليمات التي أُعطيت لهم، كبيرًا. كانت المقاومة باسلة، حيث ألقى العديد من الفدائيين أنفسهم بالأحزمة الناسفة على الدبابات. أعلنت حينها القيادة استشهاد خمسة وعشرين شهيدًا، وأخفت العدد الحقيقي للشهداء، حيث وصل عددهم إلى خمسة وتسعين شهيدًا. ولكن الرغم من الخسارة الكبيرة، شهد العالم، أول مرة، هزيمة الجيش الإسرائيلي الذي سُمي بـ"الجيش الذي لا يقهر"، بعد انتصاره في حرب حزيران/ يونيو، وهزيمته ثلاث جيوش عربية في عام 1967.

توزعت مجموعتنا على المستشفيات لرعاية الجرحى الذين اختلفت خطورة إصاباتهم، فهناك من أُصيب برأسه، ممن دخل في غيبوبة، وهناك من فقد أحد أطرافه. استمرت الفتيات بالاهتمام بالجرحى ورعايتهم فترة من الوقت، إلى أن نُقل المصابون بسيارات الإسعاف إلى دمشق.

فقدت فتح خيرة مناضليها، وكل ما كان لديها في مستودعاتها من مواد تموينية وأسلحة في هذه المعركة، ولكن الانتصار على العدو الإسرائيلي ترك أثرًا إيجابيًا كبيرًا عند الجماهير العربية التي أخذت تقدّم الدعم والمساعدة للفدائيين، فوصلت قوافل المساعدات، من مواد تموينية وطبية. كما وصل آلاف المتطوعين من فلسطين والدول العربية للانضمام إلى الثورة الفلسطينية.

هذا المد البشري الذي انضم إلى الثورة، طرح إشكالية جديدة أمام قيادة الحركة، فحتى الآن، كان تنظيم فتح تنظيمًا طلائعيًا، يعتمد على نخبة مختارة من المناضلين للكفاح المسلح، وكانت هيكلية فتح هيكلية صارمة بهذا الخصوص. هذا الالتفاف الجماهيري وضع الحركة أمام سؤال مهم: هل نقبل هؤلاء المتطوعين دون مرورهم بالهيكل التنظيمي، أم نرفضهم؟ وكيف ستستوعب الحركة هذه الأعداد ضمن هياكلها؟

كان القرار أن تستوعب حركة فتح المتطوعين، بحيث تخضعهم للتدريب، ومن خلال التدريب، تتم عملية الانتقاء؛ يبقى من يتخطى التدريبات، ويغادر من لا يستطيع. وكان هذا التوجه يعكس، للمرة الأولى منذ تأسيس الحركة، نهج عمل فرضه الواقع الجديد بعد النصر، وكان أول اختراق للنظرية التنظيمية لحركة فتح.

كما فتح الانتصار في معركة الكرامة أبواب الدول العربية لدعم العمل الفدائي، وعزّز وجود المقاومة المسلحة على الشريط الحدودي، وبدء حوار جدّي مع الحكومة الأردنية بعد أن تكثّف وجود الفدائيين الفلسطينيين على الساحة الأردنية.

أما بالنسبة إلى الجيش الإسرائيلي الذي مُني بهزيمة مدوية أمام المجموعات الفدائية والجيش الأردني، فقد أجاب وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان، عندما سأله الصحافيون عن معركة الكرامة، وعن الهزيمة التي لحقت بجيشه: "من يدخل يده في عش الدبابير سوف تلسعه".

بعد المعركة، ازداد انشغال القيادة أمام المسؤوليات والتحديات الكبيرة التي استجدت؛ من إعادة التنظيم والتسليح، وفتح معسكرات التدريب، والإشراف عليها، واستيعاب المتطوعين، الأمر الذي حتّم على القيادة تكثيف وجودها في الساحة الأردنية، فتبقّى هناك كل من أبو جهاد، وأبو عمار، وأبو اللطف (فاروق القدومي)، وأبو إياد (صلاح خلف)، وأبو ماهر (محمد غنيم)، وأبو صبري (ممدوح صيدم). وفي 15 نيسان/ أبريل 1968، عُيّن ياسر عرفات ناطقًا رسميًّا باسم حركة فتح والعاصفة.

كان خليل يغيب أشهرًا لا نلتقي فيها، وعندما يتمكّن من العودة إلى دمشق بضعة أيام، يعج بيتنا بالمراجعين، والعسكريين، والسياسيين من أبناء الحركة، ليتزودوا بالموقف السياسي والعسكري، ولحل قضاياهم، ومتابعة تعليمات العمل. كنت دائمًا إلى جانبه، وأعلم في قرارة نفسي أن هذا الفراق هو ضريبة العمل النضالي. كنت سعيدة وفرحة بعودته سالمًا في كل مرة، لحظات السعادة كنت أشعر أننا نسرقها من عمر الزمن.

كنا قد بدأنا إقامة معسكرات لتدريب الفتيات على السلاح في نادي فتيات

فلسطين، ولكننا أردنا أن نرفع من مستوى التدريب أسوة بالشباب. في عام 1965، أقمنا أول معسكر مفتوح للفتيات، وكن يذهبن إلى المعسكر في الصباح، ويعدن إلى بيوتهن في المساء. أما بعد الكرامة، فقد أصبحت التدريبات في المعسكرات ليل نهار. كنت قائدة معسكرات تدريب الفتيات، وتراوحت مدة كل منها بين ثلاثة أسابيع إلى شهر.

وقد اعتمدنا برنامج تدريب عسكري صارم؛ من زحف على الحبال والكمائن، إلى فك قطع السلاح بأنواعها المتوافرة وتركيبها، واستخدام القنابل اليدوية، وإطلاق قذائف آر بي جي (المضادة للدروع)، والتدريب بالذخيرة الحية، إلى جانب الالتزام بالقواعد التنظيمية؛ انضباطًا وتحملًا والتزامًا. وكنا ننتظر بفارغ الصبر يوم الرمي بالرصاص الحي، حيث كنا نتسابق على إصابة الهدف.

كما كانت الجلسات التنظيمية وأمسيات السهر تضفي على المعسكر جوًا إيجابيًا، بمشاركة واحد من أعضاء اللجنة المركزية، حيث يقوم بشرح الأوضاع السياسية والحركية، ونشاط الحركة، ويحاضر عن النضال والثورة، ويجيب عن تساؤلات الأخوات المتدربات. مع بداية الدورة، كنا نتوزع على لجان؛ لجنة المطبخ التي تعد الطعام، واللجنة السياسية التي تنظم المحاضرات وأمسيات السمر، ولجنة النظافة التي تهتم بنظافة الخيام وجلي الأطباق. كما كنت أنسّق مع أعضاء اللجنة المركزية مواعيد قدومهم لتقديم محاضراتهم خلال أمسيات السمر في المعسكر، وكان أبو عمار أو أبو جهاد يحضران عادة لتخريج الدورات.

بعد عام 1966، وبعد نجاح التنظيم النسائي في دمشق، بدأت اللجنة المركزية تولي اهتمامًا أكبر لاستيعاب الفتيات بالتنظيم في مختلف الأقاليم، وبدأت تتشكل خلايا نسائية في الأردن ولبنان والكويت ومصر والعراق. كانت الفتيات يشاركن في المعسكرات التدريبية في الأردن، من مختلف المناطق. وبعد التدريبات والمحاضرات التوعوية والتثقيفية، يعدن إلى أماكن إقامتهن في مختلف الدول للقيام بنشاطات وطنية، واستقطاب الفتيات الفلسطينيات للثورة. بدأت المرأة الفلسطينية تأخذ دورها شريكة في السلاح والنضال في حركة فتح، وشاركت في مختلف مراحل النضال والثورة.

في عام 1968، وصلت إلى سورية الأخت آمنة الحسن (أم إيمان)، شقيقة الأخ أبو علي إياد الذي أحضرها إلى بيتنا قائلًا لي: "نظميها يا أم جهاد كي تعود إلى الأردن وتبني تنظيمًا نسائيًا هناك". وبالفعل، تم استيعابها في التنظيم وتدريبها، وعادت إلى الأردن لتشكّل أول خلية نسوية في عام 1968.

وبعد معركة الكرامة، وازدياد عدد الشهداء والجرحى، كان لا بدّ لنا أن نرعى أُسر الشهداء؛ فبدأنا بتأسيس فرع للجنة أُسر الشهداء في الأردن، وكُلّف الأخ المختار نعيم بإدارتها، وعضوية تودد عبد الهادي، وآمنة نمر الحسن (أم إيمان).

أثناء غياب أبو جهاد في الأردن، كنت على اتصال دائم بجميع الإخوة لمتابعة العمل، وكانوا يطمئنون عليّ وعلى الأولاد بشكل مستمر. كان الأخ أبو علي إياد يزورنا، وكثيرًا ما كان يأخذ جهاد معه إلى المعسكرات كما كان يفعل أبوه. وأذكر أنني أحيانًا، وعندما كنت أسأل أبو علي عن أخبار أبو جهاد ومتى سيعود، يقول لي: "قومي آخذك إليه". وفعلًا، آخذ الأولاد ونذهب معه إلى الأردن، وعندما نصل إلى غرفة العمليات، ينادي الإخوة هناك عليه عبر جهاز اللاسلكي، وكان نداؤه "تسعة واحد تسعة واحد أجب". وعندما يجيب، يقولون له: "خاصتكم بطرفنا". كنت أضحك بداخلي عندما أفكر في وقع المفاجأة عليه، وكان يرد على النداء: "استلمت، انتهى".

كنت أنتظر بالساعات لحظة حضوره، ولم يكن يأتي إلا بعد أن ينجز جميع أعماله، يأتي بكل الحب والشوق، ويقول: "الآن أنا متفرغ لكم". ولكن نداءات اللاسلكي، والبحث عنه عبر الجهاز لم تكن تتوقف، ولم تمكنه من التفرغ لنا، فيضطر إلى المغادرة، مصحوبًا بدعوات من قلبي أن يرعاه الله ويحميه.

في عام 1968، تخلى الأخ محمود عباس عن عمله في قطر، وتسلّم ملف التعبئة والتنظيم، وجاء لزيارة التنظيم في سورية، وعقد اجتماعًا موسعًا مع لجنة الإقليم، وأمناء سر المناطق، ورؤساء المكاتب الحركية. ودعيتُ للمشاركة في هذا الاجتماع، باعتباري رئيسة المكتب الحركي للمرأة، ودار نقاش معمق حول الأوضاع التنظيمية، وطالب المجتمعون بضرورة عقد مؤتمر الإقليم.

وبالفعل، عُقد مؤتمر الإقليم أول مرة في سورية تحت إشراف الأخ هاني الحسن، عضو مكتب التعبئة والتنظيم. وتمت تسميتي، والأخت لوسيا حجازي، لعضوية المؤتمر عن مكتب المرأة الحركي. وأثناء نقاش الوضع التنظيمي، تقدمت إلى المؤتمر بمقترح حل التنظيم النسائي، ودمج الكادر النسوي الفتحاوي داخل التنظيم في الأقاليم، بمعنى أن تكون الأخوات عضوات فاعلات في هياكل التنظيم كافة، من لجنة الأقليم إلى لجان المناطق دون تمييز. وبعد نقاش طويل، تبنى المؤتمر هذا الاقتراح، وتمت الموافقة عليه.

عندما أرسلت اللجنة المركزية قراراً بأسماء أعضاء لجنة الإقليم في سورية، أصبحت المرأة الأولى التي تشغل منصب عضو في لجنة الإقليم. وقد عُرض عليّ تسلّم مهمات لجنة المرأة في الإقليم، إلا أنني رفضت لأنني أردت أن أكون مسؤولة عن التنظيم رجالاً ونساءً. وأصبحت عضواً في لجنة التنظيم التابعة للإقليم، وهكذا أصبح للمرأة الفتحاوية حضور واسع في مختلف هيكليات الحركة.

المؤتمر الثاني لحركة فتح

في صيف عام 1968، عُقد المؤتمر الثاني للحركة في سورية، وكان مكان انعقاده في منزلنا الكائن في منطقة ركن الدين، علماً بأن مؤتمر الحركة الأول كان قد عُقد في عام 1965 في الزبداني. كان المؤتمر الأول قد اتخذ قراراً بتشكيل القيادة العامة لقوات العاصفة من: أبو عمار، وأبو جهاد، وأبو ماهر غنيم، وممدوح صيدم (أبو صبري)، وأبو علي إياد[13]، وكان الأخيران قد التحقا بالعمل العسكري في سورية بعد أن استدعاهما أبو جهاد من الجزائر.

وفي ظل نكسة حزيران/ يونيو 1967، والإشكاليات الداخلية التي مرت بها الحركة؛ من حادث يوسف عرابي ومحمد حشمة، إلى اعتقال قيادة الحركة

(13) يُضاف إلى هؤلاء أبو يوسف النجار، ثم انضم إليها لاحقاً أحمد جبريل، بعد انضمام جبهة التحرير الفلسطينية إلى حركة فتح عام 1965، ثم لم يلبث أن خرج منها بعد خلافه مع الحركة. يُنظر: محمد اشتيه، موسوعة المصطلحات والمفاهيم الفلسطينية (عمّان: دار الجليل للنشر، 2011)، ص 364.

في سورية، كان لا بدّ من عقد مؤتمر ثانٍ للحركة لتقييم ما حصل، وترتيب البيت الداخلي، ورسم استراتيجية جديدة للعمل. كان جميع أعضاء المؤتمر من الرجال، ولم يكن لأي امرأة نصيب في المشاركة، الأمر الذي ساءني كثيرًا، حيث شعرت بتجاهل القيادة لدور المرأة في هذه الحركة، فذهبت واجتمعت مع الأخوات في اللجنة القيادية للتنظيم النسائي وتدارسنا الموضوع، وقررنا أن نبعث برسالة إلى رئيس المؤتمر، مطالبات بعضوية النساء، من خلال ترشيحنا لكل من: انتصار الوزير، ولوسيا حجازي، ووجدان عاصي لعضوية المؤتمر. تسلّم الدكتور نبيل شعث[14]، رئيس المؤتمر، الرسالة، وتباحث مع بعض الإخوة في الطلب، وعاد ليقول لي إن هناك اقتراحًا من الإخوة بقبول عضويتي أنا فقط، بصفتي شخصية مناضلة، وتقديرًا لدوري وجهودي، ولكنني رفضت الاقتراح، وأصريت على موقفنا أننا مناضلات في صفوف الحركة، ومن حقنا أن نشارك في هذا المؤتمر. طلبت منه أن يطرح الموضوع للتصويت، وأبلغته أننا سنقبل النتيجة مهما كانت، وتم التصويت فعلًا، وسقط الاقتراح بفارق صوت واحد، كان صوت أبو جهاد الذي امتنع عن التصويت! لقد خسرنا المعركة، ولكنها كانت الخطوة الأولى لنيل حقوق النساء المناضلات في التنظيم.

ناقش المؤتمر استقالة كل من: عادل عبدالكريم، وعبدالله الدنان، ومحمود فلاحة، ومحمود الخالدي، والدكتور حسام الخطيب من عضوية اللجنة المركزية، وقد تم قبولها. وانتُخب لعضوية اللجنة المركزية كل من: الأخ ممدوح صيدم، وأبو علي إياد، وسليم الزعنون، إلى جانب أبو عمار، وأبو جهاد،

(14) نبيل شعث (1938-): ولد في صفد، وهاجر وعائلته إلى غزة بعد نكبة عام 1948. حصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد والعلوم الإدارية من جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأميركية عام 1965. شغل، بين عامي 1996 و2006 مناصب وزارية عدة في السلطة الفلسطينية منها؛ وزير التخطيط والتعاون الدولي، ونائب رئيس الوزراء، ووزير الإعلام، ووزير الخارجية. عُيّن مستشارًا للعلاقات الدولية للرئيس الفلسطيني ياسر عرفات بين عامي 1982 و1992. عضو في المجلس المركزي الفلسطيني، والمجلس الثوري لحركة فتح. في عام 1989، فاز بعضوية اللجنة المركزية لحركة فتح، ثم أُعيد انتخابه مجددًا عام 2009.

وفاروق القدومي، ومحمود عباس، وخالد الحسن، وأبو ماهر غنيم، ومحمد يوسف النجار، وصلاح خلف.

كان لانعقاد المؤتمر وقراراته أثر واضح في رصّ صفوف الحركة، وتجديد شرعيتها، ومنحها دفعة جديدة، بعد المصاعب التي واجهتها في الفترة السابقة. أما بالنسبة إلينا نحن النساء، فقد دفعنا رفض المؤتمر لعضويتنا إلى المزيد من العمل، لإثبات دورنا بصفتنا نساء مناضلات في الحركة.

استمر عملنا في سورية في تطوير التنظيم النسائي، واستقطاب الفتيات، وتدريبهن، والقيام بنشاطات توعوية، وتدريبهن على الجرف، والتطريز، والدبكة، من خلال نادي الفتيات في مخيم اليرموك، كما تمكنّا من إقامة معسكر تدريبي ثانٍ للفتيات مع مبيت فترة ثلاثة أسابيع، وكانت التدريبات عسكرية وقاسية بمستوى تدريبات الشباب نفسها.

في الدورة الخامسة للمجلس الوطني المنعقدة في القاهرة عام 1969، انضمت حركة فتح والفصائل الفلسطينية إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وقد مثّل الحركة في اللجنة التنفيذية أعضاء اللجنة المركزية، وهم: ياسر عرفات، وفاروق القدومي، وخالد الحسن، ومحمد يوسف النجار. انتُخب ياسر عرفات رئيسًا للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. وتسلّم خالد الحسن ملف العلاقات الخارجية للمنظمة، وتسلّم فاروق القدومي دائرة التنظيم الشعبي، بينما تسلّم محمد يوسف النجار ملف اللجنة السياسية العليا للفلسطينيين في لبنان.

في 23 شباط/ فبراير 1969، وبينما كان أبو جهاد في القاهرة لحضور اجتماعات المجلس الوطني، شعرت بآلام المخاض في حملي الرابع، فتركت الأولاد عند إحدى الصديقات، وتوجهت وحدي إلى المستشفى لأضع مولودتنا الأولى. بقيت في المشفى ثلاثة أيام، وعند خروجي، طلبت سيارة أجرة وذهبت إلى الصيدلية والبقالة لشراء حاجيات الطفلة. أذكر أنّ القوات الإسرائيلية قصفت معسكر الهامة، قبل ولادتي. لاحقًا، قام الأخ أبو علي إياد بتسمية الطفلة إيمان، تيمنًا باسم شقيقته.

أحداث أيلول/ سبتمبر 1970

أدى وجود الفدائيين والمنظمات الفلسطينية في الساحة الأردنية، وخاصة عمّان، إلى حالة من التوتر في العلاقات بين المقاومة الفلسطينية والنظام الأردني بسبب مجموعة من الخروقات أو المناوشات، وصلت أحيانًا إلى اشتباكات بالسلاح. تأزمت العلاقات، وفتحت عدة حوارات للتهدئة وحل المشكلات، إلا أنها لم تنجح. أضف إلى ذلك، رفض المقاومة مشروع روجرز[15]، وخروج مظاهرات جماهيرية حاشدة تندد بالمشروع الذي وافقت عليه مصر والأردن.

في صباح 16 أيلول/ سبتمبر 1970، أعلن الملك الحسين بن طلال الأحكام العرفية في البلاد، وعيّن العميد محمد داود العباسي[16] رئيسًا للوزراء لقيادة حكومة عسكرية، وهي الحكومة العسكرية الأولى في تاريخ الأردن، على أمل أن يكون باستطاعته السيطرة على الوضع، وإنهاء الخلافات القائمة بين الفصائل الفلسطينية والجيش الأردني في تلك الفترة.

في 20 أيلول/ سبتمبر 1970، تقدّم الجيش الأردني نحو مواقع الفدائيين

---

(15) مشروع روجرز: مبادرة أميركية لحلّ أزمة الشرق الأوسط، قدّمها وزير الخارجية الأميركي آنذاك، وليام روجرز، في أيار/ مايو 1970، بدعوة أطراف النزاع؛ إسرائيل، ومصر، والأردن، وسورية، إلى وقف إطلاق النار، وبدء محادثات سلام مع المبعوث الخاص للأمم المتحدة، غونار يارينغ (Gunnar Jarring)، من أجل تنفيذ قرار مجلس الأمن 242. وافقت مصر والأردن على المبادرة، ورفضت إسرائيل بداية، ثم عادت وأعلنت موافقتها. أعلنت سورية رفضها المبادرة، كما رفضتها منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها اعترافًا بإسرائيل، وتراجعًا عن الالتزام العربي في مؤتمر قمة الخرطوم بعدم التفاوض معها. وتضمّن رفض المنظمة، هجومًا لاذعًا على جمال عبد الناصر.

(16) محمد داود العباسي (1914-1972): ولد في قرية سلوان في القدس. عمل ضابطًا في شرطة مدينة طولكرم حتى عام 1948. وفي عام 1952 أصبح عضوًا في الوفد الأردني في لجنة الهدنة المشتركة الأردنية - الإسرائيلية. وفي عام 1958، رأس الوفد الأردني المشترك حتى حرب عام 1967، حيث اعتقله الجيش الإسرائيلي لمدة 17 يومًا قبل ترحيله إلى عمّان. استمر في عمله في الأردن رئيسًا للجنة الهدنة المشتركة الأردنية - الإسرائيلية حتى عام 1970. شكّل أول حكومة عسكرية في الأردن في 16/ 9/ 1970، بعد إعلان الملك حسين الأحكام العرفية، ولكنه ما لبث أن قدم استقالته بعد عشرة أيام لشعوره بعدم قدرة الحكومة السيطرة على الوضع وإنهاء الخلافات القائمة بين الفصائل الفلسطينية والجيش الأردني في تلك الفترة.

في عمّان. في ذلك اليوم، تلقّينا برقية عبر جهاز اللاسلكي من أبو جهاد، قال فيها: "الجيش الأردني يتقدم باتجاهنا، سنغادر موقعنا، وسنتصل بكم في ما بعد". علمنا من إذاعة "الثورة" أن الاشتباكات كانت عنيفة بين الطرفين، كنت مع قواتنا في درعا ننتظر أن نقوم بإسناد المقاتلين، وكان قائد هذه القوات حينئذٍ الأخ أبو علي إياد، وبقينا جميعنا ننتظر أن يعاود أبو جهاد الاتصال مرة أخرى عبر جهاز اللاسلكي، ونحن في حالة من القلق الشديد. مرّت أكثر من خمسة أيام دون أي اتصال منه، أو أي خبر عنه، وكان جميع الإخوة يترقبون.

كنت أذهب في الصباح إلى درعا، وأبقى هناك حتى منتصف الليل، أجلس بجانب جهاز اللاسلكي، أنتظر أن أسمع نداءه، أن أسمع صوته، وأدعو الله أن يكون وإخوانه بخير، اعتراني التعب، واستبدّ بي القلق والإجهاد.

في اليوم الخامس، لاحظ الأخ أبو علي إياد ازدياد قلقي وتوتري، فطلب إليّ العودة إلى المنزل في دمشق لأرتاح، ووعدني أن يتصل بي فور وصول أي خبر من أبو جهاد، فعدت إلى المنزل. في تلك الليلة، كنت أستمع إلى إذاعة "الثورة" التي كانت تصف الأوضاع، وتتحدث عن الوضع في المخيمات، وخاصة مخيمَي الحسين والجوفة، والأماكن التي فيها مكاتب وقيادات الفدائيين.

كانت الإذاعة تتحدث عن الحصار وانقطاع التيار الكهربائي، وعن المعارك التي تدور بين الجيش الأردني والفدائيين، على نحو زاد من قلقي، فاستولى عليّ اليأس، ولكني لم أبكِ، وبقيت صامدة لا أملك إلا الدعاء إلى الله.

كنت عندما أشعر بالعطش، أذهب لأفتح ماسورة الماء لأشرب، ولكني عندما أرى الماء منسابًا، أغلق الصنبور وأقول: "هم عطشى لا يوجد لديهم ماء". فأمتنع عن الشرب تضامنًا معهم.

لم أتمكن يومها من النوم، وفي الساعة الرابعة فجرًا، رنّ جرس الهاتف، وكان صوت الأخ أبو علي إياد فرحًا وهو يبشرني أن أبو جهاد بخير، وأنه اتصل به وسمع صوته، وطلب إليّ الذهاب إلى درعا في الصباح لأتمكن من التحدث إليه عبر اللاسلكي. حمدت الله كثيرًا أنه بخير. وفي تلك اللحظة، انفجرت

الدموع المختزنة بداخلي طوال تلك الأيام الصعبة المليئة بالمعاناة والقهر والقلق والترقّب الذي عشناه.

ذهبت إلى درعا مبكرة، وانتظرت حتى تم الاتصال. سمعت صوته، وقلت له: "شدوا حيلكم، الله معكم". وكانت جميع المحطات قد استمعت لهذا الحديث وتأثرت به كثيرًا.

وفي اليوم السادس للمعركة، كنا قد جمعنا الكثير من المساعدات بانتظار دخول الأردن لنقلها، وطلبت أن أكون مع القافلة. في ذلك اليوم، وصل مندوب اللجنة العربية للوساطة (لجنة المتابعة العليا)، الأخ سمير يوسف، من جمهورية مصر العربية، في مهمة وساطة إلى درعا للاتفاق على بعض القضايا، وقد اجتمع بالقيادة العسكرية الفلسطينية في درعا، وكان ينوي العودة إلى عمّان بعد الاجتماع، فطلب إليه الأخ أبو علي إياد أن يصطحبني معه إلى عمّان، فوافق على ذلك.

وصلنا إلى مقر قيادة العمليات في جبل الأشرفية، وفيها أبو جهاد. عندما وصلت، رأيته منكبًا على أوراق أمامه يناقش بعض القضايا مع الشباب. ألقيت عليه التحية، فرفع رأسه ليراني أمامه، ومد يده مبتسمًا للسلام، وعاد إلى عمله. غرقت بالعمل مع الإخوة والأخوات هناك، حيث كنا نوزع المعونات التي وصلت. استمر الوضع متوترًا في المنطقة، الجميع مشغولون بمهماتهم، بينما تسقط القذائف بين حين وآخر على مقربة من موقعنا. بعد عدة أيام، عاد الأخ سمير يوسف بعد انتهاء مهمته في عمّان ليصطحبني معه إلى درعا. ركبت معه في السيارة، وكان أحد المناضلين يجلس بجانبي في المقعد الخلفي، وقد غطى وجهه بالكوفية، ولم تظهر منه إلا عيناه. التزمنا الصمت طوال الطريق، ولم أتحدث معه، وبقينا كذلك إلى أن وصلنا إلى الجانب السوري في درعا، عندها كشف عن وجهه، وإذا به الرفيق نايف حواتمة[17].

---

(17) نايف حواتمة (1935-): ولد في مدينة السلط. تابع مراحل تعليمه الأولى في عمّان. درس الفلسفة في جامعة بيروت، ثم تابع دراسته في موسكو. انضم، في سن مبكرة، إلى حركة القوميين العرب. حُكم عليه، غيابيًا، بالإعدام في الأردن بسبب نشاطه السياسية، فلجأ إلى لبنان، ثم إلى العراق، حيث تولى فيه قيادة فرع حركة القوميين العرب. عاد إلى الأردن في عام 1967 بعد صدور العفو العام. =

أثمرت اتصالات جامعة الدول العربية ووساطتها في وقف القتال في الأردن، وبينما كان وفد الوساطة العربية، وعلى رأسهم الباهي الأدغم[18]، والشيخ سعد العبد الله الصباح، في الأردن، وتقرر وقف إطلاق النار. أما أبو إياد (صلاح خلف)، والأخ أبو اللطف (فاروق القدومي)، فقد ألقى الجيش الأردني القبض عليهما، وأُفرج عنهما بعد تدخل لجنة الوساطة العربية. كما دفعت جهود الوساطة العربية إلى انسحاب الفدائيين من مدينة عمّان، ونقل قواتهم إلى منطقتي جرش وعجلون، وكانت هذه القوات بقيادة أبو جهاد، وكان التواصل معه صعبًا جدًا خلال تلك الفترة.

وبعد نحو عام من أحداث أيلول/ سبتمبر، وبينما كان أبو جهاد في جرش، والأخ أبو علي إياد في منطقة عجلون، كانت غالبية قيادة الحركة في القاهرة في اجتماع للمجلس الوطني، حينها تقدّم الجيش الأردني نحو جرش وعجلون لإخلاء المنطقة من قواعد الفدائيين. بدأت الاشتباكات مرة ثانية بين الجيش الاردني والمقاومة الفلسطينية، الأمر الذي دفع لجنة المتابعة العليا لمعاودة تأدية دور الوساطة مرة أخرى بين الطرفين، وعند وصول اللجنة إلى عمّان، كان أبو جهاد المندوب الممثل لمنظمة التحرير في المفاوضات، بحكم وجود جميع الإخوة في مصر. في إحدى جلسات المفاوضات، حاصر الجيش الأردني الفندق الذي كان فيه أبو جهاد، وكان يريد اعتقاله، لكن لجنة المتابعة العليا تدخلت ومنعت الأمر، وتم الاتفاق حينها على مغادرة أبو جهاد مع لجنة المتابعة إلى الأراضي السورية.

استمرت الاشتباكات بين الطرفين في جرش وعجلون، وسقط العديد من الشهداء والجرحى. وفي معركة عجلون، فُقدت آثار الأخ أبو علي إياد، وجنّدت الحركة جهودها لمعرفة مصيره بلا جدوى حتى الآن.

=التحق بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ثم انشق عنها في عام 1969، وأسس تنظيمه اليساري الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وتولى قيادته.

(18) الباهي الأدغم (1913-1998): سياسي تونسي، شغل منصب الوزير الأول بين عامي 1969 و1970. أدى دور الوسيط بين ياسر عرفات والحكومة الأردنية في أحداث أيلول/ سبتمبر في عام 1970.

في الفترة ذاتها، فقدت حركة فتح كذلك الأخ ممدوح صيدم (أبو صبري) بعد مرض عضال. وقد تركت خسارة هذين القائدين من أعضاء اللجنة المركزية جرحًا كبيرًا في صفوف أبناء الحركة. وقد شُيّع جثمان الأخ أبو صبري إلى مثواه الأخير في مقبرة الشهداء في مخيم اليرموك. ووفاءً لروح أبو علي اياد، غُرست شجرة بجانب ضريح أبو صبري، إذ كانا لا يفترقان.

المؤتمر الثالث لحركة فتح

في أيلول/ سبتمبر 1971، عقدت حركة فتح مؤتمرها الثالث في منطقة حمورية قرب مدينة دمشق. وقد اختيرت أختان فقط لعضوية المؤتمر من خلال موقعيهما التنظيميان، فقد شاركت الأخت آمنة نمر، شقيقة الشهيد أبو علي إياد، بحكم موقعها عضوًا في لجنة إقليم الأردن. كما شاركت أنا، بحكم موقعي رئيسةً لمؤسسة الشؤون الاجتماعية لرعاية عائلات الشهداء والأسرى والجرحى، حيث كانت المؤسسة تابعة للقيادة العامة لقوات العاصفة.

وقد جاء عقد المؤتمر بعد أحداث أيلول/ سبتمبر، وبعد خروج قواتنا المقاتلة من أحراش جرش وعجلون. كانت أجواء المؤتمر متوترة للغاية، حيث سيطرت على الحضور مشاعر الغضب واللوم، وتبادل الاتهامات حول الجهة المسؤولة عمّا حدث من تراجع وهزيمة بعد أحداث أيلول/ سبتمبر. كانت بعض الأصوات الصاخبة توجه أصابع الاتهام إلى قيادة الحركة بشكل عنيف، والتجمع في جرش وعجلون، وسحب أسلحة الميليشيا. كانت الأصوات تستنكر ما حدث، والتساؤلات عديدة حول كيفية وصولنا إلى هذا الوضع الصعب، وكيفية خروجنا من هذا المأزق.

كاد الاحتقان الداخلي يفجّر المؤتمر، إلى أن تحدث الإخوة في اللجنة المركزية؛ أبو عمار، وأبو جهاد، وصلاح خلف، وقد استطاعوا امتصاص بعض الغضب، والإجابة عن بعض التساؤلات المطروحة، الأمر الذي هدّأ النفوس، وأعاد لغة الحوار البنّاء إلى القاعة. وقد تحدث أبو جهاد يومها عن "قانون المحبة"، وعن أهمية النقاش الديمقراطي الإيجابي البنّاء لحل المشكلات للخروج من الأزمة.

كان الجميع متفقون على خطورة الموقف، وضرورة التعامل معه بكل حيطة وحذر. كما أجمع الحضور على أن الخروج من عمّان كان ضروريًا لحقن الدماء الفلسطينية والأردنية على حد سواء، والتأكيد على أن الطريق الوحيد للخروج من الأزمة يكمن في وحدة الحركة وتماسكها، وضرورة إعادة الروح الكفاحية للنضال ضد الاحتلال الإسرائيلي، وتوجيه البنادق كلها نحوه من خلال العمل المسلح. إضافة إلى إجماع المؤتمر على ضرورة إعادة تأهيل القوات المسلحة التي انسحبت من الأردن إلى سورية ولبنان.

إلى جانب الوضع العسكري والسياسي للحركة، شهد المؤتمر نقاشًا مطولًا حول بعض آليات العمل الداخلي للحركة، وبشكل خاص، البند المقترح بتعديل النظام الداخلي ليشمل انتخاب أعضاء المؤتمر، اللجنة المركزية، بالاقتراع السري. وخلال نقاش الموضوع، أكدّ الأخ أبو عمار على أن المؤسسين ياسر عرفات وخليل الوزير لا يخضعان للانتخاب، وقد تمت الموافقة بالإجماع على ذلك، إلا أنهما تنازلا عن ذلك الحق وترشحا لانتخابات اللجنة المركزية وحصدا أعلى الأصوات[19].

انتُخب أعضاء اللجنة المركزية في المؤتمر الثالث لتشمل: ياسر عرفات، وخليل الوزير، وفاروق القدومي، وخالد الحسن، ومحمود عباس، ومحمد يوسف النجار [أبو يوسف]، وصلاح خلف، وأبو ماهر غنيم من القدامى. وانضم إليها كمال عدوان، ونمر صالح [أبو صالح][20]، ليحلا مكان أبو علي إياد، وممدوح صيدم الذي توفي في الشهر نفسه في بيروت.

(19) حصل ياسر عرفات على 130 صوتًا، وحصل أبو جهاد على 129 صوتًا. صايغ، **الكفاح المسلح والبحث عن الدولة**، ص 431.

(20) "محمد نمر" صالح حسن (أبو صالح) (1935-1999): ولد في قرية قوليا، قضاء مدينة الرملة. تلقّى تعليمه الأساسي والثانوي في مدارس مدينتي رام الله وعمّان. انضمّ إلى صفوف حركة فتح في عام 1964. شارك في معركة الكرامة في عام 1968، وأصبح قائدًا لقوات الميليشيا في الأردن. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح في مؤتمرها الثالث عام 1971. وعضوًا في القيادة العامة لقوات العاصفة. شارك في الانشقاق عن حركة فتح، وأسّس، مع أبو موسى (سعيد مراغة)، وأبو خالد العملة (موسى محمود العملة)، ما عُرف بـ "فتح الانتفاضة".

كما انتخب المؤتمر أعضاء جدد للمجلس الثوري، إلا أن اثنين من الأعضاء المرشحين لعضوية المجلس الثوري، محمد الأعرج وسعيد المزين، حصلا على نسبة الأصوات نفسها، وكان لا بدّ من حسم المقعد الوحيد بينهما، فاقترح الأخ أبو عمار إجراء قرعة بينهما، ووافق المؤتمر. كان ابني جهاد طفلًا صغيرًا يلعب في ساحة المعسكر أمام قاعة المؤتمر، فطلب أبو عمار استدعاءه، وكتب اسميّ المرشحين على ورقتين منفصلتين ووضعهما داخل قبعته العسكرية، وطلب من جهاد اختيار ورقة. وبالفعل، سحب جهاد إحدى الأوراق، وكانت تحمل اسم الأخ محمد الأعرج ليصبح بذلك عضو المجلس الثوري.

الساحة اللبنانية

عندما عدنا من الجزائر إلى لبنان في آذار/مارس 1965، كان شعبنا الفلسطيني، وخاصة في المخيمات، يتعرض للقمع والملاحقة من المكتب الثاني (المخابرات اللبنانية) التي كانت موجودة بقوة في المخيمات، وتتابع وتلاحق جميع سكانها عن كثب، وخاصة بعد انطلاقة الثورة والعمل الفدائي. كانت الملاحقة والتعذيب شديدين، وقد أدّى التعذيب إلى استشهاد الكثير من الإخوة، أذكر منهم المناضل جلال كعوش، الأمر الذي دفعنا حينها إلى العمل بسرّية مطلقة.

بعد انطلاقة الثورة، التحق شاب لبناني، واسمه خليل عز الدين الجمل، بحركة فتح. كان الجمل يدرس صباحًا، ويعمل مع شقيقه، وهو صاحب مكتبة، في المساء. قرر الالتحاق بالثورة، وتوجه إلى سورية لمقابلة قيادة الحركة والانضمام إلى الثوار. تلقى تدريبات عسكرية في معسكر الهامة، ثم التحق بالفدائيين في معسكرات الأردن، واستشهد بعمر السابعة عشرة في غور الأردن الشمالي، في معركة تل الأربعين، في 15 نيسان/أبريل 1968. وكان أول شهيد عربي لبناني يسقط في سبيل القضية الفلسطينية.

خلال استقبال جثمانه الطاهر في لبنان، خرج عشرات الآلاف من اللبنانيين لتشييعه، وقد شارك في جنازته قيادات حزبية ووطنية وجماهير غفيرة. وكانت

جنازة لم يسبق لها مثيل في لبنان. وقد أدى استشهاده إلى خروج مسيرات حاشدة تطالب بفتح الجبهة اللبنانية للعمل الفدائي من أجل تحرير فلسطين، وأصبح خليل عز الدين الجمل رمزًا للشباب اللبناني والعربي.

خلال تلك الفترة، كان العمل الفدائي في الجنوب اللبناني محدودًا وسرّيًا، وبدأت قوات العاصفة تتسلل سرًا إلى منطقة الجنوب لإقامة قواعد ارتكاز، حيث وُجدت المجموعات في عدة مناطق من الجنوب اللبناني، إلا أن وجود هذه المجموعات أدى، في عديد المرات، إلى ملاحقات الجيش اللبناني التي وصلت إلى حد الاشتباكات العسكرية، إلى جانب غارات الطيران الإسرائيلي التي شُنّت على هذه القواعد ودمرتها.

دفعت هذه الاشتباكات، وزيادة التوتر، الرئيس جمال عبد الناصر، إلى دعوة وفدي منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة اللبنانية للحوار في القاهرة، ووُقّع اتفاق بين وفد المنظمة، برئاسة ياسر عرفات، والوفد اللبناني، برئاسة العماد إميل بستاني[21]، عن الجيش اللبناني، بتاريخ 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1969، بهدف تنظيم الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان، وقد سُمّيت هذا الاتفاق بـ"اتفاق القاهرة" عام 1969. وقد شرع هذا الاتفاق وجود وعمل المقاومة الفلسطينية في لبنان، وسمح بوجود ميليشيات مسلّحة على الأراضي اللبنانية.

بعد توقيع هذا الاتفاق، ازداد وجود المقاومة الفلسطينية في لبنان، وأصبحت قواعد الفدائيين في الجنوب اللبناني تُسمى "فتح لاند"، حيث أُقيمت المعسكرات والقواعد، وأصبحت نقطة انطلاق للدوريات المتسللة وتنفيذ العمليات العسكرية في الأراضي المحتلة.

بعد خروج المقاومة، من الأردن في عام 1970، توجه أبو عمار وبعض أعضاء اللجنة المركزية من الأردن إلى لبنان. وبعد خروجه من جرش، في عام

(21) إميل بستاني (1909-2002): ولد في جونيه، قضاء كسروان. تطوع في المدرسة الحربية في دمشق في عام 1931، ورُقّي في الرتب العسكرية إلى أن أصبح عمادًا منذ عام 1967. عُيّن قائدًا للجيش اللبناني بين عامي 1965 و1970.

1971، عاد أبو جهاد إلى سورية، لكنه كان يقضي أغلب الأيام في لبنان، واستمر الوضع كذلك، حتى بداية الحرب الأهلية.

بقيت أنا والأولاد نقيم في دمشق، إذ قررت اللجنة المركزية ضرورة بقائي في سورية، حتى لا يشعر الإخوة السوريون أن حركة فتح قد تركت الساحة السورية، وأنّ أبو جهاد قد انتقل مع عائلته إلى لبنان، إلا أنني كنت وأبو جهاد نتنقل دائمًا بين البلدين.

في عام 1970، كنت في إحدى الزيارات إلى بيروت، أقمت خلالها عند عائلة أصدقائنا خالد وندى اليشرطي، وكان حينها خالد عضوًا في اللجنة التنفيذية في المنظمة، ورئيسًا لمجلس الصندوق القومي، إضافة إلى عمله مهندسًا مدنيًا. في صباح اليوم التالي لوصولي، تناولنا ثلاثتنا طعام الإفطار، ثم غادر خالد إلى عمله، بينما توجهت مع زوجته ندى لقضاء بعض المشاوير. وعلى الطريق، سمعنا صوت سيارة خلفنا تطلق "زاموراها" بشدة، فأفسحنا لها المجال لتمر، وإذ بأحد ركابها يقول لندى: "اتبعينا!"، أي يطلب منها أن تلحق به، فأسرعنا خلف السيارة من دون أن نعلم شيئًا، وكانت طريقه مؤدية إلى المستشفى، وتنقل زوجها خالد الذي أُصيب إصابة بالغة في الرأس، أثناء إشرافه على إحدى ورشات البناء، عندما أسقط عليه أحد العمال مخلفات بناء من الطابق الثاني. بقي خالد في العناية المركزة أكثر من ثمانية عشر يومًا إلى أن وافته المنية.

كانت وفاة خالد اليشرطي صدمة كبيرة لنا كأصدقاء، وللثورة الفلسطينية التي فقدت أحد رموز النضال الفلسطيني. وللأسف، بعدها، بتاريخ 3 أيار/ مايو 1973، اغتيلت زوجته ندى اليشرطي أمام منزلها في بيروت، وقد كانت ندى أبو غنيمة اليشرطي وبعد وفاة زوجها، وفية للثورة. كان بيتها مفتوحًا للجميع، وكانت تسعى لتقديم المساعدة والدعم لحركة فتح، وكان لها الكثير من الأصدقاء في المجتمع اللبناني. وصباح يوم استشهادها، كان يومًا عاصفًا في تاريخ العلاقة الفلسطينية - اللبنانية، حيث حاصر الجيش اللبناني منطقة الجامعة العربية التي كانت تضم العديد من مكاتب قيادات المقاومة وحركة فتح، فما كان منها إلا أن تحركت إلى مواقع المسؤولين اللبنانيين في محاولة منها للوساطة بين الطرفين،

ومن هناك، تحدثت بالهاتف مع قيادة المنظمة بعد ... سط مع السلطات اللبنانية من أجل وقف إطلاق النار، وفك الحصار عن ... الجامعة العربية، وسحب قوات الجيش.

بعد عودتها إلى المنزل، وبينما كانت تنتظر ... المصعد، أطلق مجهولون النار عليها، فسقطت مضرجة بالدماء. صديقتي العـ ... لن أنساك أبدًا.

في 21 آب/أغسطس 1972، وبينما كنت في دمشق، أنجبت ابنتي الثانية، وأسميناها حنان. وكما في الولادتين السابقتين، لم يكن أبو جهاد بجانبي، كان في بيروت يومها، اكتملت عائلتنا التي كنا نطمح بالحصول عليها، ولدان وبنتان، دعونا الله أن يحفظهم لنا.

كان أبو جهاد يتنقل بين بيروت ودمشق بينما كنت مستقرة في سورية. كنت أزور بيروت أحيانًا لرؤيته، ولإنجاز مهمات العمل، حيث كنت حينها أمينة سر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، ومسؤولة رعاية أسر الشهداء والأسرى، وعضو لجنة إقليم سورية.

ليلة فردان السوداء

"ماذا أقول لهم وعن عيني ومن قلبي تسيل دماؤهم
ذهب الذين نحبهم
رحلوا وما ألقت مراسيها سفينتهم ولا
مسحت حدود المرفأ النائي عيون الراحلين"
فدوى طوقان

في نيسان/أبريل 1973، كان أبو جهاد يستعد للعودة إلى بيروت، لحضور اجتماع القيادة الفلسطينية، بعد أن أمضى يومين معنا في سورية، وسألني إن كنت أرغب بمرافقته ثم العودة سريعًا، فوافقت، لأنني كنت أرغب بزيارة الأخت مها الجيوسي، زوجة الأخ كمال عدوان، للاطمئنان على صحتها بعد أن أصابتها وعكة صحية، فأجاب: "نذهب لزيارتها بعد انتهاء الاجتماع، ونعود إلى دمشق غدًا. توجهنا بالسيارة إلى بيروت، وعندما وصلنا، ذهبت إلى منزل صديقتي، الأخت

المناضلة إحسان برناوي[22]، لزيارتها وانتظار عودة أبو جهاد من الاجتماع، وقد طال الانتظار، حتى أنني غفوت، وعندما دق جرس الباب، كان أبو جهاد قد عاد، واعتذر عن التأخير قائلًا: "تأخر الوقت، لن نتمكن من زيارة منزل كمال الليلة".

خرجنا معًا للمبيت في شقة نذهب إليها أول مرة، كان أبو جهاد قد حصل على مفتاحها من أحد الأصدقاء، وصلنا العمارة، وكانت تقع في منطقة المزرعة، صعدنا إلى الطابق الأخير، وفوجئنا أن المصعد يؤدي مباشرة إلى وسط الشقة. في ذلك اليوم، كانت قد وقعت اشتباكات مسلحة بين مجموعة من الصاعقة ومجموعة من فتح. دخلنا الشقة وبدأنا نستعد للنوم، وإذا بنا نسمع أصوات رصاص وانفجارات، فأسرع أبو جهاد بارتداء ملابسه، وتوجه إلى باب المصعد للخروج، لحقته وقلت له إنني سأذهب معه، إلا أنه طلب مني البقاء، وعندما طلب المصعد، وقبل أن يصل، انقطع التيار الكهربائي، ولم يكن لدينا مفتاح باب الدرج، فلم نستطع مغادرة الشقة.

قال أبو جهاد حينها: "يبدو أن الاشتباك مع الصاعقة قد تجدد. يجب أن نوقفه، هذا السلاح محرّم استخدامه ضد بعضنا، ويجب أن نوجهه فقط إلى صدر العدو". استمر انقطاع التيار الكهربائي ونحن ننتظر، فغلبنا النعاس ونمنا.

صحوت في صباح اليوم التالي على صوت قرع على باب الغرفة، وعندما فتحت الباب، كان الأخ ماهر الصغير، مرافق أبو جهاد، يبكي، ويحمل في يديه الجرائد، وكانت صفحاتها الأولى موشحة بالسواد، معلنة استشهاد القادة الثلاثة: أبو يوسف النجار، وكمال عدوان، وكمال ناصر[23].

(22) إحسان محمد علي برناوي (1942-2015): ولدت في القدس لعائلة من أصلول نيجيرية. التحقت بحركة فتح في عام 1967، وشاركت في تنفيذ عمليات عسكرية، واعتُقلت في السجون الإسرائيلية إثر ذلك.

(23) كمال بطرس ناصر (1924-1973): ولد في غزة، وتلقى تعليمه الأساسي والثانوي في مدارس بيرزيت، ثم التحق بالجامعة الأميركية في بيروت. ساهم في إصدار صحيفة البعث في مدينة رام الله عقب النكبة في عام 1948. أصدر مجلة الجيل الجديد في مدينة القدس في عام 1949. التحق بصفوف حزب البعث العربي الاشتراكي في عام 1952، وانتُخب عضوًا في مجلس النواب الأردني، ممثلًا عن الحزب في عام 1956. اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلية إثر نشاطه في حرب حزيران/ يونيو 1967، =

غادرنا الشقة سريعًا، وتوجهنا إلى مكان جريمة الاغتيال. وعند وصولنا إلى منزل كمال عدوان، وجدنا الأخ أبو عمار يخرج من المنزل، وعندما لمح أبو جهاد، صرخ قائلًا: "أين أنت يا أخي، بحثنا عنك طويلًا ولم نجدك، ظننا أنهم قد اختطفوك أو اغتالوك"، واحتضنه وبكيا بحرقة.

شكّلت جريمة اغتيال القوات الإسرائيلية القادة الثلاثة في وسط بيروت صدمة كبيرة للشعب الفلسطيني، وخسرنا باستشهادهم قادة مناضلين وإخوة أعزاء ورفاق درب. تم تشييع القادة الشهداء في جنازة مهيبة شارك فيها مئات الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين بمختلف أطيافهم.

استمرت العمليات العسكرية من الجنوب اللبناني، وتكثّف الوجود الفدائي في الجنوب اللبناني. كان أبو جهاد دائم الوجود في الجنوب، في القواعد وبين المقاتلين، يدير المعارك، ويتصدى لأي هجوم. كما تكثف الحضور الفلسطيني في العاصمة بيروت، حيث اتخذت الفصائل الفلسطينية كافة، وفصائل منظمة التحرير، مكاتب ومقرات خاصة بها، إضافة إلى الميليشيات العسكرية التي انتشرت على طول أراضي جنوب لبنان.

= وأبعدته خارج فلسطين. انضم إلى منظمة التحرير الفلسطينية في عام 1968. انتُخب عضوًا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام 1969. ساهم في تأسيس دائرة التوجيه والإعلام، وترأسها حتى عام 1973. وساهم في تأسيس مجلة فلسطين الثورة، وترأس تحريرها بين عامي 1972 و1973.

الفصل الخامس

في سورية

خلال المجلس الوطني الفلسطيني الذي عُقد في القاهرة في عام 1974، اعتُمدت مؤسسة رعاية أسر الشهداء والأسرى، مؤسسة تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، بعد أن كانت إحدى مؤسسات حركة فتح. وبهذا القرار، ازدادت مسؤوليات المؤسسة لتشمل رعاية عائلات الشهداء من فصائل منظمة التحرير كافة، وفي جميع الساحات.

وفي العام ذاته في دمشق، وضع الرئيس السوري حافظ الأسد، والأخ أبو عمار، وأعضاء القيادتين السورية والفلسطينية، حجر الأساس للمدينة التعليمية.

أثناء وجودي في دمشق، كنت قد التحقت بجامعة دمشق لدراسة التاريخ في بداية السبعينيات، قبل خروج الثورة من الأردن. لم أستطع تقديم الامتحانات النهائية خلال السنة الدراسية الأولى، بسبب الأحداث والمعارك في الأردن، وفي السنة الدراسية الثانية، لم أستطع أيضًا تقديم الامتحانات بسبب معارك جرش. واستمر انشغالي بالأحداث والعمل وتأجيل الدراسة. أذكر يوم وصلت إلى قاعة الامتحانات، في عام 1975، وقفت على باب القاعة مع الشباب والطلاب، وكنت على علاقة جيدة معهم، بحكم معرفتي بهم من التنظيم والمعسكرات، إضافة إلى عملي معهم في الانتخابات الطلابية. بعد تبادل الأحاديث، دخلنا إلى القاعة الكبيرة المكتظة بالطلاب، وفور جلوسي على المقعد، جاء شخص وجلس على حافة مقعدي، طلبت منه أن يبتعد حتى أتمكن من الجلوس وتقديم الامتحان، فابتعد، ووزعت معلمة المادة أوراق الامتحان، وفي تلك اللحظة، جاء أحد الطلاب، وكنت أعرفه من تنظيم الصاعقة، وقال لي: "أخت أم جهاد ممكن تطلعي معي إلى الخارج، المخابرات السورية ترغب بالتحدث إليك". قلت له: "سوف أمر عليهم بعد الانتهاء من الامتحان". غادر

القاعة، ثم عاد يقول: "المخابرات تريد مقابلتك الآن، وعليك الخروج إليهم من دون أي ضجة!". عندها، صرخت بأعلى صوتي، أنادي على الدكتورة، وقلت: "يا دكتورة، يا دكتورة، المخابرات تريد إخراجي من القاعة!". فسألت: "لماذا يا بنتي؟". فقلت: "لأني فلسطينية!". عندها اهتزت القاعة بضجيج الطلبة، وهم يضربون طاولات مقاعدهم بأيديهم استنكارًا، خاصة وأن هذه الحادثة تكررت أكثر من مرة مع الطلبة الفلسطينيين، حيث كانت المخابرات السورية تلاحقهم داخل حرم الجامعة وتعتقلهم.

تصرفت الدكتورة، وطلبت منهم الخروج، وقالت لهم: "هذه جامعة لها حرمة، لا يمكنكم إخراج طالب من الامتحان، اخرجوا حتى تنتهي الطالبة من تقديم امتحانها". وخرجوا، إلا أنني لم أتمكن من الكتابة، وخرجت من الامتحان بعد انتهاء المدة، ووجدت حوالى 25 شخصًا بانتظاري. طلبوا مني الذهاب معهم، قلت لهم: سأذهب بسيارتي، لكنهم رفضوا، وأخذوني بسياراتهم، واقتادوني إلى شعبة المخابرات الخاصة بالمعلمين والطلبة.

أجلسوني في إحدى غرف مقر المخابرات حوالى ثلاث ساعات قبل أن يرن جرس الهاتف، رد عليه الضابط الجالس أمامي خلف مكتبه، وسمعته يقول: "أمرك سيدي، أحضرنا المدعوة انتصار الوزير، وقد ثبت لدينا أنها زوجة خليل الوزير، وأم لأربعة أطفال".

بعدها قال لي الضابط: "الرئيس يريد التحدث إليك". تساءلت في نفسي من يكون الرئيس الذي يريد التحدث إليّ؟ ثم قال لي: "يا سيدة، هل أنت مواليد سورية؟". قلت له: "لا، أنا مواليد غزة، فلسطين". فسألني: "متى دخلت البلاد؟". قلت له في 2 أيلول/ سبتمبر 1965. فقال لي: "يا سيدة هناك قرار بطردك من البلاد". فقلت له: "أوف طردي مرة واحدة! ليش؟". فقال لي: "هل أنت من تنظيم فتح؟". قلت له: "صحيح، من تنظيم فتح، ولا يوجد قرار بطرد التنظيم من البلد". فرد قائلًا: "نعم، هم أوادم". قلت له: "والله أنا آدمية أيضًا". قال لي: "يمكن أنت آدمية، بس زوجك متو آدمي".

قلت له: "أنت مخطئ، جميعكم تعلمون أنّ زوجي آدمي". فصرخ وقال:

"لا، مش آدمي". عندها صرخت وقلت له: "زوجي آدمي غصب عنك"، وأغلقت السماعة في وجهه.

بعد نصف ساعة تقريبًا رنّ جرس الهاتف مرة أخرى، قال لي الضابط: "رئيس الشعبة يريد أن يكلمك مرة ثانية". قلت له: "لا أريد التحدث معه". فقال: "سوف تعودين إلى بيتك، لكن عليك التحدث إليه أولاً". فوافقت وأخذت السماعة وقلت له: "نعم". قال لي: "يا سيدة، نظرًا إلى ظروفك الإنسانية، قررنا تجميد قرار طردك من البلاد، لكن نصيحة؛ ديري بالك على أولادك وسيبك من الشغب". قلت له: "شكرًا على نصيحتك". أغلقت الهاتف، فسألني الضابط: "وين بدك تروحي؟ على البيت؟". فقلت له: "لا، على مكتب فتح". علمت لاحقًا أنّ الضابط الذي تحدث معي عبر الهاتف هو رئيس قسم المعلمين والطلبة في شعبة المخابرات واسمه يوسف الطحطوح.

أعادتني المخابرات إلى مكتب فتح. كان جو التوتر والقلق بين الشباب في المكتب واضحًا، وكانت التساؤلات تدور حول مصير الآخرين إذا وصل الأمر إلى أم جهاد!

علمتُ في ما بعد أن أبو جهاد كان في بحمدون عندما كانت الدبابات السورية تتوجه إلى بيروت، وقد نجح الفدائيون في الجبل، بقيادة أبو جهاد، بالتصدي لها وإيقاف تقدمها، بعدما دارت معركة عنيفة. وفي إثر ذلك، وللضغط على أبو جهاد والحركة، صدر قرار بإبعادي من الأراضي السورية، ومنع دخولي برًا وبحرًا وجوًا.

في حينها، دعت المملكة العربية السعودية إلى عقد مؤتمر قمة عربي مصغّر في الرياض، لبحث التدخل السوري في لبنان، ودعت إليه جميع الأطراف للحوار. وقد ادّعت الحكومة السورية حينها أن تدخلها في لبنان جاء لحماية الفدائيين، إلا أن السوريين كانوا قد تقدموا إلى لبنان لحماية جبهة الكفور[1]

---

(1) جبهة الكفور: التسمية التي راحت آنذاك لـ"جبهة الحرية والانسان" التي اتخذت من بلدة الكفور الكسروانية مقرًا لها، والتي تحول اسمها لاحقًا إلى "الجبهة اللبنانية".

التي تمثل القوات اللبنانية المسيحية. لاحقًا لما حصل معي بالجامعة، تم ترقين (إنهاء) قيدي الطلابي. وبعد أن تمت المصالحة بين فتح والفصائل مع سورية، عاد أبو جهاد إلى دمشق، بعد غياب دام أكثر من تسعة أشهر عن الأراضي السورية، والتي لم يتمكن خلالها من رؤية أطفاله.

بعد عامين، رُفع عني المنع، وأُعيد قيدي وتسجيلي في الجامعة، وتخرجت في جامعة دمشق، حاصلة على شهادة ليسانس في التاريخ في عام 1978.

تحدّث عثمان السعدي، سفير الجزائر السابق لدى سورية منتصف السبعينيات، عبر الإعلام، عن ملاحقة الاستخبارات السورية لي، وعن تدخل الرئيس الجزائري في حينها، حيث اتصل السعدي بحافظ الأسد، وقال له إنه يتحدث بلسان الرئيس الجزائري هواري بومدين، وإن السيدة انتصار الوزير باتت مواطنة جزائرية، وأي اعتداء عليها هو اعتداء على الجزائر. وقال السعدي على الرغم من كره حافظ الأسد لبومدين، توقفت المخابرات عن ملاحقتي، نظرًا إلى عدم رغبة الأسد باستفزاز بومدين.

في هذه المقابلة، تحدّث السعدي أيضًا عن موقف الجزائر في حينها من تصفية الوجود الفلسطيني في سورية. وبحسب رواية السعدي، فإنه تلقى أوامر من هواري بومدين بتقديم جميع الدّعم اللازم للفلسطينيين في سورية، وفتح أبوب السفارة لهم. كما وأمر بومدين بصرف رواتب المنتسبين لمنظمة التحرير وأسر الشهداء من خزانة السفارة في دمشق وعلنًا. لم أكن أعلم أن هذه الحادثة كانت على هذا المستوى، ولم أعلم بتدخل الرئيس الجزائري إلا بعد أعوام طويلة، على لسان السفير عثمان السعدي، في أحد البرامج التي بثّتها قناة الجزيرة.

في إحدى زياراتي لأبو جهاد في كيفون[2]، مقر قيادته حينها، كنت ألتقي مع المناضلين وأنقل إليهم الرسائل من عائلاتهم في سورية. وقد قابلت أحد الشباب الذي أمّنني أن أنقل رسالة لزوجته، وحمّلني إليها مبلغًا من المال. عدت إلى

(2) كيفون: بلدة لبنانية، تتبع محافظة جبل لبنان، وتبعد عن بيروت مسافة 21 كيلومترًا.

دمشق وذهبت إلى عنوان عائلة الشاب لتسليم الأمانة، وكانوا يقطنون في منطقة القابون في دمشق.

وصلت إلى العنوان وطرقت الباب، ليفتح لي طفل عمره اثنا عشر عامًا تقريبًا، سألته عن والدته، فأبلغني أنها قريبة، تزور إحدى الجارات، فطلبت منه أن يناديها، فسألني: "من يريدها؟". قلت له: "أم جهاد الوزير".

ركض الطفل لينادي أمه، وإذا بي أراها تركض من بيت الجارة وهي تصرخ، وبمجرد وصولها وقعت على الأرض مغمى عليها. حاولت إيقاظها، وبعد أن التقطت أنفاسها قلت لها: "لماذا تصرخين؟". فأجابت: "ألست مسؤولة أسر الشهداء؟ هل استشهد زوجي؟". طمأنتها أنه بخير وسلّمتها الأمانة وغادرت. لم يكن زوجها قد عاد من القواعد في بيروت منذ أكثر من عام، حال العديد من الثوار الذين تركوا عائلاتهم وغابوا عنها طويلًا بعد التحاقهم بالثورة، وقد عاد بعضهم شهيدًا، وبعضهم عاد بعد أعوام، وبعضهم لم يعد.

نزلت، في عام 1976، إلى لبنان، خلال العطلة الصيفية للمدارس. وصلنا إلى بيروت، وأقمنا في شقة صغيرة، وقررت حينها أن أنتقل للإقامة في لبنان، حتى نكون قريبين أنا والأولاد من أبو جهاد وقد افتقده بسبب غيابه الطويل والمتواصل، وكان قراري مفيدًا أيضًا للعمل، حيث بدأ ثقل عمل الحركة ومؤسساتها ينتقل إلى الساحة اللبنانية. ومعي، انتقل ملف مؤسسة رعاية عائلات الشهداء والأسرى إلى لبنان، وأصبحت المؤسسة مسؤولة عن الفروع في مختلف البلدان العربية.

وفي آذار/ مارس 1978، شنّت إسرائيل حملة عسكرية على الجنوب اللبناني هدفها القضاء على قواعد الفدائيين في الجنوب، ووقف العمليات ضدها، وقد عُرفت باسم عملية الليطاني[3]، وأدّت إلى مقتل مئات المدنيين

(3) عملية الليطاني (1978): هجوم نفذته القوات الإسرائيلية في 14/3/1978، حيث اجتاحت الجنوب اللبناني في ما عُرف باسم "عملية الليطاني"، وأسفرت العملية عن احتلال الأراضي اللبنانية حتى نهر الليطاني، وسيطرت على هذه المناطق مدة ثلاثة أشهر، وانسحبت بعدها إلى الحدود الدولية، =

والمقاتلين من الفلسطينيين واللبنانيين، وتهجير أكثر من 200 ألف مواطن لبناني من الجنوب. كان أبو جهاد يُدير المعركة في الجنوب اللبناني، بينما عملنا، بوصفنا اتحادًا للمرأة ومؤسسة رعاية أُسر الشهداء، على تقديم الدعم والمعونة للمهجرين وعائلات الشهداء، وكانت هذه المعركة مقدمة للاجتياح الإسرائيلي للبنان في عام 1982.

في عام 1980، عُقد المؤتمر الثالث للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في بيروت، وتم انتخاب أمانة عامة، ضمت في عضويتها كلًا من الأخوات: عصام عبد الهادي (رئيسة)، مي الصايغ[4] (أمينة عامة)، أم جهاد (أمينة السر)، جيهان الحلو[5]، سلوى أبو خضرا[6]، جميلة صيدم (أم صبري)[7]، نجلاء ياسين

= محتفظة بشريط حدودي بقيادة الرائد سعد حداد، وهدفت هذه الحملة إلى القضاء على المنظمات الفلسطينية المتمركزة في جنوب لبنان، وتدمير بنيتها التحتية.

(4) مي الصايغ (1940-): ولدت في مدينة غزة. درست الفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة القاهرة. التحقت بحركة فتح في عام 1968، وأصبحت عضوًا في المجلس الوطني لمنظمة التحرير في 1973. شغلت منصب الأمينة العامة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية بين عامي 1971 و1986. عضو المكتب الدائم للاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي منذ عام 1975، وساهمت في تحرير مجلة فلسطين الثورة بين عامي 1971 و1975.

(5) جيهان الحلو (1943-): ولدت في حيفا. ودرست العلوم السياسية والإدارة العامة في الجامعة الأميركية في بيروت. عضو هيئة إدارية ونائبة رئيسة الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في لبنان، وعضو الأمانة العامة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، والأمينة العامة المساعدة للاتحاد النسائي العربي، وعضو المجلس الوطني الفلسطيني.

(6) سلوى أبو خضرا (1929-): ولدت في مدينة يافا. درست الأدب الفرنسي عام 1952 في الكلية اليسوعية في بيروت. التحقت بحركة فتح في عام 1965، وكانت عضوًا مؤسسًا للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية منذ عام 1967، وعضوًا في المجلس الوطني عام 1969، وعضوًا في المجلس المركزي عام 1972، وعضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح عام 1985، وأمينة عامة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية.

(7) جميلة أحمد خميس صيدم (أم صبري) (1947-2011): ولدت في قرية عاقر قضاء الرملة. درست التاريخ في جامعة دمشق. انضمت في وقت مبكر من حياتها إلى حركة فتح، وأصبحت عضوًا في قيادتها على الساحة السورية، وعضوًا في الأمانة العامة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية عام 1974، وأصبحت عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح عام 1989، وعضوًا في المجلس التشريعي في انتخابات عام 1996، وعضوًا في اللجنة التنفيذية العليا لحركة فتح في غزة عام 2007.

(أم ناصر)[8]، نهاية محمد، خديجة حباشنة[9]. كما عُقد، في العام ذاته، المؤتمر الرابع لحركة فتح[10]، وانتُخبت عضوًا في المجلس الثوري للحركة، وكنت حينها أول امرأة تُنتخب لعضوية المجلس الثوري.

كان الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية يؤدي دورًا فعالًا في تلك الفترة، حيث حضر إلى بيروت العديد من الوفود الدولية والأجنبية والعربية، وفود نسوية وصحافية، لزيارة الاتحاد والاطلاع على واقع المرأة الفلسطينية ودورها في النضال الوطني والثورة. وقد مثّلتُ الاتحاد في العديد من المؤتمرات الدولية، واستطعنا أن نبني صداقات وعلاقات قوية مع الاتحادات النسوية حول العالم، ومنهم الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي.

كان أبو جهاد سيتوجه إلى الأردن للمشاركة في اجتماع للجنة الفلسطينية الأردنية المشتركة لدعم الأرض المحتلة، عندما طلب إليّ مرافقته في تلك الرحلة، فذهبت معه، وكعادتنا أخذنا الطريق العسكري للوصول من بيروت إلى دمشق، وهو طريق كنا نستخدم خلاله **البطاقة العسكرية لفتح**، ونمرّ من دون أي اشكالات. وصلنا الأردن، ونزلنا عند أقاربنا في عمّان، ابن عمي إبراهيم الوزير وزوجته ناهدة. أنهى أبو جهاد اجتماعاته وغادر، بينما قررت أن أبقى مع الأولاد بضعة أيام أخرى في الأردن للقاء الأهل. وفي طريق عودتي، على الحدود الأردنية - السورية، جلست

---

(8) نجلاء ياسين (أم ناصر) (–2015): ولدت في دمشق، وهي من أصل لبناني. التحقت بحركة فتح في عام 1966، وعُيِّنت مديرة لمكتب الرئيس ياسر عرفات عام 1973. انتُخبت لعضوية الأمانة العامة للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية عام 1974، وأُعيد انتخابها مرة أخرى عام 1985، وانتُخبت لعضوية المجلس الثوري لحركة فتح عام 1989. عُيِّنت عضوًا في المجلس الاستشاري لحركة فتح عام 2009.

(9) خديجة حباشنة (1945–): ولدت في عمّان. نشطت مع مجموعة من الكوادر النسّائية لتأسيس لجنة تربوية في اتحاد المرأة الفلسطينية للإشراف على توسيع شبكة الحضانات، ورياض الأطفال، وتدريب معلّمات الرياض، ووضع المناهج لها. استمرت في العمل مع اتحاد المرأة الفلسطينية بعد انتخابها في أمانته العامة عام 1985. وفي عام 1991، حصلت على شهادة الماجستير، وعملت محاضِرة في جامعة القدس بين عامي 2002 و2004، ووكيلًا لوزارة شؤون المرأة في السلطة الوطنية الفلسطينية بين عامي 2004 و2005.

(10) عُقد المؤتمر الرابع لحركة فتح في أيار/ مايو 1980، في دمشق، بحضور 500 شخص. وفي هذا المؤتمر، توسعت عضوية المجلس الثوري، وخُصص للعسكريين 50 في المئة من مقاعده.

من الساعة التاسعة صباحًا حتى الحادية عشر ليلًا أنتظر الموافقة على دخولي إلى سورية، إلا أنني فوجئت بتعميم لديهم يقضي بمنعي من دخول الأراضي السورية برًا وبحرًا وجوًا، وتذكرت في لحظتها هذا القرار الذي من المفروض أن يكون قد تم تجميده في عام 1975. عدت إلى الأردن، ومنه غادرت إلى بيروت.

المؤتمر الرابع للحركة

وفي أيار/مايو 1980، عُقد في دمشق مؤتمر حركة فتح الرابع، وهذه المرة في مدينة أبناء الشهداء. ومن أبرز محطات ذلك المؤتمر مناقشة موضوع توسيع اللجنة المركزية، من خلال إضافة خمسة أعضاء جدد ليصبح عددهم 15 عضوًا. خرجت بعض الأصوات مطالبة بإجراء الانتخابات لكامل أعضاء اللجنة المركزية، بينما أصرّ الأخ أبو عمار أن تبقى اللجنة المركزية القديمة كما هي، على أن يُنتخب الأعضاء الخمسة الجدد فقط، وكانت مقولته الشهيرة يومها "اقبلونا بعجرنا ببجرنا". بالفعل، استمرت اللجنة المركزية السابقة بكامل أعضائها، وتم انتخاب خمسة أعضاء جدد، هم الإخوة: هاني الحسن، ورفيق النتشة، وماجد أبو شرار، وسميح أبو كويك (قدري)[11]، وسعد صايل[12]. وبهؤلاء الأعضاء ارتفع عدد أعضاء اللجنة المركزية إلى 15 عضوًا.

وفي هذا المؤتمر، شاركت، للمرة الأولى، عشر أخوات، هن:

---

(11) سميح عبد القادر أبو كويك (قدري) (1942-2020): ولد في مدينة يافا. تلقى تعليمه الأساسي والثانوي في الأردن، ثم درس الحقوق في جامعة دمشق. التحق بصفوف حزب البعث العربي الاشتراكي مبكرًا، ثم التحق بصفوف حركة فتح في عام 1960 . شغل عضوية إقليم الأردن في حركة فتح، وعضوية المجلس الثوري لحركة فتح، ثم أصبح أمين سرّ للجنة شؤون الأردن. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية في عام 1980. شارك في قيادة الانشقاق عن حركة فتح، وتشكيل تنظيم "فتح الانتفاضة" في عام 1983. توفي في دمشق ودُفن فيها.

(12) سعد صايل سلمان (أبو الوليد) (1932-1982): وُلد في قرية كفر قلّيل جنوب نابلس. أنهى تعليمه الابتدائي والثانوي في نابلس، وفي عام 1951 التحق بالكلية العسكرية الأردنية، وأُرسل إلى دورات عسكرية في دول عدة، ثم التحق بكلية سانت هيرست للعلوم العسكرية في بريطانيا، ثم بكلية القيادة والأركان العامة في الولايات المتحدة. وتدرج في الجيش العربي الأردني حتى حاز رتبة عقيد. عُيّن قائدًا لقوات اليرموك في حركة فتح التي أُسست في نهاية عام 1970، وتولى لاحقًا مناصب=

نبيلة النمر، وسلوى أبو خضرا، ومريم الأطرش، وخديجة حباشنة، وجميلة صيدم (أم صبري)، وأم وليد صيام، ونجلاء ياسين (أم ناصر)، وجيهان الحلو، وفاطمة برناوي، وأنا. وقد ترشحت ست أخوات لعضوية المجلس الثوري، وكنت المرأة الوحيدة التي نجحت.

وفي الجلسة الختامية للمؤتمر، وقف الأخ أبو عمار الذي كان قد انتُخب للتو قائدًا عامًا لقوات الثورة الفلسطينية، وأُعلن خليل الوزير، أبو جهاد، نائبًا للقائد العام. كما أُعلن الأخ أبو اللطف أمين سر اللجنة المركزية، والأخ محمود عباس أبو مازن نائبًا لأمين سر اللجنة المركزية.

وفي أول اجتماع للمجلس الثوري المنتخب، انتُخب الأخ صخر حبش[13]، أمين سر للمجلس، والإخوة: أبو العبد العكلوك، نائبًا، وأبو خالد العملة[14]، نائبًا ثانيًا لأمين السر. في العام ذاته، ومع حلول العيد، توجه أبو جهاد، كعادته في أول

=عسكرية عدة، منها إدارة هيئة العمليات المركزية لقوات الثورة الفلسطينية، وعضوًا في القيادة العامة لقوات العاصفة، وفي قيادة جهاز الأرض المحتلة. وفي عام 1980، أصبح عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح. أدار عمليات قوات الثورة الفلسطينية في مواجهة الجيش الإسرائيلي، خلال حصار بيروت في عام 1982، وأُطلق عليه لقب "جنرال بيروت". اغتيل بتاريخ 27/ 9/ 1982.

(13) يحيى عبد السلام حبش (صخر حبش) (1939–2009): ولد في قرية بيت دجن قضاء مدينة يافا، وتلقى تعليمه الأساسي فيها، ثم تابع تعليمه في مدينة نابلس عقب النكبة. تخرّج في جامعة عين شمس في القاهرة في عام 1962، ثم في جامعة أريزونا في الولايات المتحدة الأميركية في عام 1967. التحق بصفوف حزب البعث العربي الاشتراكي في عام 1954. التحق بصفوف حركة فتح في عام 1962، وأصبح عضوًا في لجنة إقليم الأردن في عام 1968، وساهم في تأسيس معسكرات الأشبال والزهرات. شغل عضويّة قيادة القطاع الغربي في عام 1971. انتُخب عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح في عام 1971. أصبح معتمدًا لإقليم لبنان في حركة فتح في عام 1973. انتُخب أمين سرّ للمجلس الثوري لحركة فتح في عام 1980، وتولى كذلك أمانة سرّ مكتب القائد العام. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح في عام 1989. عُيّن مفوّضًا للشؤون الفكرية والدراسات في حركة فتح بين عامي 1989 و1994.

(14) موسى محمود العملة (أبو خالد) (1930–2012): التحق بالجيش الأردني ضابطًا. انضم إلى الثورة الفلسطينية في عام 1970، ضمن قوات اليرموك، وكان عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح. قاد الانشقاق الذي انبثق عنه تنظيم فتح الانتفاضة، واعتُقل في سورية لاحقًا لاتهامه بعلاقة مع "فتح الإسلام". أُفرج عنه بوساطة من بعض مسؤولي الفصائل، ووُضع تحت الإقامة الجبرية في دمشق إلى أن توفي فيها.

أيام العيد، لزيارة القوات في القواعد العسكرية في الجنوب. طلبت مرافقته، إلا أنه فضّل أن أذهب مع الإخوة، ومنهم الأخ أبو إياد، لزيارة مقبرة الشهداء ووضع أكاليل الزهور، فوافقت. وبينما كان أبو جهاد على طريق الجبل، تعرّض لمحاولة اغتيال بعبوة مزروعة على الطريق الذي سلكه. انفجرت العبوة بين سيارته والسيارة التي سبقته، فرجع سائق سيارته عكسيًا بسرعة، متفاديًا الانفجار. لم يعد أبو جهاد إلى بيروت حينها، وقرر استكمال برنامجه، ووصل إلى القواعد بسلام.

حرب لبنان 1982

في الرابع من حزيران/ يونيو 1982، ألقت الطائرات الحربية الإسرائيلية صواريخها فوق المدينة الرياضية وكلية الهندسة في الجامعة العربية ببيروت. كانت الغارة مفاجئة، وكان تأثير انفجار الصواريخ علينا قويًا، نظرًا إلى قرب المواقع التي قُصفت من منزلنا الذي أقمنا فيه، وصدف أنّني والأولاد ووالديّ أبو جهاد، وبعض الأصدقاء والضيوف، كنا هناك في تلك اللحظة. كان المنزل مقابل الجامعة العربية، وعندما دوّى الانفجار هرع جميع سكان العمارة والعمارات المجاورة إلى أسفل العمارة في محاولة للاحتماء من غارات وصواريخ أخرى، وفي محاولة لمعرفة ما الذي جرى. كان الجو متوترًا جدًا، والأطفال يبكون، والنساء يصرخن، والفوضى تعم المكان. اقترح أحد الجيران النزول والاحتماء في قبو ملاصق للمبنى الذي وُجدنا فيه، وفور نزولنا إلى القبو، لاحظنا وجود جرار غاز كبيرة قد تشكل كارثة إذا انفجرت، فعدنا جميعًا إلى مدخل العمارة حتى توقف القصف. وقد كانت هذه الغارة بداية للحرب على لبنان، والتي كان الأخ أبو عمار قد حذّر منها سابقًا عندما قال إن الحرب القادمة هي "حرب الأكورديون"، في إشارة إلى اتفاق إسرائيلي مع القوات اللبنانية اليمينية.

فور بدء الحرب والاجتياح الإسرائيلي للجنوب اللبناني، توجه أبو جهاد إلى الجنوب اللبناني ليلتحق بالقوات، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى الدامور، فتوجه إلى الجبل ليَنظّم عملية وصول المقاتلين الذين بدؤوا يحتشدون لصد الاجتياح الإسرائيلي. كما التقى عددًا من المقاتلين الذين قدموا من الجبهة ليسمع منهم عن تفاصيل ما حدث، حيث أكدوا له أنّ الهجوم الإسرائيلي كان قاسيًا

وصعبيًا، وقد عمد العدو إلى تقطيع أوصال القوات من خلال عزلها وتطويقها وحصارها، الأمر الذي تسبب بالانهيار السريع للقوات المقاتلة في الجنوب، في صيدا وصور، ومكّن القوات الإسرائيلية من الوصول إلى حدود العاصمة بيروت وحصارها.

اجتمعت القيادات الوطنية اللبنانية في بيروت الغربية في منزل صائب سلام[15]، وخلص الاجتماع إلى مطالبة ياسر عرفات بالانسحاب، تفاديًا لتدمير العاصمة. كما جاء الطلب الأميركي بخروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان رافعين الرايات البيضاء ومستسلمين. اجتمعت فورًا القيادة الفلسطينية لبحث الموضوع، انسحب الأخ أبو عمار من الاجتماع إلى الصلاة والاستخارة، ثم عاد ليقول للجميع "هبّت روائح الجنة"، واتخذ القرار الفلسطيني بالصمود والدفاع عن بيروت، فإما النصر أو الشهادة.

بدأ الاستنفار التام، واتُّخذ القرار بدء تحصين العاصمة بيروت، حيث بنى الأخ سعد صايل المتاريس حول العاصمة، بينما كان أبو جهاد يعمل على تنظيم القوات وتوزيعها، وتأمين عتادها للقتال.

أدّى الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية خلال فترة الحرب دورًا مهمًا، وقد كانت مهمتنا الأساسية العمل على تمتين الجبهة الداخلية، وتوفير الدعم اللازم للقوات والمدنيين. وقد شكّلنا لجانًا عدة، توزعت في مختلف المناطق، منها لجنة استقبال المهجرين من الجنوب اللبناني، وقد استقبلت هذه اللجنة المهجّرين وعائلاتهم، وأمّنت أماكن الإقامة والمساعدات الغذائية والطبية والمادية لهم.

كما تشكّلت لجنة صحية تولّت، بالتعاون مع الهلال الأحمر الفلسطيني، رعاية الجرحى. وفي ضوء الازدياد الكبير لعدد الجرحى في المستشفيات، وعدم وجود أماكن كافية لاستيعابهم، وفّر الدكتور فتحي عرفات أكثر من 25 مركزَ نقاهة لنقل الجرحى ورعايتهم في هذه المراكز بعد إجراء العمليات لهم، على

(15) صائب سلام (1905-2000): ولد في بيروت. شغل منصب رئيس الحكومة في فترات مختلفة، بين عامي 1952 و1973، في عهد رؤساء مختلفين.

نحو أفسح المجال لاستقبال الجرحى الجدد في ما توافر من أماكن. وقد فرزنا، في اتحاد المرأة، ومن خلال اللجنة الصحية، عددًا من الأخوات المتطوعات في هذه المراكز للمساعدة في تقديم الرعاية الصحية للجرحى، بحسب الإمكانيات المتوافرة. كما شكّلنا لجنة عسكرية ضمّت بعض الأخوات اللاتي شاركن في الدفاع عن الأحياء والمدنيين. كان العمل في ظروف الحرب صعبًا للغاية، إذ كان القصف الجوي وغارات الطائرات الإسرائيلية مستمرة ليل نهار، والتواصل بين العائلات صعبًا، وكانت جميع الأحياء والأماكن مستهدفة.

منذ الأيام الأولى للحرب لم نعد نلتقي أبو جهاد إلا وجيزًا، لانشغاله في غرفة العمليات. في ثالث أيام الحرب، عاد أبو جهاد إلى المنزل في ساعة متأخرة، حوالى الواحدة فجرًا، وغادر في الثالثة فجرًا، وترك لي قبل مغادرته رقم هاتف غرفة العمليات الجديدة للاتصال به في حالة الطوارئ. وبعد مغادرته بوقت قصير، اتصلت بي صديقة وسألتني عن أبو جهاد وصحته إن كان بخير. كان صوتها مضطربًا جدًا، وأكدت لها أنه بخير، وأنه غادر المنزل قبل وقت قصير، وعندما سألتها عن سبب اضطرابها، ومكالمتها في هذا الوقت المتأخر من الليل، أجابتني أن إذاعة "صوت إسرائيل" أعلنت عبر الراديو خبر مقتل أبو جهاد قبل قليل. نفيت لها الخبر، وأكدت لها أن إسرائيل تبثّ الشائعات للنيل من معنوياتنا، إلا أنني قلقت من المحادثة، وأغلقت الخط معها لأتصل بأبو جهاد أتأكد أنه بخير. اتصلت على الرقم الذي تركه لي، وجاءني صوته، فقلت: "الحمد الله على سلامتك، أنت بخير؟". أجابني: "نعم، لماذا تسألين؟". فأبلغته عن خبر مقتله، وضرورة سرعة تكذيبه.

الخبر كان قد انتشر، وقبل بزوغ الشمس توافد إلى منزلنا العديد من الإخوة والأصدقاء. وصل بعضهم يصيح ويبكي ويندب، إلى أن طمأنتهم أن الخبر مجرد إشاعة كاذبة من الإعلام الإسرائيلي. وعقد أبو جهاد لاحقًا مؤتمرًا يكذّب فيه الخبر.

مع مرور الأيام، كان القصف يشتد، وازداد الخطر على مكاتب القيادات الفلسطينية ومنازلهم التي أصبحت مستهدفة، ووصلني قرار بالخروج من منزلنا،

والانتقال إلى منزل آخر غير معروف. وفعلاً، انتقلنا إلى شقة في منطقة الفردان. وقد لاحظ أبو عمار وأبو جهاد أن أي بناية يدخلانها تتعرض للقصف على الفور. لذلك، كانا لا يطيلان المكوث في أي مكان يذهبان إليه. وفي ظل هذا الوضع، قام أبو جهاد بإجبار أبو عمار على الانتقال إلى أحد المنازل الآمنة، وبسرية تامة، بحيث لا يعرف مكانه غير عدد محدود جدًا من مرافقيه.

في منتصف إحدى الليالي، دُعينا لحضور جلسة للمجلس الثوري. عُقدت الجلسة بسرية في ملجأ قاعة سينما البيكاديلي في شارع الحمراء[16]. ترأس أبو عمار الاجتماع ووضعنا في صورة المطلب الأميركي الذي قدّمه فيليب حبيب[17]، أن تخرج قوات منظمة التحرير الفلسطينية مستسلمة ورافعة الرايات البيضاء. بالطبع، رفض جميع الحاضرين الطلب، وأكدنا على ضرورة الصمود والمقاومة وحماية بيروت.

أشاد أبو عمار في تلك الجلسة بدور الشباب والفتيات الذين يعملون، تطوعًا، لتوفير الغذاء للمدنيين، وتحدّث بشكل خاص عن قراره بضرورة فتح الأفران وتأمين الطحين، وطلب من الشباب والفتيات إدارتها، وكنا في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية نقوم بتوزيع الخبز على العائلات. كانت روح التعاون والتكافل عظيمة، وكان السكان الذين يتوافر لديهم الخبز يتبرعون بحصتهم للعائلات التي تحتاجها.

كان عمي أبو خليل وزوجته، والدا أبو جهاد، قد حضرا إلى بيروت لزيارتنا قبل الحرب، ومع تفاقم الوضع واندلاع الحرب، اقترحت عليهما أن يسافرا مع الأولاد إلى دمشق، إلا أن أبو جهاد رفض اقتراحي وبشدة، وعاتبني قائلاً: "لا يجوز أن نخرجهم، وعليهم البقاء هنا مثل جميع العائلات".

(16) يقع الملجأ على عمق خمسة طوابق تحت الأرض.

(17) فيليب تشارلز حبيب (1920-1992): أميركي من أصول لبنانية. نائب وزير الخارجية الأميركية لشؤون شرق آسيا وشؤون المحيط الهادي بين عامي 1967 و1969. كان له دور في عقد اتفاق وقف إطلاق النار بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في عام 1982، والذي ترتّب عليه انسحاب القوات الفلسطينية من بيروت.

جهاد، ابني البكر، كان يقيم في حرم الجامعة الأميركية ببيروت منذ بداية سنته الجامعية الأولى. وفي اليوم الأول للحرب، وبينما كانت إحدى الجارات لدي في المنزل، عاد جهاد إلى البيت، وعندما التقيته، كان يرتدي البدلة العسكرية ويحمل بندقية M-16، ويضع بعض القنابل على حزامه، وقال لي: "ماما، جئت أودعك، فأنا ذاهب إلى الجنوب، إلى قلعة الشقيف". وقفت أنظر إليه وقد هزّني منظره وجاهزيته للمقاومة، قلت له: "جهاد، اذهب، رافقتك السلامة! الله معك يا حبيبي. إذا عدت بالسلامة من الحرب فستكون تجربة عظيمة لك، وإذا استشهدت، فإن الله قد كتب لك الشهادة، مثلك مثل أبناء شعبنا، اذهب الله معك". قبّلته وخرج ليلتحق بالمقاومين في قلعة الشقيف. صُدمت الجارة من الحديث الذي دار بيني وبين ابني جهاد، وقالت: "كيف سمحتي له بالذهاب؟". فأجبتها: "أبناؤنا ليسوا أفضل من أبناء الآخرين، وهو يؤدي واجبه".

قال لي جهاد في ما بعد إنه لم يتمكن من الوصول إلى قلعة الشقيف للالتحاق برفاقه من الكتيبة الطلابية (كتيبة الجرمق) في القلعة، وإنه وصل إلى إحدى قواعد الدامور والتحق بالقوات هناك. وقال لي اللواء خالد سلطان، قائد الموقع، لاحقًا، إنّه عندما التقى جهاد، لفت نظره الشاب بهدوء أعصابه وتماسكه، بالرغم من قصف الطائرات الإسرائيلية الشديد على الموقع، وعندما سأل عن الشاب، قيل له إنه جهاد الوزير، ابن أبو جهاد، وقال لي حينها اللواء: "يا أم جهاد، بدي أشكركم على هذه التربية، فوجود أبنائكم مع المقاتلين يعطيهم معنويات عالية".

في يوم 11 حزيران/ يونيو 1982 استُشهد بطل معركة خلدة، العقيد الركن المهندس عبد الله صيام، وعددًا من المقاتلين معه، وهم يتصدون للقوات الإسرائيلية الغازية، أثناء منعهم من التقدم باتجاه مدينة بيروت، وكان جهاد قد كُلّف مع إحدى المجموعات بملاحقة بعض الجنود الإسرائيليين الذين هربوا للاختباء في إحدى البنايات المقابلة للموقع. أُصيب جهاد أثناء الاشتباك، ونُقل إلى مستشفى الجامعة الأميركية، وحمدًا لله، لم تكن إصابته خطرة، حيث كُسرت عظام الترقوة لديه، ولم يكن يحتاج إلى جراحة، واكتُفي بتجبيره، ومُنع من الحركة حتى شفاء الكسر. وقد حدّثني جهاد عن الإصابة في ما بعد، وقال إنه كان يفتش

في مبنى تحت الإنشاء، بحثاً عن الجنود الإسرائيليين الذين هربوا، وبينما هو في الطابق الثالث، سقطت قذيفة على المبنى، ومن شدّة الانفجار، أسقطته القذيفة من فتحة المصعد الفارغة من الطابق الثالث. وقد نقله رفاقه إلى المستشفى فورًا. وبسبب انتقالنا المستمر بين منزل وآخر خلال الحرب، لدواعٍ أمنية، ومع تعذر نقل جهاد، وحاجته لعدم الحركة، فقد استضافته إحدى صديقاتنا في بيتها إلى أن تعافى.

مع حصار بيروت، واشتداد المعارك، كانت الطائرات تغيرُ وتلقي صواريخها بلا توقف. كنا ننتقل من حي إلى آخر، ومن منزل إلى آخر، حتى لا يطالنا القصف. صوت القصف والصواريخ والانفجارات كان مرعبًا، وكنا نشعر بالطائرات تقترب، ونسمع الصاروخ وهو يسقط من الطائرة، يخرج الصاروخ ونحن ننتظر سقوطه على رؤوسنا. عندما تقترب الطائرات، كنت أنادي الأولاد ونغادر الشقة إلى الملجأ، أو إلى الشارع؛ في كثير من الأحيان، كان الوجود في الشارع أكثر أمانًا من البقاء في البنايات التي قد تسقط فوق رؤوسنا. كنا نخرج أحيانًا لنفاجأ بالعمارات حولنا قد دُمّرت، وبيوتًا قد أُزيلت، نشتمّ رائحة البارود والموت، ونسمع صراخ الجرحى والعائلات الثكلى. ننام ليلًا، إذا استطعنا النوم، بكامل ثيابنا، لنكون مستعدين للخروج في أي لحظة. قضينا ساعات طويلة بلا ماء أو كهرباء، نقلّب محطات الراديو لنتابع آخر الأخبار.

كان المبعوث الأميركي فيليب حبيب يجري محادثات مستمرة طوال فترة الحرب، وعندما كانت تُعلن هدنة كنا نأخذ نفسًا عميقًا، ونأمل أن تكون تلك الليلة هادئة، لننعم بنوم عميق وراحة، ولكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى تُخرق الهدنة، ليعود القصف برًا وبحرًا وجوًا من جديد.

قصف الطيران الإسرائيلي، خلال الحرب، العديد من المكاتب التي كانت تستخدمها القيادة الفلسطينية، ومن ضمنها مكتب المجلس الثوري في منطقة الجامعة العربية. وكان مكتب مؤسسة الشؤون الاجتماعية لرعاية أُسر الشهداء والأسرى والجرحى الذي أداوم فيه قد دُمر بشكل كبير، إذ كان يقع مقابل مكتب المجلس الثوري، الأمر الذي دفعنا إلى البحث عن مقر آخر لاستكمال عملنا،

فلجأنا إلى أحد المكاتب في شارع الحمراء. وفي أحد الأيام كنت بحاجة ملحة إلى مقابلة الأخ أبو عمّار لمعالجة موضوع مهم، فسألت عنه، وقيل لي إنه في عمارة عكر في الصنايع. توجهت إلى المبنى المذكور، وسألت أحد الحرّاس عند مدخل المبنى عن الأخ أبو عمار، فأبلغني أنه غادر منذ قليل. ثم سألت عن أبو جهاد والأخ سعد صايل، وقيل لي أيضًا إنهما غادرا منذ قليل. هممت بالمغادرة، عندما التقتني إحدى الأخوات عند المدخل ودعتني لشرب فنجان قهوة في مكتبها، وكانت تعمل على اللاسلكي، فاعتذرت لانشغالي، ووعدت بزيارتها قريبًا. غادرت المبنى وعدت إلى مكتبي المؤقت في شارع الحمراء، وقبل أن أصعد إلى الطابق الأول، سمعت صوت قصف، لم يكن قويًا، إلا أنَّه أثار موجة غبار ارتفعت عاليًا في السماء ولفّت المنطقة. عدت إلى السيارة وتوجهت نحو مصدر الدخان وهالني ما رأيت! بناية عكر التي كنت أقف على مدخلها قبل دقائق تحولت إلى كومة من التراب! وجدت الأخت التي كانت قد دعتني لشرب القهوة تقف أمام المبنى وهي في حالة هستيرية! لم تتحمل هول المنظر! تلك العمارة الكبيرة الشامخة أصبحت كومة رماد أمامنا. كتب الله لها عمرًا جديدًا عندما خرجت بعد حديثنا إلى البقالة القريبة لتشتري بعض الحاجيات، سمعت صوت القصف، واعتقدت أنّه قد يكون قريبًا، ولكنها التفتت ولم تجد المبنى بأكمله. لم ينجُ أحد من المبنى في ذلك القصف سوى طفلة صغيرة كانت نائمة في عربتها.

وقفنا للحظات أمام كومة التراب، والأخت بجانبي تُمسك يدي وتشدّ عليها من دون أن تشعر، من هول صدمتها. كنت مذهولة، أصابني دوار فاتكأت على إحدى السيارات القريبة بضع دقائق، إلى أن جاء أحد الإخوة وبدأ يُبعد الواقفين عن المنطقة، وأخذ بيدي، وطلب مني المغادرة فورًا، ودفعني داخل إحدى السيارات، وطلب منه الانطلاق. ذهبت السيارة مبتعدة عن الموقع، وما هي إلا لحظات حتى سمعنا صوت انفجار جديد. علمت بعدها أن السيارة التي كنت أتكئ عليها كانت ملغومة، وانفجرت بعد بضع دقائق من مغادرتي. كما علمت أن الشاب الذي طلب مني المغادرة فورًا، ودفعني داخل إحدى السيارات لأغادر، قد أُصيب من الانفجار واستشهد على الفور!

مع اقتراب نهاية الحرب، كانت المحادثات مستمرة، واتُّفِق على مغادرة قوات منظمة التحرير الفلسطينية والخروج من بيروت. استدعاني الأخ أبو عمّار لمقابلته، وأرسل إليّ الأخ وسيم الجيوسي لمرافقتي إلى مقرّه. وصلت إلى مكتب الأخ أبو عمّار الذي استقبلني فورًا، وأبلغني أنني سأغادر مع سفينة الجرحى المتوجهة إلى اليونان، ولكني رفضت، وأبلغته أني لن أغادر بيروت إلا بر فقتهم، ولن أترك أبو جهاد والأولاد أبدًا. ولكن عند وصول السفن، عاد الأخ أبو عمّار وأصرّ على ضرورة مغادرتي والأولاد على أول سفينة.

التزمت بالقرار، وكانت الإجراءات تقضي أن نصعد على ظهر السفينة بملابسنا العسكرية وحقيبة ظهر صغيرة، إضافة إلى الكلاشنكوف فقط. كان خروجًا مشرّفًا، بعد مقاومة استمرت أكثر من 88 يومًا، بعد أن فقدنا الآلاف من الشهداء والجرحى والأسرى.

في صباح يوم الخروج، ركبنا الشاحنات التي كانت ستنقلنا إلى الميناء، كان يرافقني جهاد وباسم وحنان، أما إيمان، فأصرت أن تبقى مع والدها وتغادر معه، كان يوم الخروج يومًا مشهودًا. كانت الجماهير اللبنانية والفلسطينية تملأ الشوارع على الجانبين، دموع وبكاء، يرشوننا بالورد والأرز، شرفات المنازل مليئة، الأعلام الفلسطينية واللبنانية ترفرف، الهتافات والأغاني الوطنية تصدح، إطلاق نار في الهواء لوداع المقاتلين. كان مزيجًا من الحزن وبعض الفرح، الحزن على الفراق والشهداء والدمار والاغتراب الجديد، والفرح بخروجنا سالمين مرفوعي الرأس، حاملين بنادقنا وليس رايات بيضاء.

كانت سفينتنا متوجهة إلى ميناء طرطوس في سورية. البحر كان هائجًا، وكانت أربع سفن من القوات الدولية ترافق السفينة لتأمينها. في منتصف الطريق، لاحظ القبطان اقتراب بعض الزوارق الحربية الإسرائيلية من سفينتنا وملاحقتها لنا، تفاداها القبطان متجهًا نحو قبرص. وبعد ابتعاد الزوارق الإسرائيلية، عدنا إلى مسارنا من جديد، ما كلفنا وقتًا طويلًا، حيث وصلنا بعد 18 ساعة، وكان من المفترض أن نصل بعد أربع ساعات.

أثار تأخر وصول السفينة إلى الميناء المحدد قلق القيادة الفلسطينية التي

ظلت تتابع الوضع إلى أن رست سفينتنا بأمان في ميناء طرطوس. وصلنا الميناء، وكان في استقبالنا الآلاف من أبناء شعبنا يهتفون لفلسطين والثورة.

عدنا إلى منزلنا في دمشق، وتفاجأت بوجود إيمان ووالديّ أبو جهاد في المنزل في سورية. علمت حينها أنّه بعد خروجنا، قرر أبو جهاد إرسال إيمان مع جدّيها برًا إلى دمشق، وصلوا دمشق قبلنا، وبقي أبو جهاد في بيروت لضمان خروج المقاتلين، ثم غادر على ظهر السفينة المتجهة إلى طرطوس.

الانشقاق

بعد أنْ وصلنا إلى سورية، أقمنا هناك فترة، وسجّلنا الأولاد باسم وإيمان وحنان في المدارس السورية، كان ابني البكر جهاد قد درس في الجامعة الأميركية في لبنان قبل الحرب، وبعد الخروج، انتقل إلى جامعة اليرموك في الأردن لاستكمال دراسته الجامعية.

قرّرت القيادة الفلسطينية الاحتفال بانطلاقة فتح في مطلع كانون الثاني/ يناير 1983 في عدن في اليمن، وكانت الاحتفالات كبيرة، تضمنها عرضًا عسكريًا لقواتنا كافة، الأمر الذي أرادته القيادة لإرسال رسالة واضحة أن فتح ما زالت قوية، حتى بعد الحرب في لبنان، وأننا، مع خروجنا، لا نزال نمتلك القوة العسكرية لاستكمال النضال، وتبع الاحتفالات اجتماع آخر للمجلس الثوري[18]. عدنا إلى الأردن، وعاد أبو جهاد إلى البقاع، بينما عاد أبو عمّار إلى تونس، وهناك اتخذت القيادة الفلسطينية تونس مقرًا لها.

كان أبو جهاد يقضي معظم وقته في القواعد في البقاع، يعمل على لملمة الوضع، وإعادة ترتيب قواتنا وتسليحها وبناء قواعدنا، بعد الخروج من بيروت. وكان يعود إلى دمشق للقائنا، وعقد اجتماعات مع القيادة الفلسطينية، لكنه سرعان ما كان يغادر عائدًا إلى القواعد في البقاع.

(18) عُقد اجتماع المجلس الثوري في عدن، في الفترة بين 25 و27/ 1/ 1983.

بعد الخروج من لبنان، ارتفعت أصوات من مجموعة من كوادر الحركة تطالب بالتغيير، وبسحب الثقة من أبو عمّار ومن قيادة الحركة. في البداية، لم تأخذ القيادة الفلسطينية الموضوع على محمل الجد، إلى أن بدأ نمر صالح (أبو صالح)، وسعيد مراغة (أبو موسى)[19]، وقدري، وموسى العملة (أبو خالد العملة)، يحاولون السيطرة على القواعد في سورية عسكريًا.

وأذكر، في صباح أحد الأيام، اتصالًا ورد إلى أبو جهاد من نصر يوسف[20] الذي كان حينها قائد قوات اليرموك، ومقره في البقاع، ونحن في بيتنا في دمشق. كنت أراقب أبو جهاد وهو يستمع إليه باهتمام دون أن يُعلّق. في ما بعد، فهمت منه أنّ أبو خالد العملة وأبو موسى قد توجّها إلى الكتيبة الثانية في قوات اليرموك، وسيطرا عليها، وانتقلوا إلى المواقع الأخرى في محاولة للاستيلاء عليها بالطريقة نفسها.

شعر أبو جهاد بخطورة الوضع، فبدأ يحشد الكوادر ويجمع الضباط لمواجهة هذه الاعتداءات، وأعطى تعليماته لحشد القوات، وعمّم على الجميع ضرورة المحافظة على مواقعهم. وقد وجّه اللّوم حينها إلى نصر يوسف، لتركه موقعه، وعدم دفاعه عن الكتيبة. وقد استمر وجود أبو جهاد في القواعد العسكرية، حيث

---

(19) سعيد محمود مراغة (أبو موسى) (1927–2013): وُلد في بلدة سلوان شرق القدس. التحق بالكلية العسكرية الأردنية وتخرج فيها ضابطًا في الجيش العربي الأردني. التحق بحركة فتح في عام 1970، وساهم في تشكيل قوات اليرموك وقاد كتيبتها الأولى، ومن ثم أصبح قائدًا لقوات القسطل في الجنوب اللبناني، ونائبًا لمدير العمليات المركزية، وعضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح. شارك في قيادة الانشقاق في عام 1983، وتأسيس ما سُمي 1983 بـ"فتح الانتفاضة"، وأصبح أمين سر لها منذ عام 1985.

(20) مصطفى سالم البشتاوي (نصر يوسف) (1943–): ولد في قرية جسر المجامع في وادي الأردن. تلقى تعليمه في الشونة ثم في مدينة إربد، وحصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ الإسلامي من جامعة بيروت العربية. التحق بصفوف حركة فتح عام 1965، وانتقل إلى الصين ليتلقى دورة عسكرية في كلية نانكين عام 1967. خدم في شمال الأردن، ثم في قطاع الجولان على الجبهة السورية. اعتقلته القوات السورية في البقاع، خلال فترة دعمها للانشقاق في حركة فتح، وحُوّل إلى محكمة عسكرية، بتهمة إعاقة عمل القوات السورية في لبنان، وأُفرج عنه لاحقًا بوساطة عربية. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية عام 1989، ثم عاد إلى غزة عام 1994، لتولى إدارة الأمن الوطني برتبة لواء.

دارت اشتباكات عنيفة للحفاظ على هذه القواعد، واستشهد خلالها العديد من خيرة كوادر الحركة.

في نهاية أيلول/ سبتمبر 1982، كان الأخ أبو عمّار يرتّب زيارة إلى السعودية لأداء مناسك الحج، ولقاء المسؤولين السعوديين، وكان يرغب بمرافقة الأخ سعد صايل له في هذه الرحلة. تحدث معه، إلا أن الأخ سعد لم يرغب بالذهاب، وأراد قضاء العيد مع عائلته وفي القواعد. طلب الأخ أبو عمّار من أبو جهاد أن يقنع سعد صايل بالسفر معه. وبالفعل، اتصل أبو جهاد بسعد هاتفيًا، وحاوره مدة طويلة، ولكنه لم يستطع تغيير رأيه. وفي النهاية، تقرر أن يذهب أبو جهاد في رحلة الحج مع أبو عمّار.

وفي 27 أيلول/ سبتمبر 1983، وأثناء وجود أبو عمّار وأبو جهاد في الحج، اغتيل القائد الشهيد سعد صايل وهو في طريق عودته من زيارة للقواعد العسكرية في أول أيام عيد الأضحى. تعرّض موكبه لكمين عسكري؛ حوصر، وأُطلقت عليه النار، فاستُشهد لاحقًا في المستشفى إثر النزيف الذي تعرض له من جرّاء الرصاص. وبعد سبعة أعوام، وفي إحدى جلسات المجلس الثوري، أعلن أبو عمّار بوضوح أن المنشقين هم من كانوا وراء اغتيال الشهيد سعد صايل[21].

لاحقًا، عُقد اجتماع المجلس الثوري، وكان أول اجتماع بعد الخروج من لبنان، في دمشق، ولم يحضره أبو جهاد الذي كان في البقاع يصدّ محاولات السيطرة على هذه القواعد. خلال المؤتمر، وزعت مجموعة من أعضاء اللجنة المركزية وبعض الكوادر بيانًا ضد إجراءات اتخذها أبو عمّار بعد الخروج من بيروت، وكانت هذه الإجراءات ذريعة للمجموعة التي خرجت عن الصف الفتحاوي.

عيّن أبو عمّار ضباطًا، ونقل آخرين إلى مواقع جديدة[22]. وعلى الفور، أعلن

(21) ثمة أنباء متضاربة عن عملية الاغتيال، منها أنه تعرض لكمين من مجموعات تابعة لحركة أمل، على بعد أمتار من حاجز للجيش السوري.

(22) اتخذ ياسر عرفات هذه القرارات في 7 أيار/ مايو، في اجتماع المجلس العسكري الأعلى، لمواجهة ما تسرب من أنباء عن ترتيبات الانشقاق.

العقيد سعيد موسى (أبو موسى) رفضه هذه القرارات، وقد أدّت هذه القرارات إلى استفزاز عدد من الكوادر والقيادات بخاصة، لأن بعض الضباط الذين تمت ترقيتهم، مثل الحاج إسماعيل، قد اتُّهموا بسوء أدائهم خلال المعارك، وانسحبوا من قواعدهم العسكرية، أو هربوا من المعركة.

وناقش المجلس موضوع الانشقاق، إلا أنّ الكثير من أعضاء اللجنة المركزية والكوادر، لم يقدروا، في البداية، جدّية موضوع الانشقاق أو خطورته، وحجم التدخل السوري والليبي في ذلك. لكن بعد محاولات السيطرة العسكرية على القواعد، وقفت اللجنة المركزية وقفة رجل واحد ضد الانشقاق والتدخل السوري. وخلص المجلس إلى قرار يقضي بضرورة بدء حوار داخلي لحل ما أسموه "الإشكاليات الداخلية"، وعودة الأمور إلى نصابها.

في حينها، كان الأخ أبو عمّار سعد، معتمد الإقليم في سورية، يتابع موضوع رفع المنع الأمني عني هناك، ونجح بعد جهود كبيرة واتصالات حثيثة، وسلّمني القرار الذي مكنني من حضور المجلس، والبقاء في سورية فترة. وهناك، وبعد الحرب، وقد زادت أعداد الشهداء، ومعها كبرت أعباء العمل في مؤسسة رعاية الشهداء، الأمر الذي حرصت على متابعته مع الإخوة في الأقاليم كافة.

رسالة شمس

أثناء وجودي في سورية، وخلال أحد أيام شهر رمضان الفضيل في حزيران/ يونيو من عام 1983، وبينما كنت أحضّر طعام الإفطار مع الأولاد قبل آذان المغرب بدقائق، كنتُ أُسرع الخُطى بين المطبخ ومائدة الطعام، وقد تَجمَّع الأولاد حولها، وكان ذهني قد شرد عند أبو جهاد الذي لم يجلس معنا طوال أيام رمضان ولا مرة واحدة، لأنه كان موجودًا منذ مدّة في البقاع اللبناني مع القوات هناك، والتي بقيت هناك بعد الخروج من بيروت، يسألني الأولاد: "متى سيعود بابا؟"، فأجيبهم: "قريبًا إن شاء الله".

عندها، قرع جرس الباب، استغربت من الزائر في هذه الساعة من الوقت، فهو ميعاد الإفطار من يوم صيام. فتحت الباب، فوجدت شابًا ألتقي به أول مرة،

قال لي فورًا بعد أن لاحظ استغرابي: "أنا شمس، صديق للأخ أبو جهاد، ولديّ رسالة مهمة له، لم أجد أقدر منك على إيصالها إليه وإلى الأخ أبو عمار".

قلت له تفضل، قال: "أريد بسرعة إبلاغهما أن القيادة السورية قد اتخذت قرارًا بمنعهما من البقاء على الأراضي السورية والأراضي التي تسيطر عليها سورية، وأنهما شخصان غير مرغوب بهما". واستطرد قائلًا: "وقولي للأخ أبو عمار ألا يذهب إلى طرابلس عن طريق حمص، فقد أُعِدَّ له كمين على الطريق. كما أن هناك حواجز عسكرية طيارة سوف تنتشر في الشوارع، وتصادر السيارات التي بحوزة كوادر فتح، والأسلحة التي معهم". وقال: "أرجوكِ أم جهاد أن توصلي هذه الرسالة الآن وفورًا، وقولي لأبو عمار إنّها رسالة من شمس"، واستأذن وخرج من المنزل مسرعًا.

بدأتُ بالاتصالات الهاتفية، أبحث عن الأخ أبو عمار، وعلمت أنه موجود في اجتماع مع القيادة الفلسطينية في منزل الأخ محمد غنيم أبو ماهر. وبعد محاولات عدة، ردّ على الهاتف قائلًا: "أهلًا أختي أم جهاد، فيه حاجة؟". قلت: "نعم، أريد أن أراك للضرورة". قال: "سوف أمرّ عليكِ بعد الانتهاء من الاجتماع، وقبل مغادرتي إلى طرابلس". قلت: "لا، أريد أن أراك الآن فورًا!". فقال: "حسنًا، أنا بانتظارك".

نزلتُ إلى الشارع ولم أجد أي سيارة لأن الوقت كان ساعة إفطار، مشيت قليلًا حتى حظيت بسيارة أجرة، أعطيته العنوان وسرنا إلى المزة. كنت أعرف بيت الأخ أبو ماهر جيدًا، وقد زرناه كثيرًا، ولكن الأفكار التي كانت تتصارع في ذهني نتيجة رسالة شمس قد أربكتني ولم أتمكن من معرفة المنزل. كان السائق يبحث عن العنوان، فدار حول المنزل مرات عدة، الأمر الذي لفت نظر المرافقين وحرس منزله، فأوقفوا السيارة وسألوني عمن أبحث، فقلت: "بيت الأخ أبو ماهر". قالوا: "أنتِ أمامه، تفضلي".

دخلت منزل الأخ أبو ماهر، وكان عدد من الإخوة في القيادة موجودين،

أذكر منهم أبو عمّار، وخالد الفاهوم[23]، وجورج حبش[24]، وأبو النوف (نايف حواتمة)، وأبو ماهر (محمد غنيم)، وأبو مازن، وآخرين. سلّمت على الجميع، وأخذني أبو عمّار من يدي إلى الغرفة المجاورة، حيث أبلغته رسالة شمس، ورجوته ألا يذهب إلى طرابلس عن طريق حمص، وأبلغته بقرار طرده وأبو جهاد من الأراضي السورية والأراضي التي تحت السيطرة السورية، وعن الحواجز الطيارة التي سوف تصادر السيارات والأسلحة من قيادات وكوادر فتح. استمع إليّ ثم وقال: "لا عليك يا أم جهاد، وصلت الرسالة".

في صباح اليوم التالي، حوالى الساعة الثامنة صباحًا، دقّ جرس الهاتف، كان على الخط الأخ محمد الكحلوت (أبو إسماعيل)، مسؤول مؤسسة رعاية أسر الشهداء في الساحة السورية، قال لي: "لدينا اليوم شهيد وجرحى! فقد وقع موكب سيارات الأخ أبو عمّار في كمين على طريق حمص، وسقط شهيد وتسعة جرحى"، صرخت وقلت: "أين أبو عمّار؟". قال: "إنّه في مكتبه. لم يكن مع الموكب"[25]. شعرت بغضب شديد، فقد أبلغت أبا عمّار عن الكمين على الطريق، فكيف يرسل السيارات لتقع في الكمين؟ لماذا لم يصدق رسالة شمس؟

خرجت مسرعة من البيت وتوجهت إلى مكتبي في مؤسسة أسر الشهداء، حيث كان أبو عمار هناك صدفة ذلك الصباح، وعندما وصلت، كان باب المكتب مفتوحًا، وعندما رآني، خرج أبو عمار مسرعًا من الغرفة، وفيها تواجدت، على غير العادة،

---

(23) خالد عبد المجيد الفاهوم (1922-2006): ولد في مدينة الناصرة. تخرج في الجامعة الأميركية في بيروت. انضم إلى حزب الوحدويين الاشتراكيين بين عامي 1961 و1964. شارك في تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام 1964، وشغل عضوية اللجنة التنفيذية بين عامي 1964 و1971. أصبح رئيسًا للمجلس الوطني الفلسطيني بين عامي 1968 و1984، ورئيسًا لجبهة الإنقاذ الوطني بين عامي 1983 و1987. توفي في دمشق.

(24) جورج نقولا حبش (1926-2008): وُلد في اللد، وأنهى فيها تعليمه الأساسي، ثم أكمل تعليمه الثانوي في يافا والقدس. عمل مدرّسًا في يافا، ثم انتقل إلى بيروت، وفي عام 1951، تخرّج طبيبًا في الجامعة الأميركية، وخلال تلك الأعوام، أسس مع رفاق له، حركة القوميين العرب. بعد حرب حزيران/ يونيو 1967، أسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وظلّ أمينها العام حتى استقالته في عام 2000. ظلّ حبش معارضًا للمحادثات والمشاركات لمنظمة التحرير في أي مفاوضات. توفي في عمّان ودُفن فيها.

(25) في 23/ 6/ 1983، قُتل أحد حراس ياسر عرفات الشخصيين، وجُرح تسعة في هذا الكمين.

القيادة الفلسطينية جميعها، سحبني من يدي إلى داخل الغرفة أمام الجميع، وطلب إليّ أن أعيد عليهم محتوى الرسالة التي جاء بها شمس الليلة السابقة، وأعدت الرسالة على الجميع، ثم قلت: "خير! ما بكم مبكرين في الاجتماع؟ ماذا حصل؟".

قال أحدهم: "رسالتك كانت صحيحة، فقد جاء ملازم أول سوري يحمل ورقة صغيرة بيده، ووقف أمام أبو عمّار، وتلا عليه نص الرسالة، أنّه شخص غير مرغوب بوجوده في سورية، وأن عليه المغادرة فورًا وعدم العودة إلى الأراضي السورية أو الأراضي التي تشرف عليها سورية (أي لبنان)".

قلت: "إذًا، سوف يغادر الأخ أبو عمّار؟". قالوا: "نعم، في الساعة الواحدة". سألت: "هل سيغادر وحده؟". قالوا: "نعم وحده". فقلت حينها: "أعتقد أنه يجب أن تغادروا جميعًا للتضامن معه، فذلك سوف يحرج السوريين". ضحكوا، وقال أحدهم: "لا نستطيع المغادرة". بقينا جالسين معه في المكتب، وكأن على رؤوسنا الطير، إلى أن حان موعد المغادرة، رافقناه إلى مطار دمشق، ومن هناك استقل طائرة مدنية تونسية مع اثنين من المرافقين، إلى تونس. ومع قرار طرد أبو عمّار من سورية، ومحاولات المنشقين السيطرة على القواعد، والدعم السوري الواضح لهم، ازدادت الأوضاع تعقيدًا.

خلال مشاركة أبو جهاد في اجتماعات اللجنة الأردنية - الفلسطينية المشتركة، قابل جلالة الملك حسين الذي عرض عليه الإقامة في الأردن، هو والعائلة، وقال له جلالة الملك: "الديرة ديرتك والعشيرة عشيرتك يا أبو جهاد، وأهلا وسهلًا فيك".

فرح أبو جهاد بالعرض الذي قدّمه جلالة الملك حول إقامته في الأردن، لأن ذلك سيمكّنه من الاقتراب إلى الأرض المحتلة، مما يسهل تواصله مع أبناء شعبنا هناك. اتصل بي هاتفيًا، وطلب إليّ أن آتي إلى عمّان فورًا. تركت الأولاد في دمشق وذهبت إلى عمّان، وبدأنا نبحث عن بيت للإقامة.

انتقلت للإقامة في الأردن، وسجّلت الأولاد في المدارس، وتابعت عملي من هناك في مؤسسة رعاية الشهداء، بينما أبو جهاد ظل يتنقل بين الأردن وسورية

والبقاع قبل أن يصدر قرار طرده مع أبو عمّار من الأراضي السورية[26]، حيث انتقل من البقاع إلى طرابلس في شمال لبنان.

طرابلس: الحرب الأهلية الفلسطينية

مع ازدياد الهجمات على قواعدنا العسكرية في البقاع، وفشل الحوارات مع السوريين، ودعم النظام السوري والليبي للمنشقين، واستفزازاتهم المستمرة، كان التوتر سيد الموقف، وبدأ الشعور أن مواجهات عسكرية أقوى من السابق ستقع قريبًا ضد حركة فتح. كان السوريون والمنشقون قد أقاموا حواجز عسكرية على الطرقات، مع تعليمات واضحة بضرورة اعتقال كلٍ من أبو جهاد وأبو عمار في حال كانا في الأراضي السورية، أو الأراضي التي تسيطر عليها سورية.

كان أبو جهاد في البقاع، وكان معه في ذلك اليوم الأخ ممدوح نوفل[27] الذي كان عضوًا في المجلس العسكري، وقياديًا في الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. عندما علم أبو جهاد بأمر إبعاده عن الأراضي السورية، أو المناطق التي تشرف عليها سورية، نام تلك الليلة في البقاع في بلدة سعد نايل، وفي صباح اليوم التالي توجه إلى مدينة طرابلس في موكب من سيارتين، ورافقه في تلك الرحلة الأخ معين الطاهر، قائد كتيبة الجرمق (الكتيبة الطلابية) الذي كان في السيارة الأولى التي

---

(26) طُرد أبو عمّار من دمشق في 24/ 6/ 1983.

(27) ممدوح نوفل (1944–2006): ولد في مدينة قلقيلية، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي فيها، ثم التحق بدار المعلمين. انتمى إلى حركة القوميين العرب عام 1961، وانتقل إلى الجناح العسكري للحركة "شباب الثأر" و"أبطال العودة" عام 1965، وشكّل مجموعة مسلحة في منطقة قلقيلية عام 1966. بعد هزيمة حزيران/ يونيو 1967، التحق بالعمل الفدائي في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منذ بداية تأسيسها، ساهم في تأسيس الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في شباط/ فبراير 1969، وتولى مهمة قيادة قواتها العسكرية بين عامي 1972 و1988، وكان عضوًا في مكتبها السياسي ولجنتها المركزية. وهو عضو في المجلس العسكري الأعلى للثورة الفلسطينية منذ تأسيسه عام 1974. تولى مهمة قيادة قوات الثورة في لبنان، بين عامي 1986 و1988. غادر لبنان إلى تونس، وعُيّن عضوًا في اللجنة العليا لشؤون الوطن المحتل. ساهم في تأسيس الاتحاد الديمقراطي الفلسطيني "فدا"، وكان عضوًا في قيادته الأولى. عاد إلى الضفة الغربية في 3/ 3/ 1996 وأصبح عضوًا في المجلس الأعلى للأمن القومي الفلسطيني، ومستشارًا للرئيس للشؤون الداخلية.

يقودها الأخ سعيد، أحد مرافقي أبو جهاد، وكلما وصلوا إلى أحد الحواجز السورية المنتشرة على طول الطريق، كان سعيد يقول لعناصر الحاجز: " القائد ورا"، دون أن يوضح هوية القائد، ويمر الموكب بسرعة دون أن يتيح المجال لأي استفسار، إذ كان مرور المواكب القيادية أمرًا مألوفًا في ذلك الوقت على الحواجز، لقيادات سورية ولبنانية وفلسطينية. وعلى مقربة من مدينة بعلبك، أصرّ أبو جهاد على زيارة قيادة قوات الكرامة التي كان الأخ علاء حسني قد أصبح قائدًا لها، والتي تقع قرب حاجز للقوات السورية. تسرّب خبر الزيارة للقوات السورية التي لاحظت أن هناك شخصية مهمة تزور الموقع، وسرعان ما تكثّفت التعزيزات السورية في المنطقة. وعلى الفور، غادر أبو جهاد المكان إلى طرابلس عبر الهرمل في سيارة عسكرية تابعة للجبهة الديمقراطية، رفقة قائدها في المنطقة والأخ معين وأحد المرافقين، وظلت سياراته ومرافقيه الآخرين في الموقع، ولم تنتبه القوات السورية إلى ذلك.

أثناء وجود أبو جهاد في طرابلس، ذهبت لزيارته مرة عندما حمّلني أبو عمّار رسالة مهمة إليه، سلّمتها لأبو جهاد وعدت بالرد إلى أبو عمّار في تونس بعد بضعة أيام. وبعد أن اشتد الحصار على أبو جهاد في طرابلس، قلقت عليه، فقررت ترك الأولاد في عمّان وذهبت للالتحاق به في طرابلس.

مع أن قرار حظر دخولي إلى سورية كان قد رُفع سابقًا، توجّهت من عمّان إلى الحدود السورية. عندما وصلت، أوقفني ضابط سوري وسألني: "هل أنت انتصار الوزير؟". قلت: "نعم". سألني عن صلة قرابتي مع أبو جهاد، فقلت له: "إن أبو جهاد زوجي". قال لي: "هو ممنوع من دخول الأراضي السورية"، فأجبته: "صحيح، هو ممنوع من الدخول، لكنني زوجته، وليس هناك قرار بمنع دخولي إلى الأراضي السورية". غاب الضابط نصف ساعة تقريبًا، وعاد ليعطيني جواز السفر ويسمح لي بدخول سورية.

عندما وصلت الأراضي السورية، أردت أن أبلغ الإخوان بوصولي وقراري الذهاب إلى طرابلس، فتوجهت إلى مكتب التعبئة والتنظيم عند الأخ أبو ماهر غنيم. وعندما أبلغته بذهابي إلى طرابلس جن جنونه، وقال لي لا يمكنك ذلك، وأن عدم ذهابي هو أمر تنظيمي لا أستطيع مخالفته، فقلت له: "أنا لم أخالف أي أمر تنظيمي

بحياتي، لكن هذه المرة سأخالف، وقد جئت إلى هنا لأضعك في الصورة فقط في حال حدث معي أي شيء على الطريق". وأضفت: "وعند العودة من طرابلس حاسبني".

بدأت أبحث عن طريقة للوصول إلى طرابلس، فتواصلت مع شاب يُدعى محمد الجندي، وهو أحد مرافقي رفعت الأسد، قائد سرايا الدفاع، وشقيق الرئيس السوري حافظ الأسد، وطلبت منه أن يوصلني إلى طرابلس عند أبو جهاد، فوافق. اتفقنا أن يحضر إلى البيت في ركن الدين ليصطحبني إلى طرابلس في تمام الساعة الثانية ظهرًا، كما طلب مني أن أتخفّى بلباس مختلف يغيّر مظهري، حتى لا يتمكن أحد من التعرّف إليّ، خاصة أن الطريق مليئة بالحواجز، وهناك إمكانية أن يتعرف إليّ أحد المنشقين.

غطّيت رأسي بمنديل، ووضعت نظارات شمسية كبيرة، وانطلقنا على طريق العريضة المؤدية إلى مدينة طرابلس اللبنانية. كانت الطريق مليئة بالحواجز الطيارة؛ من الجنود السوريين، ورجال المخابرات السورية، ورجال من جماعة سعيد موسى (أبو موسى) المنشق عن حركة فتح. عبرنا الحواجز كافة، وكان هو معروفًا لديهم، وعند كل حاجز كان يقول لهم إنني ابنة خالته.

أخيرًا، وصلنا طرابلس، وتوجهنا فورًا إلى مكتب أبو جهاد، وكان، حين وصولنا، مجتمعًا مع بعض الإخوة، أذكر منهم كمال الشيخ[28] الذي كان قد انضم إلى المنشقين ثم تركهم، وعلاء حسني. وكان يطلب منهم أن يقنعوا أبو موسى

---

(28) فيصل محمد الشيخ يوسف (كمال الشيخ) (1945-2019): ولد في المزرعة الغربية، قضاء رام الله. درس التاريخ في جامعة بيروت العربية، ثم في الجامعه اليسوعية في بيروت. التحق بحركة فتح وتفرغ فيها عام 1967. تلقى دورة عسكرية في جمهورية الصين الشعبية عام 1968، وعُيّن قائدًا للوحدة الشمالية في قطاع الجولان، ومن ثم انتقل الى كتيبة نسور العرقوب. اجتاز دورة قادة كتائب في الاتحاد السوفياتي عام 1975، وعُيّن قائدًا لكتيبة شهداء أيلول في قوات القسطل حتى عام 1982. اجتاز دورة القيادة والأركان في باكستان بين عامي 1979 و1980. انتقل إلى جهاز الشرطة الفلسطينية، وعُيّن نائبًا لمدير العمليات المركزية للشرطة الفلسطينية عام 1995. عُيّن محافظًا لنابلس في عام 2006، وعُيّن مديرًا عامًا للشرطة الفلسطينية في عام 2007. انتُخب عضوًا في المجلس الثوري في عام 2009، وعُيّن مسؤولًا لهيئة الرقابة الحركية وحماية العضوية. وبعد المؤتمر السابع، أصبح عضوًا في المجلس الاستشاري للحركة.

بالعودة عن الانشقاق، ويشرح لهم أن ما يقوم به المنشقون ما هو إلا جريمة وطنية بحق شعبنا، وأنه يكفينا ما وقع من شهداء، ولا داعي للاستمرار على هذا النهج. وقال لهم إنه لا يزال لديه أمل في عودتهم إلى الطريق الصحيح، وعد بمعالجة القضايا كافة، من خلال الدعوة إلى عقد مؤتمر لفتح، ثم ودّعهم، والتفت إليّ قائلًا: "ما الذي أتى بك؟". قلت: "جئت لأكون بجانبكم في الأيام القادمة". قال: "لتعيشي حصارًا آخر؟". قلت: "نعم، إلى جانبكم".

كان الأخ أبو عمّار قد وصل فجأة إلى طرابلس على متن سفينة، قادمًا من قبرص، متنكرًا بحلق ذقنه، وارتداء قبعة، ووضْع غليون في فمه. وعلِمنا في ما بعد، أن أبو عمّار كان قد وصل إلى قبرص بشكل مفاجئ، وكان السفير فؤاد البيطار بانتظاره، فطلب منه أبو عمّار أن يدبّر له قاربًا بسرية تامة ليصل به إلى طرابلس، وهذا ما حصل. ولضمان السرية، وحتى لا ينتشر الخبر، قطع السفير خطوط هاتف السفارة كافة، وحجز طاقم السفارة كاملًا داخل المبنى إلى أن تأكد من وصول أبو عمّار بالسلامة إلى طرابلس.

عند انتشار خبر وصول أبو عمّار إلى طرابلس، اشتد غضب السوريين الذين شددوا الحصار على المدينة من البر، بينما كانت إسرائيل تحاصرها من البحر، وقد كنت آخر من دخل إلى طرابلس. في المساء، ذهبت مع أبو جهاد إلى مقر القيادة للسلام على الأخ أبو عمّار، وقد غضب عندما رآني، وقال لي: "لماذا أتيتِ؟ لا يجوز أن تبقي أنت وأبو جهاد في الخطر هنا، ولمن تركت أولادك؟". قلت: "هم بخير، وأنا جئت لأكون معكم في هذا الحصار الجائر". فقال: "حسنًا، تبقي أيامًا فقط ثم تعودين، وسأدبر لك طريق العودة إلى الأردن".

شنّ المنشقون هجمات عدة على قواعدنا المنتشرة في البقاع، وحاولت الجبهتان الشعبية والديمقراطية مرارًا التوسط دون نتيجة، وقدّم الرفاق في البقاع اقتراحًا لعقد مؤتمر عام للحركة، وتشكيل كتيبة مشتركة للعمل فورًا خلف خطوط العدو الصهيوني التي كانت مواقعه تبعد كيلومترات معدودة عن مواقع الطرفين، ولم يستجب فريق الانشقاق. في هذه الفترة، قرر الجيش الإسرائيلي الانسحاب من منطقة الجبل، فتقرر تعزيز قواعدنا المتقدمة في منطقة الجبل، ونقل القوات التي

يقودها الأخ نصر يوسف من منطقة رياق، حيث يحاصرها لواء دبابات سوري، إلى منطقة شتورة، تمهيدًا لإخلاء البقاع والانتقال إلى الجبل، ودعم قوات الحزب التقدمي الاشتراكي والحركة الوطنية اللبنانية فيه، وبذلك تخرج قواتنا من دائرة السيطرة السورية وتنهي حالة الاقتتال الداخلي مع المنشقين، وبالفعل تشكّلت قوات مشتركة مع الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية وجبهة التحرير الفلسطينية، وتمكنت قواتنا من أداء واجبها، والوصول إلى أطراف بيروت ومشارف الجنوب، واستشهد لنا عدد كبير من الشهداء، كما تمكّنت قوات نصر يوسف من الوصول ليلًا إلى البقاع تمهيدًا لنقلها إلى الجبل، وترافق ذلك كله مع وصول الأخ أبو عمّار إلى طرابلس. أزعجت هذه التطورات القيادة السورية، فحاصرت قواتنا في البقاع بالدبابات، ووجهت إنذارًا لها بالتجمع لترحيلها خارج البقاع. انتشرت المتاريس في الشوارع في مقابل الدبابات السورية، وكان قائد القوّات في البقاع حينها الأخ زياد الأطرش، على تواصل دائم مع أبو جهاد على جهاز اللاسلكي. وتقرر حقن الدم السوري والفلسطيني، وبالفعل، في اليوم الثاني، خرجت قواتنا من البقاع بمواكبة عسكرية سورية، وسط وداع جماهيري كبير نثر فيه أهل المنطقة الأرز والورود على القوات المنسحبة. قبل الانسحاب، دعا غازي كنعان[29]، مسؤول الاستخبارات السورية في لبنان، بعض القيادات الفتحاوية إلى إفطار في مقره.

بعد الإفطار، استبقى الإخوة نصر يوسف وإسماعيل عنبة[30] واعتقلهم،

---

(29) غازي كنعان (1942–2005): ولد في اللاذقية. تخرج عام 1965 في الكلية الحربية، وشغل بعدها منصب رئيس فرع مخابرات المنطقة الوسطى. عُيّن رئيسًا لفرع الأمن والاستطلاع للقوات السورية العاملة في لبنان بين عامي 1982 و2002، ثم عاد إلى دمشق ليترأس إدارة الأمن السياسي، وعيّن وزيرًا للداخلية في أكتوبر/ تشرين الأول 2004 وحتى تاريخ انتحاره في 12/ 10/ 2005.

(30) كان إسماعيل عنبة مكلفًا بمهمات ضابط ارتباط بين حركة فتح والأجهزة السورية، وساهم في مراحل مختلفة في تنسيق العلاقات السورية - الفلسطينية، وحل الإشكاليات الميدانية الطارئة. احتُجز في مقر غازي كنعان، وأُخضع للتحقيق، وتم الضغط عليه لإجباره على الانضمام إلى المنشقين عن حركة فتح، ولكنه رفض، فسُجن وتعرض لتحقيق قاسٍ. وبقي في سجن الصويري حتى قصفه الطيران الإسرائيلي ودمره بالكامل، فوجد إسماعيل كوة وهرب منها إلى البقاع، ومن ثم إلى طرابلس فقبرص، إلى أن غادرها إلى تونس: معين الطاهر، **تبغ وزيتون حكايات وصور من زمن مقاوم** (عمّان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 271-272.

فنُقل نصر إلى سجن المزة في دمشق، في حين سُلّم إسماعيل عنبة إلى المنشقين، بعد رفضه الانضمام إليهم. عند وصول القافلة إلى مدينة الهرمل استوقفهم أبناء تنظيم فتح في الهرمل، وأبلغتهم أن القوات السورية قد أعدت مكاناً لاحتجازهم في منطقة تُدعى جباب الحمر بالقرب من الهرمل، وعلى الفور، توقف الموكب، وانتشر في تخوم الهرمل، وبعد يومين من المفاوضات مع غازي كنعان، بوجود وجهاء البلدة، تمكّن أبناء الهرمل من إيجاد مهرب من الحصار السوري عبر إرسال جرافة فتحت طريقًا باتجاه منطقة الجرود دون علم القوات السورية، وكان أبو جهاد قد أعطى تعليماته لتواصل قواتنا تقدمها، وغادرت منطقة الحصار باتجاه أعالي الجرود.

في صباح اليوم التالي، تمكن أبو جهاد من الوصول إلى هذه القوات قادمًا من طرابلس عبر جرود الضنية، وتم وضع خطة كفيلة بوصول القوات إلى طرابلس، حيث تحركت في منتصف الليل، ووصلت فجرًا إلى مخيم البداوي. عاد يومها أبو جهاد مغطى بالتراب، سعيدًا بسلامة وصول القوات، وحزينًا لما وصل إليه التآمر ضد الثورة الفلسطينية.

في مقابل ذلك، حشد السوريون المنشقين والجبهة الشعبية – القيادة العامة، وقوات حطين، من جيش التحرير الفلسطيني التابع للقيادة السورية، والصاعقة، ووحدات خاصة من الجيش السوري، في محيط المخيمات الفلسطينية في الشمال اللبناني، ولحصار مدينة طرابلس، وما هي إلا أيام حتى اشتعلت معركة طرابلس.

كان المنشقّون والجيش السوري لا يتوقفون عن قصف مدينة طرابلس بالصواريخ من جهات عدة، وازدادت المعارك العنيفة في منطقة المصفاة وجبل تربل، وقاموا بعدّة محاولات للتقدم على هذين المحورين، إلا أنّ مقاتلينا كانوا يصدونهم فيتراجعون. وقعت عدة قذائف على مقربة من بيتنا في مخيم البداوي، وبعد أكثر من محاولة، قُصف المبنى، فانتقلت بعدها للإقامة في مبنى آخر.

كان أبو جهاد يتابع تفاصيل المعارك الدائرة كلها؛ من توزيع المقاتلين على المحاور، إلى تسليحهم. وتابع بشكل مكثّف موضوع صفقة تبادل الأسرى مع الجنود الإسرائيليين؛ الأسرى لدى الثورة، عبر الصليب الأحمر، والتي أراد

بموجبها الإفراج عن معتقلي معسكر أنصار كافة، إضافة إلى عدد من الأسرى في السجون الصهيونية[31]. وإعادة أرشيف مركز الأبحاث الفلسطيني الذي استولت عليه إسرائيل خلال اجتياح بيروت عام 1982.

كنت أذهب يوميًا إلى مقر القيادة، أجلس إلى جانب الأخت رائدة التي كانت تعمل على جهاز اللاسلكي، وأستمع إلى نداءات المنشقين، واستخدامهم الكلمات البذيئة لينعتوا بها شبابنا، وأسمع وعيدهم وتهديداتهم، وكثيرًا ما سمعنا أكاذيبهم حول اغتيال أبو جهاد أو أبو عمّار، ويهددون ويتوعدون أنهم قادمون. كانوا يعرفون أننا نستمع، وكان هذا الأسلوب محاولة فاشلة منهم لضرب الروح المعنوية لمقاتلينا وإخافتهم.

في ظل القصف المتواصل للمدينة، أُغلقت المحلات والمطاعم كافة، فسألني أبو جهاد في أحد الأيام إن كان بإمكاننا أن نفتح مطبخًا لطهو وجبة ساخنة للمقاتلين. فقلت له: "نعم، نستطيع". كنت حينها أمينة السر للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وكان لنا فرع للاتحاد في مدينة طرابلس ترأسه الأخت أم سمير، دعوت الأخوات في الهيئة الإدارية لفرع الاتحاد في طرابلس للاجتماع، وعرضتُ عليهم مشروع المطبخ، وكان استعدادهن كبيرًا، فبدأنا العمل، وكنا نطلب من النساء التطوع للعمل معنا في المطبخ.

كان أبو جهاد يوفر لنا المواد الضرورية للطبخ عن طريق الإخوة اللبنانيين الذين كانوا يحضرون لنا اللحوم والخضار من بيروت. كنا نطهو وجبة الخضار مع اللحوم، ونطبخ الأرز، ثم نعبئها في علب منفصلة، ونرصّها في صناديق حتى يأتي مندوبو كل محور أو مجموعة لتسلّمها وتوزيعها على مجموعتهم. كان العمل في المطبخ على أربع ورديات، كل وردية مكونة من عشرين أختًا تقريبًا، وقد تمكنّا من توفير وجبات لحوالى تسعة آلاف مقاتل يوميًا.

(31) في 1985/11/24، تمكّنت حركة فتح من إنجاز صفقة تبادل الأسرى عن طريق الصليب الأحمر، أُفرج فيها عن خمسة آلاف وتسعمئة أسير لبناني وفلسطيني من معسكر أنصار، وعدد من الأسرى في السجون الإسرائيلية، مقابل ستة جنود إسرائيليين من منطقة دير الحرف في جبل لبنان، ضمن العمليات التي شُنت خلف خطوط العدو.

أذكر أنّه في أحد الأيام ذهبت الأخت أم سمير، ومعها أخت أخرى، لتوصيل الطعام لمقر الأخ أبو عمّار الذي قابلها حينها ببرود، وكان الغضب بادٍ على وجهه. تركت الطعام على الطاولة، وخرجت لتسأل الأخ نبيل أبو ردينة عن سبب عصبية الأخ أبو عمّار وغضبه، فقال لها نبيل: "لأنه منذ الصباح، وهو يبحث عن الأخ أبو جهاد ولا يعرف مكانه، وقد اخترق المنشقون جهاز اللاسلكي، وقالوا لقد قتلنا خليل الوزير تعالوا خذوا جثته، وهو قلق ينادي على إشارته على جهازه اللاسلكي، ولكنه مقفل".

فضحكت أم سمير وعادت إلى غرفة الأخ أبو عمّار لتقول له إنّ الأخ أبو جهاد موجود الآن في مقر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية. عندما سمع كلامها، توجّه مسرعًا مشيًا على الأقدام من غير حطته، أو الطاقية على رأسه، وبيده رشاشه فقط، متوجهًا إلى مقر الاتحاد. وعندما وصل باب الاتحاد رأى أبو جهاد يجلس على الأرض وأمامه طناجر الطعام، يملأ العلب الفارغة واحدة بالخضار وأخرى بالأرز، فصرخ: "أنت يا خوي هنا وأنا قلقت عليك!". ثم جلس أبو عمّار بجانبه على الأرض، وبدأ يساعده في تحضير علب الطعام.

كان الأخ أبو عمّار كلما رآني في طرابلس تذكّر أولادي، وأنني هنا أنا ووالدهم، وأن عليّ العودة إليهم. وفي أحد الأيام، طلب من الأخ فتحي سليد[32] أن يأخذني معه بالقارب المتوجه إلى قبرص، لأعود من هناك إلى عمّان. ودّعت الجميع، وصعدت معه إلى القارب. كان الطقس باردًا، والأمطار غزيزة، وكانت حركة القارب في البحر صعبة جدًا. وبعد تحركنا في البحر لأكثر من ساعة ونصف الساعة، أبلغنا القبطان أنه لا يستطيع إكمال الرحلة لأن الأمواج عالية؛ كانت ترفع القارب إلى أعلى، ثم ترميه إلى الأرض بقوة فتقذفنا يمينًا وشمالًا، ونتعرض لضربات قاسية، فعاد القارب بنا إلى ميناء طرابلس من جديد.

كانت مشاعري مختلطة حينها، فقد هيأت نفسي للقاء الأولاد بعد طول غياب

(32) محمد سعد الرازم (فتحي البحرية) (1947-2017): ولد في الخليل ودرس في مدارسها. التحق بحركة فتح بعد هزيمة عام 1967، وأصبح مرافقًا لأبو عمّار. عُيّن نائبًا لقائد القوة البحرية نهاية عام 1986، وكان مقرها في اليمن. انتُخب عضوًا في المجلس الثوري في عامي 1989 و2009.

في طرابلس، إلا أن فراق أبو جهاد كان يقلقني دائمًا. ولكني عدت، واستقبلني أبو جهاد مرة أخرى بكل الحب، وبابتسامته المعهودة.

ثم تكرر طلب الأخ أبو عمّار وتعليماته بمغادرتي مرة أخرى، وكانت المرة الثانية التي أركب فيها القارب، ويحرم مدة ساعة ونصف الساعة، ثم بسبب الأجواء والعواصف والأمطار لا يتمكن من الاستمرار ويعود. في المرة الثالثة، جاءني فتحي سلبد بالتعليمات نفسها، كانت الأوضاع صعبة، وكان الحصار شديدًا على طرابلس، وكان الجميع يؤكد أن المعركة الأخيرة قادمة.

فكّرت في ذلك كله، وقلت له: "يا أخ فتحي، أرجو أن تسافر، ورافقتك السلامة، أنا لن أغادر طرابلس إلا مع أبو جهاد، إذ أراد الله. لا تعد للأخ أبو عمّار لتقول له إنني لا أريد السفر، فقط أرجوك سافر". فغادر فتحي سلبد طرابلس، وفي الليلة نفسها بدأ الهجوم الأخير على محورين؛ محور جبل تُربل، ومحور مصفاة البترول.

استمرينا في عملنا كالعادة، نتابع تحضير الوجبات الساخنة في المطبخ مع الأخوات، ونتابع إيصال الطعام إلى المقاتلين، واقترحت بعض الأخوات على أبو جهاد أن نذهب نحن الأخوات، ضمن مجموعات، لإيصال الطعام للمقاتلين في هذا الظرف، لرفع معنوياتهم. اقترحن أن أذهب معهن، وبالفعل، ذهبت مع مجموعة فتيات إلى محور المصفاة، ذهبنا في ساعات الظهيرة، وكان المحور هادئًا إلى حد ما قبل وصولنا، إلا أنه في الطريق، وقبل أن نصل مقر قيادة المحور بقليل، بدأت صواريخ الراجمات تنهال علينا، وبالكاد تمكنّا من الوصول إلى مقر القيادة. كان قائد الموقع حينها الأخ زياد الأطرش، ومعه الأخ أبو إبراهيم (عبود)، وعندما رآني صرخ قائلًا: "ألا يكفي أبو جهاد هنا في طرابلس، أنت أيضًا؟". أجبته أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

لم نتمكن من مغادرة مقر القيادة فترة من الزمن، لأن معركة ضارية كانت تدور في الخارج، إلى أن تمكّن الشباب من صدّ الهجوم والسيطرة على المحور من جديد. عندما هدأت أصوات الراجمات والرصاص، وبعد أن اطمأن الأخ اللواء زياد الأطرش إلى أن طريق عودتنا آمن سمح لنا بالمغادرة.

كانت تجربة مختلفة؛ أن نكون على المحور وفي قلب المعركة، شعور القلق ممزوج بالخوف، يضفي مزيدًا من التوتر النفسي، ولكن رباطة جأش الأخ زياد وأبو إبراهيم عبود وجميع الإخوة في مقر القيادة منحنا الكثير من الثقة والقدرة للتغلب على الخوف، وبسبب ذلك القلق والتوتر، أصابني صداع استمر ثلاثة أيام بعدها.

في مساء أحد الأيام، كانت الصواريخ تسقط على الشارع الرئيس الممتد من الزاهرية، مقر القيادة، إلى الميناء، وكنت وحدي في إحدى البنايات المكونة من خمسة عشر طابقًا. كانت القذائف قد سقطت على البناية، وأصابت الطابقين التاسع والحادي عشر، كما سقطت أمام العمارة. كانت أصوات القذائف قوية، وأول مرة ينتابني شعور بالخطر.

رنّ جرس الهاتف، كان المتحدث ابني جهاد الذي يتابع دراسته في الولايات المتحدة الأميركية، وكنت فزعة من شدة القصف، وعندما سمعت صوته قلت له: "جهاد أوصيك بأخواتك يا حبيبي، لا أتوقع أن يطلع علينا النهار لأن القصف الصاروخي شديد!". ولا يزال ابني يذكر تلك المكالمة بتأثّر كبير. كما أنني اتصلت بغرفة العمليات للاطمئنان على الجميع، وأبلغتهم إنني وحدي في البناية، وطلبت إليهم أن يبقوا على اتصال معي، في حال أُصبت.

كانت تلك الليلة حاسمة، تقدّم المنشقون في محور جبل تُربل واحتلوه، كما سيطروا لاحقًا على مخيم نهر البارد ومخيم البداوي. وأصبحت المعركة على أبواب مدينة طرابلس التي تعرضت لقصف شديد ذكرني بالقصف الصهيوني على بيروت في العام الماضي. في ساعات الصباح الأولى، وعندما خفّ القصف، خرجت إلى البلكونة لأستطلع الوضع، وإذا بسيدة لبنانية تركض في الشارع أمامي وهي تحمل أرجيلتها، ضحكت وارتفعت معنوياتي لرؤيتها!

أربكت صفقة التبادل مع العدو الصهيوني الموقف السوري، فتوقف الهجوم النهائي على مدينة طرابلس، والذي كان مقررًا في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر، إذلم تعد الأوضاع ملائمة لتنفيذ الهجوم بعد الصمود، والتدخلات العربية والدولية، وإنجاز صفقة التبادل. واتُّفق على خروج قواتنا من طرابلس

بالبواخر، بعد الحصول على تطمينات عربية قدمتها السعودية، وضمانات أميركية، وبمواكبة بحرية فرنسية.

في السادس من كانون الأول/ ديسمبر نُفِّذت عملية جريئة في القدس استهدفت حافلة على الخط 18، وردت إسرائيل بقصف جزيرة الأرانب التي تقع على مسافة قريبة من طرابلس. كما ألقت بقنابل موقوتة على الميناء، انفجرت في اليوم الثاني ودمرت بعض الزوارق فيه.

بدأ رحيل المقاتلين في السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر، وغادر أربعمئة وسبعون جريحًا على متن باخرة مستشفى إلى اليونان، وبعدها بثلاثة أيام أبحر أربعة آلاف وسبعمئة مقاتل على متن بواخر متجهة إلى اليمن والسودان والجزائر. اتفقت مع أبو جهاد أنني سأبقى معه، وأننا سنغادر طرابلس معًا. كان قلقي كبيرًا من أن يتعرض لأي إشكاليات، أو يتعرض للخطر قبل الخروج أو أثنائه، فبقيت بجانبه ذلك اليوم، ورافقته إلى الميناء ليتفقد السفن بعد وصولها. صعدنا على متن أول سفينة راسية، والتقى أبو جهاد بالقبطان، وأخذ يسأله عن القضايا الخاصة بالسفينة ونقل المقاتلين. لم يترك أبو جهاد صغيرة أو كبيرة إلا وتأكد منها؛ التموين، والدواء، والخبز، والحرامات، والماء، والإسعافات الأولية، وزوارق الطوارئ. سأل عن كل شيء، وتأكد من أن الأمور على أكمل وجه. ثم انتقلنا للتأكد من التجهيزات نفسها على باقي السفن.

بعد انتهائنا من تأمين وضع السفن في الميناء، أخذني معه بالسيارة إلى الشارع الرئيس بطرابلس، حيث الدكاكين والمتاجر، ونزلنا ودخلنا أحد الدكاكين، ومن باب إلى باب حتى وصلنا إلى غرفة كان فيها أبو عمّار. بعد السلام، أبلغه أبو جهاد أنه تفقد السفن، وأن كل شيء على ما يرام، وعند نقاش وجهة الخروج، اقترح أبو جهاد أن يغادر إلى صنعاء اليمن، بينما يغادر أبو عمّار إلى تونس، قال له أبو عمّار: "لا يا خوي خلينا مثل ما إحنا متفقين"، إذ كان الاتفاق المسبق أن يذهب أبو عمّار إلى اليمن، وأن يذهب أبو جهاد إلى الجزائر. تدخلت حينها وقلت إنني أفضّل اقتراح أبو جهاد. وأضفت: "أخشى يا أبو عمّار أن يحرجك المصريون ويدعونك للنزول من السفينة". فقال أبو عمّار: "يا ريت! يا أختي يا ريت، يسمع من بقك ربنا".

غادرنا مقر أبو عمّار، وتوجهنا لوداع أحد الإخوة الإسلاميين الذي كانت تربطه علاقة قوية مع أبو جهاد، وهو سماحة الشيخ سعيد شعبان، زعيم حركة التوحيد الإسلامي التي وقفت معنا في هذه المعركة، وهو شخصية وطنية لبنانية، وكان الشيخ شعبان قد تحدث لاحقًا، وبعد خروجنا من طرابلس، عن أبو جهاد واحترامه الكبير له ولنضاله.

صعدنا على متن السفينة الأولى المتوجهة إلى الجزائر، وقد رافقتنا طوال الرحلة بارجة فرنسية للحماية، وكانت الرحلة صعبة جدًا، حيث أصابنا دوار البحر، وكان الجميع على متنها مريضًا، إضافة إلى الجو الماطر والعواصف والأمواج العالية. وبينما نحن في عرض البحر، وصلنا خبر توقف أبو عمّار في مصر! كما علمنا ما تناقلته وسائل الاعلام عبر الراديو من غضب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، واستهجانها توجهه إلى مصر للقاء الرئيس المصري حسني مبارك.

بعد سماعنا الخبر، كتب أبو جهاد رسالة بعثها إلى اللجنة المركزية لحركة فتح. كانت رسالة تصف الظروف التي مررنا بها في طرابلس ومعاناتنا على متن السفينة، وأبلغهم أنه تفاجأ بنزول أبو عمّار إلى مصر دون أن يستشيرنا. كما طلب إلى الإخوان التحلي بالمسؤولية، وأن يُبتّ في هذه القضية بعد الوصول.

توقفنا في ميناء بنزرت بتونس، وكان في استقبالنا الماجدة وسيلة، زوجة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، كما استقبلنا الإخوة صلاح خلف (أبو إياد)، وهايل عبد الحميد (أبو الهول)، وجمع غفير من الفلسطينيين والتونسيين.

وأكملنا الرحلة بالسفينة إلى أن وصلنا بعد رحلة شاقة إلى ميناء عنابة في الجزائر، ونزلنا بضيافة الحكومة الجزائرية، وفي صباح اليوم التالي من وصولنا، وبينما كنا على مائدة الإفطار، جاء شاب وقال لأبو جهاد: "أنا أنقذتك". فقال له أبو جهاد: "كيف ومتى؟". فقال له: "هل تذكر الصواريخ التسعة التي سقطت على بيت الغربي؟". قال له أبو جهاد: "نعم". فأكمل الشاب: "يا سيدي، كنا أنا

وأحمد جبريل[33] عند الراجمات، عندها التفت جبريل إلى أحد الشباب على راجمة الصواريخ، وأعطاه ورقة قائلًا إنها تحمل إحداثيات بيت أبو جهاد، المعروف ببيت الغربي، وقال له جبريل، عندما أعطيك التعليمات أطلق الراجمات ونفّذ الأمر". وقال الشاب لنا أنه قام بعد ذلك بإحداث عطل في الراجمة.

توجهنا بعد الجزائر إلى تونس لحضور اجتماع اللجنة المركزية، وأراد بعض أعضائها مقاطعة استقبال أبو عمّار في المطار، ولم يذهب لاستقباله منهم سوى الأخ أبو مازن. وكنت بدوري قد طلبت من أبو جهاد أن أذهب لاستقباله في المطار، فلم يمانع. توجهت إلى المطار، وكان هناك عدد من الكوادر الحاضرين، بينما انتظره الآخرون في منزل السفير الفلسطيني بتونس، الأخ حكم بلعاوي[34].

وصل أبو عمّار إلى تونس، وتوجه إلى بيت الأخ حكم، حيث انتظره الإخوة أعضاء المركزية. عُقد الاجتماع، ونوقشت خلاله العديد من القضايا، وتم التوصل إلى بعض القرارات، من أهمها دعوة المجلس الثوري للانعقاد، ومن ثم دعوة المجلس الوطني.

---

(33) أحمد جبريل (1938–2021): وُلد في يازور، قرب يافا. انتقلت عائلته إلى سورية بعد نكبة عام 1948. التحق بالكلية العسكرية في مصر أثناء الوحدة المصرية السورية، وتخرّج فيها في عام 1959، وانضم إلى الجيش السوري برتبة ضابط. أسس جبهة التحرير الفلسطينية في عام 1959، متأثرًا بجبهة التحرير الجزائرية. عند انطلاق حركة فتح، تحالف معها فترة قصيرة، ثم انفصل عنها. ساهم في تشكيل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ثم انفصل عنها في عام 1968، وأسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة.

(34) حكم عمر بلعاوي (1934–2020): ولد في قرية بلعا قضاء مدينة طولكرم، وتلقّى تعليمه الأساسي والثانوي في مدارسها. نال درجة البكالوريوس في الإدارة والتربية. التحق بصفوف حركة فتح منذ مطلع ستينيات القرن الماضي. عُيّن نائبًا لممثل منظمة التحرير في ليبيا، بين عامي 1973 و1975. انتقل إلى تونس ليمثّل منظمة التحرير الفلسطينية بين عامي 1975 و1994. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح في مؤتمرها الخامس في عام 1989، واستمرّ فيها حتى المؤتمر السادس للحركة في عام 2009. شغل عضوية أمانة مجلس الأمن القومي الفلسطيني في السلطة الفلسطينية بين عامي 1994 و1996. انتُخب عضوًا في المجلس التشريعي الفلسطيني الأول عن مدينة طولكرم بين عامي 1996 و2006. تولى مسؤوليات جهاز التعبئة والتنظيم داخل اللجنة المركزية لحركة فتح عقب وفاة صخر حبش في عام 2010.

بالفعل، عُقد المجلس الثوري جلسته في تونس، واتخذ مجموعة من القرارات، من أهمها فصل المنشقين، وعلى رأسهم عضوي اللجنة المركزية نمر صالح (أبو صالح) وسميح أبو كويك (قدري). إضافة إلى فصل أبو خالد العملة، والذي شغل منصب نائب أمين سر المجلس الثوري، وفصل سعيد موسى (أبو موسى) عضو المجلس الثوري، وعدد من الكوادر المنشقة.

وفي هذا الاجتماع، انتُخبت أمانة سرّ جديدة للمجلس الثوري، حيث انتُخبتُ نائبة أمين سر المجلس الثوري بعد أن أصبح الموقع شاغرًا بفصل أبو خالد العملة، وقد جاء انتخابي لهذا الموقع إقرارًا لمسيرتي النضالية، ولدوري في حرب لبنان ومعارك طرابلس.

ثم بدأ التحضير لعقد اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني، وقد كانت المهمة صعبة للغاية، في ضوء حرب لبنان والانشقاق، وزيارة أبو عمّار للقاهرة، ومواقف الإخوة في الفصائل الفلسطينية. وقد نجحت الحركة بعقد المجلس الوطني في الأردن في عام 1984. لقد بذل الجميع جهودًا كبيرة لإقناع أعضاء المجلس الوطني للمشاركة. قاطع خالد الفاهوم، رئيس المجلس الوطني، الاجتماع. كما قاطعته قيادات كل من الجبهة الشعبية، والجبهة الشعبية – القيادة العامة، والصاعقة، والمنشقين.

أذكر كيف كنت أذهب مع أبو جهاد للقاء عدد من الإخوة أعضاء المجلس الوطني لإقناعهم بالمشاركة، وتوفير النصاب لإنجاح عقد المجلس في ظل التحديات كافة، وعندما عُقد المجلس وأُعلن بلوغ النِصاب[35]، وقف الجميع وضجّت القاعة بالتصفيق الحار، فقد أنقذت منظمة التحرير من المؤامرات كلها.

وبعد نجاح دورة المجلس الوطني، قررت اللجنة المركزية لحركة فتح تشكيل وفد للحوار مع الفصائل، وتم تكليف أبو جهاد لرئاسته، وعقد أبو جهاد

(35) عُقد المجلس الوطني في عمّان، في الفترة بين 29 و22/11/1984، بحضور 257 من مجموع المنتدبين المعتمدين، البالغ عددهم 374 منتدبًا.

العديد من الحوارات مع الفصائل في عدن وبراغ وموسكو والجزائر، إلى أن استطاع التوصّل إلى تفاهمات سمحت بعقد مجلس وطني في عام 1987.

اتخذت القيادة الفلسطينية من تونس مقرًا لها، بينما كان أبو جهاد يتنقل بين الأردن وتونس، وأنا كذلك. وقد حضر أبو عمّار في أكثر من زيارة إلى الأردن، وكانت الحوارات مستمرة بين الطرفين، ووُقِّع اتفاق الكونفدرالية مع الأردن.

في عام 1985، عقدنا مؤتمر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في تونس، حيث نجحنا بجعله مؤتمرًا توحيديًا، وحمينا الاتحاد من الانشقاق. قررت حينها عدم المشاركة في الأمانة العامة، وتركت موقعي في الاتحاد، حيث كانت لديّ العديد من المهمات الأخرى؛ من رعاية أسر الشهداء، وأمانة سر المجلس الثوري.

بعد أقل من أسبوع من مشاركتي في المؤتمر، وبعد عودتي إلى الأردن، أنجبت ابني الأصغر، نضال. وُلد نضال في 9 آب/أغسطس 1985 في أحد مشافي عمّان. جاء نضال بعد ثلاثة عشر عامًا من ولادة ابنتي الصغرى حنان، أكرمنا الله بطفل قررنا أن نسميه نضال تيمنًا بابننا الذي فقدناه سابقًا. ذهبت يومها إلى المشفى مع ابنتي حنان عندما قرر الطبيب ضرورة خضوعي لعملية ولادة قيصرية فورية بسبب إصابتي بتسمم الحمل، وأُجريت العملية. وبينما أنا في غرفة العمليات وصل أبو جهاد، وكان فرحًا بسلامتي وسلامة الطفل.

في الأردن

كانت فترة إقامتنا في الأردن مليئة بالعمل بعد الخروج من طرابلس، كنت أتابع عملي في مؤسسة أُسر الشهداء والمجلس الثوري، واستقر الأولاد في المدارس، بينما كان ابني جهاد يتابع دراسته الجامعية في الولايات المتحدة الأميركية. وكان أبو جهاد يعمل بشكل مكثف في عمّان؛ يلتقي بالإخوة والأخوات من الأرض المحتلة، ويتابع قضايا الوطن؛ يتواصل مع الأسرى، ويتواصل مع المؤسسات التعليمية والجامعات، والنوادي، ولجان العمل، والشبيبة، والتنظيم، وكل ما له علاقة بالأرض المحتلة. وقد تمكّن أبو جهاد، من خلال رئاسته للجانب الفلسطيني من اللجنة الأردنية - الفلسطينية المشتركة، من تقديم الدعم للمؤسسات والأفراد

والشركات والمشاريع في الأرض المحتلة. كان يؤمن بضرورة بناء المجتمع الفلسطيني، وتطويره، ودعم صمود أبناء شعبنا على الأصعدة كافة.

كان عمله متواصلًا بين المكتب والمنزل؛ يقابل العديد من القادمين من الأرض المحتلة ليحملهم الرسائل والدعم والتعليمات لمواصلة العمل، وهو يعي أهمية سرية هذه اللقاءات لسلامتهم، فحرص على أن تتم المقابلات بشكل سرّي من غير أن يتقابل الإخوة القادمون من الأرض المحتلة مع بعضهم، الأمر الذي دفعة إلى تقسيم الغرف في البيت ووضع أبواب عازلة، خاصة في صالون الضيوف وغرفة المكتب، بما يسمح له بإجراء المقابلات مع أكثر من شخص في آن من دون لقائهم مع بعضهم، يدخل أحدهم من باب ويخرج الآخر من باب ثانٍ.

في أحد أيام حزيران/ يونيو 1986، زارنا الدكتور إبراهيم الشريقي، والذي كان شخصية قريبة من القصر الملكي، تحدث بحضوري مع أبو جهاد، ومدحه وأثنى على جهوده، وأبلغه عن احترام الملك الكبير له. بعد مغادرته تساءلنا في ما بيننا عن سبب هذا الإطراء والمديح على دور أبو جهاد، وبخاصة الآن، فقال لي حينها: "انتظري قليلًا لأعرف السبب". اتصل بعدها بمراسلة "مونتي كارلو" في عمّان، الصحافية رندة حبيب. قالت له إنها خرجت لتوها من مؤتمر صحافي لوزير الإعلام الأردني، وإنها ستأتي إلى منزلنا مباشرة. وصلت رندة وأبلغتنا بتصريحات وزير الإعلام، وقد قال فيها إن الحكومة الأردنية قررت إغلاق 25 مكتبًا من مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية في الأردن.

في صباح اليوم التالي، وبينما كان أبو جهاد لا يزال نائمًا، رنّ جرس الهاتف مبكرًا، وكان المتصل أحد الضباط العسكريين الأردنيين، وقد طلب التحدث إلى أبو جهاد. أيقظته، وعندما رد على الهاتف، أبلغه الضابط برغبته لقاء أبو جهاد في مكتبه حالًا. أغلق أبو جهاد الهاتف وحدّثني عن المكالمة. وقبل أن يتوجه للقائه، طلبت إليه أن يفرّغ جميع الأوراق التي في جيوبه، فأعطاني إياها وخرج.

جلست أنتظر عودته بقلق، وشعرت أن الوضع متوتر. عندما عاد، بعد أقل من نصف ساعة، كانت الدموع تملأ عيني، فسألني أبو جهاد عن سبب بكائي،

فقلت له إن لديّ شعورًا بالقلق، فهدّأ من روعي، وحدّثني عما جرى بعد خروجه من المنزل.

قال لي إنه عندما وصل إلى مبنى مكتبه، كانت ثلة من جنود مكافحة الشغب الأردنية، بلباسها الكامل، متمركزة أمام المبنى. عندما صعد إلى المكتب، وجد الضابط الذي طلب مقابلته، وأبلغه الضابط بقرار إغلاق المكتب بالشمع الأحمر، كما أبلغه أن عليه مغادرة الأردن خلال 24 ساعة.

لم يكن القرار سهلًا، خاصة في ضوء المهلة القصيرة، وهي 24 ساعة قبل مغادرته. كان علينا التفكير في العديد من القضايا، وترتيب أوراقه، وتأمين ملفاته التي سيأخذها معه، وغيرها الكثير من التفاصيل التي يجب معالجتها خلال هذه الفترة القصيرة.

انتشر الخبر، وبدأت الصحافة تأتي إلى بيتنا للاستفسار عن الموضوع، وكان من ضمن أسئلة الصحافيين إن كان سيغادر الأراضي الأردنية مع زوجته وأولاده، كان أبو جهاد يجيب أنه سيغادر وحده بينما أبقى والأولاد في الأردن.

في خضّم تحضيرات مغادرته، وتدفق الإخوان إلى المنزل لوداعه، رنّ جرس الهاتف، وكان المتصل يسأل عن الأخ عبد الرزاق اليحيى [36]، السفير الفلسطيني في الأردن. ردّ على الهاتف، وغادر فورًا للقاء المتصل. عندما عاد أبلغنا أن قرار الإبعاد يشملني أنا والأولاد أيضًا، وتجب مغادرتي خلال 48 ساعة.

غادر أبو جهاد برًا إلى بغداد [37]، ودّعه الكثيرون بدموعهم. ودَّعته، وانتابني

---

(36) عبد الرزاق عقاب اليحيى (1929-2020): وُلد في الطنطورة قرب مدينة حيفا. التحق بجيش الإنقاذ، وأنهى دراسته العسكرية في دمشق. خدم ضمن القوات المسلحة السورية بين عامي 1949 و1958. شارك في تأسيس جيش التحرير الفلسطيني في عام 1964، تولّى رئاسة أركان قيادة الكفاح المسلح في عام 1969. وفي عام 1970، عيّنه ياسر عرفات رئيس أركان جيش التحرير الفلسطيني، وتولّى منصب مدير عام الدائرة السياسية في المنظمة بين عامي 1971 و1984. وأصبح عضوًا في اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية وممثلًا لها في الأردن. عُيّن وزيرًا للداخلية في السلطة الفلسطينية في عام 2002.

(37) غادر أبو جهاد عمّان في 7/ 7/ 1986.

شعور بالحزن الشديد، أحسست أنه لن يعود. غادرت مع الأولاد في اليوم التالي إلى تونس، وبعد وصولنا، توجه الأولاد إلى معسكر تبسة[38] في الجزائر، بينما بقيت مع نضال في تونس بانتظار وصول أبو جهاد.

خلاف مع أبو عمّار: قصة هواري

لم أشعر طوال حياتنا أن أبو جهاد أخذ موقفًا معارضًا في اللجنة المركزية إلا في ذلك اليوم الذي رفض فيه أبو عمّار الاجتماع مع اللجنة المركزية، وترك تونس متوجهًا إلى العراق.

كان الجو في اللجنة المركزية متوترًا نتيجة ما يُعرف بقضية هواري[39]، وهو أحد الإخوة المقربين جدًا من أبو عمّار. اعتُقل في المغرب وهو قادم من تونس، ولدى تفتيشه في مطار المغرب، وُجدت معه مواد متفجرة مصنعة بأشكال مختلفة، مما أثار غضب المغاربة على التونسيين، وغضب التونسيين على الفلسطينيين، على نحو بلغ حد تهديدهم بإغلاق مقرات المنظمة وترحيل الفلسطينيين.

هذا التهديد أثار حفيظة الإخوة في اللجنة المركزية، وصبّوا غضبهم على هواري، الأمر الذي دفع الأخ أبو عمّار للانسحاب من الجلسة، وأعلن استقالته من حركة فتح. انفضّ اجتماع اللجنة المركزية على أمل أن يُعقد لاحقًا، بحضور الأخ أبو عمّار الذي رفض العودة إلى الاجتماع وغادر إلى العراق. وهنا، اجتمعت اللجنة المركزية، وكانت المرة الأولى التي وافق فيها أبو جهاد على الاجتماع من دون أبو عمّار. اجتمعوا وقرروا إرسال أبو جهاد وهاني الحسن إلى العراق لإقناع أبو عمّار بالعودة إلى تونس، ولكنه رفض ذلك.

(38) معكسر تبسة: يقع أقصى شرق الجزائر بالقرب من الحدود التونسية.

(39) عبد الله عبد الحميد لبيب قاسم (هواري أبو طارق) (1946-1991): ولد في قرية دورا القرع، شمال شرق رام الله. أنهى دراسته الثانوية في مدينة رام الله، وسافر بعدها إلى القاهرة، حيث التحق بكلية الحقوق في جامعة القاهرة، وتخرج فيها عام 1967، التحق بحركة فتح بعد هزيمة حزيران/ يونيو عام 1967، شغل عضو قيادة منطقة عمّان نهاية عام 1968، انتقل إلى جهاز الأمن المركزي في بداية تشكيله، وعُيّن عضوًا في قيادة الجهاز، أسس مكتب التنسيق الفلسطيني - العراقي - الأردني عام 1985، وعُيّن مديرًا لجهاز الأمن الخاص في الرئاسة الفلسطينية عام 1986.

كان أبو جهاد في الكويت، وكنت معه، وإذا بالأخ أبو عمّار يتصل به ليبلغه أن إخوانه في اللجنة التنفيذية قرروا أن يكون أبو جهاد عضوًا في اللجنة التنفيذية، رد عليه أبو جهاد: "شكرًا لهذه المبادرة، ولكن ليس وقتها الآن". واعتذر بلباقة أنه لا يقبل أن تتم الأمور بهذه الطريقة، بل يجب أن تكون بقرار وتكليف من اللجنة المركزية لحركة فتح، وانتخاب مباشر من المجلس الوطني في مؤتمره القادم.

عندما وصل الخبر الإخوة في اللجنة المركزية، أثار هذا القرار لديهم الكثير من الهواجس، أهمها أنها لعبة من أبو عمّار لتحييد أبو جهاد عن اللجنة المركزية، وقد أعدّوا بيانًا شديد اللهجة ضد أبو عمّار وأبو جهاد، ولكن بيان أبو جهاد الرافض للتعيين واعتذاره عنه طمأن قلوبهم، فلم يصدروا بيانهم.

لقد بذل أبو جهاد، والإخوة هاني الحسن وأبو مازن، جهدًا كبيرًا لإقناع الأخ أبو عمّار بالعودة إلى تونس وعقد اجتماع للجنة المركزية بحضوره. عُقد المجلس الوطني في نيسان/ أبريل 1987 في الجزائر. بعد رحلة شاقة كُلّف بها أبو جهاد برئاسة وفد فتح للحوار مع الفصائل، وكان يتنقل بين الجزائر وبراغ وموسكو وعدن طوال ستة أشهر للمشاركة في اجتماعات الحوار الوطني مع الفصائل الفلسطينية المعارضة؛ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والصاعقة، والقيادة العامة، والتي كانت قد خرجت من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير إثر الخروج من طرابلس، وزيارة أبو عمّار للقاهرة، وهو في طريقه بالباخرة إلى اليمن، ومقاطعتهم دورة المجلس الوطني التي عُقدت في الأردن في عام 1984.

ولاحقًا لهذه الاجتماعات، تم الاتفاق على عقد اجتماع توحيدي للمجلس الوطني في عام 1987، في الجزائر. كان يجب العمل على إعادة الوحدة إلى صفوف منظمة التحرير الفلسطينية. كان أبو جهاد يعمل بصمت، قبل دورة المجلس وخلالها، لإنجاحها. كان يجلس في الصفوف الخلفية أثناء اجتماعات المجلس، ويقابل العديد من أعضائه، ويشيد بالإنجاز الكبير الذي تحقق بمشاركة الجميع.

قبل بدء الجلسة الختامية، وكالعادة، اجتمعت القيادة الفلسطينية لمناقشة أسماء أعضاء اللجنة التنفيذية الجديدة، ولأن اسم أبو جهاد كان مطروحًا لعضوية

اللجنة، وبلباقته، خرج من الاجتماع وعاد إلى قاعة المؤتمر ليتركهم لأخذ قرارهم بحرية، ولكن المفاجأة كانت عندما أعلنت الأسماء المرشحة؛ جاء إعلان اسم الأخ عبد الله حوراني[40] لعضوية اللجنة التنفيذية بدلًا من أبو جهاد، صُعقت عند سماعي الخبر، وشعرت بالمرارة التي اجتاحت أبو جهاد الذي رفض الحديث أو التعليق على الأمر بعد عرض الأسماء على المجلس وصدّق عليها.

صوّت أبو جهاد مع التشكيلة، وأنا صوّت ضدّها، وكان الأخ أبو عمّار قد صوّت أيضًا ضدّها إلى جانبي، وعندما عدنا إلى البيت جاءت إلينا وفود كثيرة تعلن عن استنكارها واستغرابها ما حدث، وجاء الأخ أبو عمّار مع بعض الإخوة، وحاول أن يبرر، ولكن أبو جهاد طلب منه عدم الحديث في الموضوع، أما أنا فقد حمّلته كامل المسؤولية.

بعد انتهاء أعمال المؤتمر، عدنا إلى تونس، واستمر أبو جهاد بالتنقل بين تونس وبغداد، لمتابعة شؤون الأرض المحتلة، على الرغم من الخروج من الأردن الذي صار يتردد إليه على فترات، والبعد الجغرافي عن الوطن المحتل، فإنّ أبو جهاد استكمل عمله واتصالاته مع الداخل.

(40) عبد الله عبد الهادي حوراني (أبو منيف) (1936–2010): ولد في قرية المسمية قضاء مدينة الرملة، وتلقّى فيها تعليمه الأساسي، ثم أكمل تعليمه الثانوي في مدينة خان يونس، ثم التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، ثم بجامعة دمشق. التحق بصفوف حزب البعث العربي الاشتراكي في منتصف خمسينيات القرن الماضي. عُيّن مديرًا لإذاعة "فلسطين"، ثم مديرًا لـ"هيئة الإذاعة والتلفزيون السوري"، ومديرًا عامًّا لمعهد الإعلام. شغل عضوية المجلس الوطني الفلسطيني في عام 1969. عُيّن مديرًا عامًّا لدائرة الإعلام والتوجيه القومي لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام 1973. انتُخب عضوًا في اللجنة التنفيذية بين عامي 1987 و1994. أسس مجلة بيادر الفلسطينية التي كانت تصدر بين عامي 1988 و1993.

الفصل السادس

الأيام الأخيرة قبل الاغتيال

في تونس، أنهى الأولاد المدرسة، وذهب باسم وشقيقته إيمان إلى الولايات المتحدة، وبقي نضال وحنان معنا. في 6 آذار/مارس 1988، كنت أعدّ حقيبتي استعدادًا للسفر في اليوم التالي إلى الكويت، في الطريق إلى الهند للمشاركة مع الوفد البرلماني الفلسطيني، بدعوة من رئيس البرلمان الهندي، في إطار توثيق العلاقة بين الهند وفلسطين. دخل أبو جهاد الغرفة وسأل ضاحكًا: "كيف سيكون خط رحلتك إلى الكويت؟". أجبت: "عن طريق عمّان؛ ترانزيت ثلاث ساعات". قال: "وأنا أيضًا سأكون معك، إلى عمّان فقط، ما رأيك أن تتأخري معي يومًا في عمّان وتغادري إلى الكويت مع سماحة الشيخ السايح؟". قلت ضاحكة: "أتمنى ذلك، فهل هذا ممكن؟". أمسك الهاتف، وتحدّث مع الأخ عبد الرزاق اليحيى، سفيرنا في الأردن، وأخبره عن موعد وصوله للمشاركة في اجتماعات اللجنة المشتركة الأردنية الفلسطينية. وفي نهاية المكالمة قال: "ستكون أم جهاد معي ليوم واحد، أرجو إبلاغ الإخوة، وستغادر مع الشيخ السايح". لم تكن إجابة الأخ عبد الرزاق مشجعة، إذ قال: "لقد أبلغتموني بهذا الطلب متأخرًا، لا أدري إن كان ذلك ممكنًا". قال أبو جهاد: "في أي حال، سوف نكون معًا حتى مطار عمّان، وبعد ذلك سيتقرر الأمر".

لازمني شعور غريب؛ مزيج من السعادة لأنني سأرافقه، والقلق من عدم تمكني من دخول الأردن. لماذا هذا الإصرار على اصطحابي معه؟ نادرًا ما يفعل ذلك!

كانت رحلة الطائرة في اليوم التالي مريحة، وصلت الطائرة مطار عمّان مبكرة عن موعدها، وانتظرنا في صالة الشرف وصول الإخوة أبو شامخ (عمر الخطيب)، والدكتور رمزي خوري. لم نُفاجأ أنهم لم يسمحوا لي بالدخول إلى عمّان، وكان عليّ أن أنتظر إقلاع الطائرة المغادرة إلى الكويت، كان لطفًا من أبو جهاد أن ينتظر

معي في المطار حتى حان موعد إقلاع طائرتي إلى الكويت، ودّعني ضاحكًا: "لا عليك، سنلتقي مرة أخرى إن شاء الله".

غمرني الشعور بالمرارة وأنا في الطائرة في طريقي إلى الكويت، مرت بخاطري أحداث ذلك اليوم، يوم إعلان وقف التنسيق بين الأردن ومنظمة التحرير[1]، وما تبع ذلك من إجراءات. كان أبو جهاد يعمل جاهدًا، وبقوته كلها، لمنع تفاقم الأزمة. كان يؤكد دائمًا أننا، ومن أجل مستقبل شعبنا، يجب أن تكون العلاقات بين الأردن وفلسطين علاقات أخوية، علاقات التكامل والدعم والمساندة، علاقات متكافئة. وكان يشعر أن شعبنا قاسى كثيرًا من الظلم، وتعرّض للتنكيل والملاحقة. كان يقول: "من أجل مستقبل شعبنا يجب أن نبني من الآن شعور الثقة، ونعزز جسورها، ونبتعد عن جميع ما يثير الضغينة والحقد".

ومرَّ بخاطري شريط حياتنا المليئة بالتعب والمعاناة والتنقل والإبعاد والفراق والعمل، هذا الشريط كله، هذه حياتنا، بالرغم مما فيها من عذابات ولوعة وتعب، كانت لنا لحظاتنا الخاصة المزدهرة بالحب والحنان، وهي زاد أيامنا في تحمّل الصعاب، هذا النبع من الحب الذي لا ينضب، هذه المشاعر التي لم تزدها الأيام إلا عمقًا وثباتًا.

وصلت الطائرة مطار الكويت، وفرحت بلقاء الأهل والأصدقاء الذين استقبلوني. وصلنا إلى منزل ابن عمي، وإذ بالتلفزيون ينقل خبر عملية ديمونا[2]. أسرعت إلى الهاتف للاتصال بأبو جهاد في عمّان، وجاءني صوته متعبًا، إذ كان يعاني الرشح، سألته إذا كان قد زار الطبيب، أو أخذ علاجًا، ثم رجوته أن يهتم بأمنه بعد إعلان تنفيذ العملية العسكرية الجريئة بديمونا. ضحك من مخاوفي

---

(1) في تاريخ 19/2/1986، أعلن الملك حسين عن وقف التنسيق السياسي بين منظمة التحرير الفلسطينية والأردن، ووقف اتفاق عمّان، محملًا منظمة التحرير المسؤولية بسبب رفضها قرار 242، ورفضها الفصل بين استعادة الأراضي المحتلة عام 1967، وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني.

(2) عملية ديمونا (1988): نفذها ثلاثة من حركة فتح، وهم: محمد خليل صالح الحنفي، ومحمد عبدالقادر محمد الحسيني، وقائد العملية عبدالله عبدالمجيد كلاب، في 7/3/1988. انتهت باستشهاد المنفذين، وقتل ثلاثة من الضباط الإسرائيليين وامرأة.

ليزرع في نفسي الطمأنينة، وقال مازحًا: "لا تنسي أن تحضري لي معك من الهند عروسة هندية!". ثم تابعت رحلتي في الهند، ومنها توجهت إلى فيينا للمشاركة في لجنة مركز المرأة في الأمم المتحدة، وامتدت أعمال اللجنة حتى 24 آذار/ مارس 1988.

في مساء ذلك اليوم، وبينما كنت أجلس على مائدة العشاء في بيت الأخ داود بركات، مدير مكتب المنظمة في النمسا، رنَّ جرس الهاتف، وإذا بأبو جهاد يسأل عنّي. كانت فرصة للأخ داوود أن يبحث معه بعض القضايا المتعلقة بالأرض المحتلة، ثم تناولت الهاتف لأسمع صوته يسأل عن أحوالي، وهل انتهى المؤتمر، ومتى أنوي العودة إلى تونس. أخبرته أنني عائدة غدًا، وأن أعمال المؤتمر انتهت، وكان يلحّ بأن أعود في اليوم التالي قائلًا: "لا تتأخري". قلقت، وسألته: "هل هناك شيء؟ هل حنان ونضال بخير؟". قال: "الجميع بخير، فقط لا تتأخري".

وضعتُ سماعة الهاتف وشعرت بالحيرة والقلق، حاول جميع الجالسين أن يهونوا عليّ الأمر، وأن يزرعوا الطمأنينة في قلبي، فقالت إحدى الصديقات: "واضح أن الأخ أبو جهاد في شوق شديد لك، لذلك أرى أن يسعدك ذلك، ويجب ألا تقلقي".

وفي اليوم التالي، 25 آذار/ مارس 1988، عدت إلى تونس. وصلت البيت، وكالمعتاد، وجدته يعج بالضيوف. كان أبو جهاد يجلس مع بعض الإخوة، رأيت ابتسامته الجميلة تكبر كلما اقتربت للسلام عليه. ومرت الأيام مليئة بالعمل والحب والسعادة. كنت أشعر بتألقه وبريق عينيه الذي لطالما أحببته فيه، منذ زمن لم نعش في مثل هذا الجو، فدوامة العمل والإرهاق والسفر والتنقل، ثم الفراق واللقاء، أصبحت سمة حياتنا، لا نكاد نفرح بلحظات اللقاء، فسرعان ما نفترق، وكنا دائمًا على موعد لقاء جديد، لا نعرف متى ولا أين سيكون.

أسئلة كانت ترافقنا في مناحي حياتنا كافة، وكنا نفترق، وفي الأعماق لوعة. وأصرّ، كالعادة، في كل رحلة سفر له أن أرافقه إلى المطار لوداعه، كأنني أريد أن أملأ عيناي وقلبي برؤيته حتى آخر دقيقة قبل الرحيل، وكان دائمًا مصحوبًا بدعاء القلب وآيات الله البيّنات، آية الكرسي والمعوذات، وتهمس شفتاي: "مع

السلامة، أرجو أن نسمع صوتك حالّما تصل مكانك الذي تقصده فقط لنطمئن". ويبتسم ولا يجيب، ولكن نظرات عينيه كانت دائمًا تجيب "إلى اللقاء". وفي طريق عودتي إلى البيت، تتسابق الصور كلها إلى ذاكرتي كم مرة افترقنا، وكم التقينا، وأحاول أن أغرق في العمل، والبيت، والمطالعة، لأشغل نفسي وأعوّدها من جديد على الفراق الصعب، وأستحضر جميع اللحظات الحلوة الجميلة التي سرقناها من عمر الزمن.

كنت دائمًا إلى جانبه أسانده، ولم أقف أبدًا في طريق عمله ونضاله، لأننا تعاهدنا منذ البداية أن نكمل مسيرة حياتنا ونضالنا معًا بالحب والوفاء للوطن والقضية ولحياتنا. كان يَشدّني بأحاديثه، بآرائه، بأفكاره، وكنت دومًا أتدخل في النقاش، وأحيانًا يعترف أنني على حق. وكان دائمًا واسع الصدر، بعيد النظر، إذا قدّم أحدهم فكرة، وكانت جيدة واقتنع بها، فورًا يبادر إلى تنفيذها. كان أبو جهاد رجلًا عمليًا واقعيًا.

في 6 نيسان/ أبريل 1988، وبينما كنا في الطريق لحضور ندوة أقامتها نقابة المحامين العرب في تونس العاصمة، حيث تمت دعوته لإلقاء محاضرة عن الانتفاضة، انتابني شعور بالقلق، وسألته فجأة: "أبو جهاد، لا سمح الله، إذا حدث لك أي مكروه، ماذا سيكون مصير الانتفاضة؟". نظر إليّ مستغربًا وقال: "لماذا تسألين؟". أجبته: "فقط لأطمئن أن الانتفاضة ستستمر". ضغط على يدي وقال: "اطمئني".

في إحدى الليالي، بعد عودته من طرابلس ليبيا، كان يجلس خلف مكتبه يقرأ البريد الذي وصله، وكانت الساعة قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل، وكنت قد تهيأت للنوم، وإذا به يقول: "انتصار هل نمتِ؟ استيقظي أريد أن تقرئي هذه الرسالة". قلت: "دعها للصباح". قال: "لا، الآن، ألم تسأليني عن القيادة في الأرض المحتلة، وهل سيتم الاتصال معها في حالة حصول أي مكروه؟". وأحضر الرسالة معه، وقد وصلته من أحد الإخوة في الداخل والملقّب بـ "الجبل"، وجاء ليجلس بجانبي، وأخذ يقرأ لي الرسالة، وكانت مليئة بروح ثورية عالية تنطق حروفها إصرار شعبنا، وتؤكد كلماتها على استمرار الانتفاضة حتى تتحقق الأهداف الوطنية

التي أعلنتها القيادة الموحدة، وتتحدث سطورها عن المعاناة الكبيرة في مواجهة الظروف الصعبة والقاسية. وقد نقلتنا رسالة الجبل إلى هناك، إلى الأرض الحبيبة، إلى الثورة البركان، وبقينا هكذا حتى الخامسة من صباح ذلك اليو[illegible]دث ونتناقش في أمور الانتفاضة الباسلة.

وفي الأيام اللاحقة، غرق في دوامة العمل؛ كان يحدد موعد سفره وما يلبث أن يؤجله أكثر من أربع مرات، وكان يرسل مرافقه الأخ ماهر الصغير ليتابع له الحجز، ويأتي ماهر ومعه التفاصيل، وقبل الموعد يأخذ قراره بإلغاء السفر وتأجيله لليوم التالي.

في تونس

14 نيسان/ أبريل 1988، قبل يومين من عملية الاغتيال، انقطعت الكهرباء، وكانت هذه أول مرة في تاريخ وجودنا في تونس. كان أبو جهاد في الصالة يجلس مع ضيف، وأنا كنت نائمة في غرفتي في الطابق الثاني، وعندما استيقظت وجدت الكهرباء مقطوعة، ولم أتمكن من النزول إليه بسبب العتمة، فناديت عليه من رأس الدرج: "أبو جهاد، أبو جهاد". فصعد نحوي عند سماعه الصوت، قلت له: "هل عندك ضيوف؟". قال: "نعم". فقلت له: "دير بالك". ولم يستمع إليّ وعاد إلى ضيفه، وبعدها بقليل، جاء أحد الشباب ومعه شموعًا. ارتديت ملابسي ونزلت لأجلس مع أبو جهاد وضيفه.

مباشرة بعد مغادرة الضيف، زارنا ضيف آخر، وهو الأخ جبريل الرجوب[3]، وكان مُبعدًا حديثًا من الأرض المحتلة. جلسنا معه حتى الساعة الرابعة صباحًا، نتحدَّث عن الأرض المحتلة والانتفاضة وأطفال الحجارة. وبعد مغادرته، صعدنا

(3) جبريل محمد الرجوب (1953-): ولد في قرية دورا في مدينة الخليل، وتلقى تعليمه الأساسي والثانوي فيها. التحق بصفوف حركة فتح عام 1969. اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلية بين عامي 1970 و1985، ثم أُفرج عنه في صفقة تبادل الأسرى عام 1985. أُعيد اعتقاله بين عامي 1985 و1988، ثم أفرج عنه وأُبعد إلى تونس. عُيّن رئيسًا لجهاز الأمن الوقائي في الضفة الغربية بين عامي 1993 و2003. عُيّن رئيسًا للجنة الأولمبية الفلسطينية، وعضوًا في المجلسين الثوري والمركزي لحركة فتح منذ عام 2009، وهو يشغل أمين سر اللجنة المركزية منذ عام 2017.

الدرج معًا. توقف أبو جهاد ليسألني: "لماذا ناديت عندما انقطع التيار الكهربائي؟". فقلت له: "لا أعرف، خشيت عليك". فقال لي: "هل تعلمين؟ أخشى أن يكون ما حدث بمنزلة اختبار". فقلت له: "يا حبيبي، أرجوك لا تبقَ هنا ولا حتى الليلة، لا تنم هنا، اتصل بأحد الشباب لنقلك إلى مكان آخر". فردّ عليّ: "لا تخافي، سأسافر غدًا".

في اليوم التالي، 15 نيسان/ أبريل 1988، استيقظ أبو جهاد باكرًا كعادته، وبينما يرتدي الملابس مجهزًا نفسه للخروج، رآني وأنا متسمرة أمام شاشة التلفاز، أشاهد شريطًا قد أحضره له أحد الصحافيين عن الانتفاضة. كانت الدموع تنهمر من عينيّ وأنا أشاهد جنازة أحد الشهداء، وحزن والديه في أثناء تشييعه، فأمسكني بقوة وهزّني وقال: "إياك أن تبكي وتنهاري أمام شعبنا إذا استشهدت". ثم بدأ يسرد لي حلمًا رآه تلك الليلة، فقال: "حلمت الليلة أن الإسرائيليين يلاحقونني، وأنا أحمل مسدسي، وعندما حاولتُ إطلاق النار عليهم، سقط مني المسدس على الأرض وتكسّر". هزّني هذا الحلم، وشعرت بالخوف عليه، ولكنني سألته ضاحكة لأخفف عنه: "أنت دائمًا تحلم أن الإسرائيليين يلاحقونك، ولكن قل لي، أين كانوا يلاحقونك؟ في أي بلد؟". فأجاب: "في الرملة". فقلت له: "والله إذا هجم الإسرائيليون على هذا المنزل، هناك مرافقان أمام الباب، سيموتون قبلنا، أرجوك اترك البلد وسافر".

انشغل أبو جهاد طوال اليوم بالتحضير لاجتماع مجلس أمناء مؤسسة الرعاية الاجتماعية والثقافية العربية[4]، وهي مؤسسة عمل أبو جهاد على تأسيسها بهدف تعزيز إرادة البقاء والنمو والتطور لدى مجتمع عرب فلسطين المحتلة عام 1948، ودعم إرادة التمسك بالهوية الوطنية الفلسطينية، كما ترمي إلى صيانة التراث الوطني وإحيائه، ورفع المستوى المعيشي والاجتماعي والثقافي

(4) أعضاء مجلس الأمناء هم: الأخضر الإبراهيمي (الجزائر)، والدكتور محمود المغربي (ليبيا)، وسامي العلمي (فلسطين)، والأمير محمد الفيصل (السعودية)، والملكة دينا عبد الحميد (الأردن)، والشيخ حمد بن جاسم (قطر)، وأديب أبو علوان (فلسطين)، وسمير جريس (فلسطين)، وشريف بناني (الجزائر)، وهو أحد الأسماء المستعارة لأبو جهاد، وغسان بشارة (فلسطين).

والتنموي، والارتقاء بالمستوى الحضاري لشعبنا، وتنمية مؤسساته، والنهوض بجوانب حياته، للمحافظة على أجياله علميًا وثقافيًا واجتماعيًا وحضاريًا، وتقديم جميع ما يهيئ لهذا الشعب التمسك بوطنه والتصدي لمخططات تصفية عروبته وفلسطينيته.

عقد أبو جهاد في ذلك المساء الاجتماع التأسيسي للمؤسسة. استمر الاجتماع من الساعة الخامسة مساءً حتى الثامنة مساءً. ذهب بعدها أبو جهاد لملاقاة الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف)، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، ورئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير.

ليلة الاغتيال

كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا عندما عدت من الخارج لأجده قد وصل، وقد سبقني بعشرة دقائق إلى البيت. صعدت مسرعة إلى الطابق العلوي، ودخلت غرفة النوم، ووجدته يجلس خلف مكتبه، وكنت أحمل بيدي بعض الحلوى الفلسطينية، فقال لي: "ماذا أحضرت معك؟". قلت: "جلبة". فقال: "أكيد هي من أختنا أم صبري". قلت له: "نعم". فقال لي إنه يشعر بالجوع، ويريد أن يتناول العشاء. أسرعت بإحضار العشاء، وجلسنا لنأكل ونتحدث عن يومنا، حدّثني عن اجتماعه وعن زيارته للأخ أبو اللطف، وعن آخر تطورات الوضع في الأرض المحتلة والانتفاضة.

تحدّثنا معًا حول العديد من القضايا، وكان يطلب مني أن أجري له بعض الاتصالات مع بعض الكوادر في الخارج، ثم تلقى مكالمة هاتفية، أبلغه المتحدث فيها أن القوات الإسرائيلية قد اعتقلت فايز أبو رحمة[5] في غزة، وهو مناضل

(5) فايز شعبان أبو رحمة (1929-2013): وُلد في غزة، وأتم فيها تعليمه الابتدائي والثانوي. تخرّج في الكلية العربية في القدس في عام 1947، ودرس الحقوق في جامعة القاهرة، وتخرّج فيها عام 1951. ساهم في تأسيس نقابة المحامين الفلسطينيين في غزة، وتولى رئاستها لدورات عدة. عضو المجلس الوطني الفلسطيني منذ عام 1964. عيّنه ياسر عرفات مستشارًا قانونيًا للرئاسة وللسلطة الوطنية الفلسطينية، في عام 1994. وعُيّن في عام 1997 نائبًا عامًا، حتى استقالته بعد نحو عام.

فلسطيني، وابن عمننا". استغرب أبو جهاد من عملية الاعتقال هذه، فقد كان فايز أبو رحمة ناشطًا سياسيًا من أجل السلام، ولديه علاقات دولية واسعة، فطلب مني الاتصال بأحد الإخوة في إيطاليا للاستفسار عن الوضع والحصول على تفاصيل أكثر، بعد اتصالهم مع الداخل. واستمرينا بإجراء اتصالات حتى الساعة الثانية عشرة والنصف ليلًا.

كانت ابنتي حنان تجلس معنا، بينما نام طفلنا نضال في سريره بجانبنا، وأبو جهاد يجلس خلف مكتبه في الغرفة يرتّب أوراقه ويكتب، ويتلقى الاتصالات، وحنان تقرأ له رسالة وصلته من مخرج أفلام أميركي أراد إخراج فيلم عن أبو عمّار، من بطولة الممثل أنتوني كوين (Anthony Quinn) الذي أدّى سابقًا دور البطولة في فيلم عمر المختار. كنت أجلس على السرير عندما سألته: "ما بدك تنام؟ ما بدك ترتاح؟". فقال لي إنّه مشغول، وسيكتب رسالة إلى القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة.

ثم أخذ يتحدث إلى حنان، يسألها عما فعلته في يومها، فحدّثته عن المدرسة وعن نشاطاتها اللامنهجية، ثم قالت له: "بابا، حلمت فيك امبارح". ابتسم وقال: "والله! خير؟". فبدأت تقصّ عليه الحلم، وقالت: "رأيت نفسي أصلي في المسجد الأقصى، وجموع الشعب الفلسطيني يصلّون خلفي، ثم جاء الجيش الإسرائيلي لملاحقتي، فبدأت أركض في أزقة القدس، وبجانبي بعض الشباب الذين أمسكوا بيدي، وكانوا يساعدونني في القفز عن الحفر في الشارع، حتى وصلنا إلى منزل تقف أمامه امرأة كبيرة بالسن، عندها قال لي ابنها: 'ادخلي إلى منزلنا واختبئي، فهي أمي ولن يجدوك هنا'. دخلت إلى منزل المرأة، وصعدنا الدرج، وجلست في غرفة الضيوف في الطابق العلوي، فقال لي: 'انتظري، سأحضر لك هدية'. وبعد دقائق عادت وصعدت الدرج، وصعدت خلفها أنت يا بابا. عندها، في الحلم، ذُهلت لرؤيتك في القدس، وسألتك بقلق: 'ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وكيف وصلت؟ ألا تعرف أنّ الإسرائيليين يفتشون المكان؟ كيف ستخرج من هنا؟'. عندها أجبتني: لا تخافي يا حبيبتي، هناك حصان أبيض ينتظرني وسأذهب به". ثم قالت حنان إنها كانت تبكي في الحلم، واستيقظت والدموع تملأ عيناها.

كان أبو جهاد يستمع إلى حنان باهتمام، وبمجرد أن أنهت سرد حلمها، رفع النظارة عن عينيه، وقال لها: "آه يا بابا، أنا رايح ع القدس على حصان أبيض". في هذه اللحظة كنت ممدة على السرير، وأذكر أنني شعرت بالخوف وانقبض قلبي، وقلت في نفسي: "يا لطيف!". وغفوت على السرير وأنا أردد "يا لطيف!".

ابنتي حنان التي لم تكمل حينها السادسة عشرة، بقيت مع والدها، ثم قبّلته وذهبت لتخلد إلى النوم، ولكن الغريب في الأمر أنها عادت مرة أخرى لتقبيله؛ عادت ثلاث مرات إلى الغرفة، وفي كل مرة بحجة ما؛ لتحضنه وتقبّله. ذهبت إلى غرفتها لتنام وهو خلف المكتب وبدأ كتابة رسالته.

لحظة الصفر

لم تمر ربع ساعة، وبينما كان أبو جهاد يجلس خلف مكتبه، استيقظت على صوت هرولة الأقدام الهمجية وهي تصعد الدرج، بعد أن تمكنوا من اقتحام المنزل وكسر قفل الباب، كانوا يصرخون صرخة العسكر عند الاقتحام. في تلك اللحظة، أزاح أبو جهاد طاولة مكتبه، وركض مسرعًا نحو الخزانة وأخذ مسدسه، فركضت خلفه نحو مدخل الغرفة وصرت بجانبه وأنا أردد "فردان! فردان!"، متذكرة ليلة اغتيال القادة الثلاثة: كمال عدوان، وأبو يوسف النجّار، وكمال ناصر.

وسط هذا الصراخ، خرجت أنا وخليل إلى باب غرفة النوم، حيث يوجد ممر مستطيل الشكل عرضه متر، يفصله عن ممر الطابق العلوي باب زجاجي، كان مفتوحًا حينها، وفوجئنا بأربعة أشخاص ملثمين بكامل عتادهم العسكري أمامنا. أطلق عليهم أبو جهاد النار، فتراجعوا إلى الخلف. وبسرعة، أبعدني أبو جهاد عنه إلى الزاوية المقابلة، بينما بقي هو في الزاوية الأخرى، عندها، عاد أحد المسلحين وأطلق عليه النار فأصابه في يده وصدره وقلبه، فوقع مسدسه من يده وانكسر.

هالني رؤية الرصاص يخترق جسد أبو جهاد، فركضت لأحتضنه حتى لا يقع على الأرض، فإذا بالمسلح الذي أطلق النار يضع رشاشه على ظهري، وأشار لي بسلاحه أن أتراجع إلى مكاني، وأن أدير وجهي نحو الحائط، فوجدتُ نفسي قبالة الحائط، أقرأ القرآن الكريم وأتلو الشهادتين، وأحضّر نفسي للاستشهاد،

وكلما حاولت أن أُدير وجهي نحو أبو جهاد، كان ذلك المجرم يشير إليّ كي لا أتحرك. ثم تقدّم مسلّح ثانٍ وأمطر جسد أبو جهاد بوابل من الرصاص وهو ملقى على الأرض، وتراجع. ثم جاء ثالث واستمر بإطلاق النار، وتراجع، ثم جاء مسلح رابع، وأعاد الكرة، وتراجع؛ رصاص، رصاص، رصاص لا ينتهي. كنت أشعر بوجود عدد من المسلحين الذين تناوبوا على إطلاق الرصاص، ثم تقدّم مسلّح آخر، ودخل إلى غرفة النوم، وكان نضال ينام في سريره في غرفتنا، فقام برشق وابل من الرصاص في داخل الغرفة، هُيئ لي لحظة أنهم قتلوا نضال، الطفل الرضيع ذا العامين، إلا أنّه استيقظ مذعورًا وبدأ يصرخ. سمعت صوت صراخه وبدأت أنهار.

خرج المسلح من الغرفة وأطلق النار على أبو جهاد للمرة الخامسة! فقدت أعصابي وصرخت بأعلى صوتي "بس... بس". وعندما سمعت صوت امرأة من الأسفل تنادي عليهم باللغة الفرنسية: "هيا بسرعة"، فنزلوا يركضون.

كانت ابنتي حنان في غرفتها قد بدأت تغفو. سمعت الأصوات، وظنّت أن حرس أبو جهاد قد دخلوا البيت، وعندما سمعت صوت الرصاص خرجت مسرعة من غرفتها ورأت الممر ممتلئًا بالمسلحين والدخان والضباب وأصوات الرصاص من كواتم الصوت. وقبل أن تفهم ما يجري، سألت: "إيش في؟". كان أحد المسلحين يعطيها ظهره، وعندما سمع صوتها قفز نحوها، ووضع الرشاش على كتفها، فصرخت في تلك اللحظة: "بس... بس". فقال لها المسلّح: "روحي شوفي أمك". وركضت نحو غرفتي، وهم يركضون منسحبين نحو الدرج. شاهدت حنان أباها ملقى على الأرض مضرجًا بدمائه، فصرخت.

فأمسكت بها مباشرة وقلت لها: "ماما حبيبتي بابا شهيد، وأنت كبيرة وبتعرفي بابا منيح، إحمدي ربك عشتي معه وعرفتيه، مش زي دانا ورامي عدوان[6] ما عرفوا أبوهم". فردت علي حنان: "طيّب أنا عرفته، ونضال كيف سيعرفه؟".

انحنيت على الأرض لأرى إن كان أبو جهاد على قيد الحياة؛ أهزّه، أحاول أن أوقظه، أناديه عليه لأرى إن كان هناك أمل أن يكون به حياة، بالرغم من أني، ومن

(6) أبناء الشهيد كمال عدوان.

أول رصاصة، أحسَّست أنه ضاع مني، وأنه استشهد، ولكنني حاولت، كما حاولت حنان أن تجسّ نبضه وتناديه بلا فائدة، ثم ركضت حنان نحو شرفة الغرفة لتفتح الباب وتنادي أحدًا للمساعدة، ولكنها تعرقلت بسلك الهاتف، فتذكّرت وجود هاتف وتوجهت نحوه في محاولة لطلب رقم أحد للمساعدة، لكن الهاتف كان مقطوعًا.

أمّا أنا، فركضت نحو الشرفة لأستنجد بأحد ما، وإذا بي أرى عددًا من المسلحين يتراكضون من الجهات كلها ليتجمعوا تحت شرفتنا، وقد أحصيت قرابة 24 أو 25 مسلحًا، ورأيتهم ينسحبون وعيونهم وأسلحتهم موجهة نحوي، فبدأت أصرخ وأنادي: "يا عالم.. يا بوليس.. يا شرطة.. يا جيران.. الحقونا.. الحقونا". وحنان تنادي، ولا أحد يستجيب، كأننا نعيش وحدنا في هذا العالم! الصمت والسواد كانا يلفان المنطقة التي خلت في لحظتها من البشر ومن أي صوت، إلا مني وابنتي وأصوات استغاثاتنا، كنّا وحدنا! كم هو قاسٍ هذا الشعور بالوحدة في هذه اللحظات، لم يأتِ أحد، ولم يتحرك أحد، ولم يجب أحد! دقائق مرت بثقلها علينا كأنها أعوام، كان نضال يبكي، فحملته واحتضنته. نظرت حولي فوجدت الرصاص يملأ المكان، فوق سرير نضال، وسريرنا، فوق المكتب وعلى الجدران، والخزانة، والأوراق على المكتب، كلها مرشومة بالرصاص، أدرت وجه نضال عندما مررنا بجانب جسد أبو جهاد حتى لا يرى أباه مضرجًا بالدماء، وتوجهنا ثلاثتنا إلى الطابق الأرضي. عندما وصلت الطابق الأرضي، كان باب البيت مكسورًا ومفتوحًا على مصراعيه، والرصاص قد اخترق المكان، والجدران، والكتب.

جلست على الدرج وبكيت وقلت: "وينكم يا أهلنا؟". الشرطة لم تصل إلا بعد ساعة ونصف الساعة. خرجنا من المنزل، وخطر على بالي حينها أن أركب السيارة وألحق بهم، ولكني فكرت في الأولاد وكيف أتركهم وحدهم مفزوعين، ركضت حنان نحو السيارة، وإذا بأحد المرافقين، مصطفى، قد سقط على الأرض قرب السيارة مصابًا، كان مصطفى في الرمق الأخير واستشهد بين يديها. منعتها من ركوب السيارة، فركضت حنان لتطلب النجدة من الجيران، ولكنها عادت خائبة،

لم يخرج أحد لنجدتها، وعادت إلى البيت لنجلس، أنا وهي ونضال، على درج المنزل، بانتظار أن يأتي أحد.

التفت إلى يميني، وإذا بحبيب، الجنايني التونسي، ملقى على الأرض ملطخًا بالدماء، رآه نضال فسألني: "لماذا أوقع حبيب على وجه كاتشاب؟"، وأمامنا كانت جثة مصطفى، تمسّك بي نضال بقوة وقال لي: "ماما أنا خايف". قلت له حبيبي: "أنا خايفة كمان، ولكن لا بأس أنا معك ونحن مع بعض". أبو سليمان كان الشهيد الثالث من الحرس، وقد أطلقوا عليه النار بينما كان نائمًا في الطابق الأرضي.

وبينما كنا ننتظر على الدرج وأصرخ "وينكم يا أهلنا وينكم يا شعبنا"، صعدت إلى الغرفة لأتفقد وضع أبو جهاد، وفي كل مرة كانت بركة الدم تكبر حوله. وأخيرًا، جاء شخص يسكن قريبًا منا، علمت في ما بعد أنه كان مرافق أبو الهول (هايل عبد الحميد)، كان قد سمع صوت الرصاص ولم يخرج من بيته حتى لحظتها، سأل عما حصل، فأخبرته، فأخذ السيارة وذهب ليحضر سيارة الإسعاف ويبلغ الشرطة والإخوة. وكان بعدها الأخ أبو ماهر غنيم أول الواصلين، كما وصل مرافقو أبو جهاد. الشرطة التونسية وصلت بعد ساعة ونصف الساعة تقريبًا من حادث الاغتيال، وعندما وصلوا سألوا إن كان هناك حادث قد حصل، حيث قال لي الشرطي بالتونسي: "واش كاين، واش كاين حاد؟ Accident؟".

توقفت قليلًا وقلت في نفسي: حادث! هذا كله ويتكلمون عن حادث. قلت للشرطي: "اذهب إلى حكومتك وقل لها ماذا حدث للقائد الفلسطيني أبو جهاد". بعدها بدأ الشباب يتوافدون إلى البيت، فحملوا أبو جهاد لنقله إلى المستشفى في إحدى السيارات، وعندما وصلت سيارة الإسعاف، فنقلناه إليها وتوجهنا إلى المستشفى، ووصل الأخ أبو اللطف وأبلغه الأطباء لحظتها باستشهاد أبو جهاد. وبعد فحصه، أكد لنا الطبيب استشهاد خليل الوزير.

هذه الليلة السوداء، وهذه الذكرى، لم تغب عني أبدًا للحظة، هي بالتأكيد ليلة رعب وفزع وحزن، هي الليلة التي ودّعت فيها رفيق عمري وحبيبي وصديقي وقائدي أبو جهاد. الليلة التي أخذته مني رصاصات الغدر، بعد خمسة وعشرون

عامًا أمضيناها معًا في النضال والمقاومة. كم كانت فصول حياتنا معقدة، مليئة بالتنقل والسفر، والحروب والمعارك، والإبعاد والسرّية، لكنها كانت أيضًا مليئة بالحب والعائلة والأولاد والأمل والحُلم الكبير بالحرية. أردت أن أكون دائمًا بجانبه في النضال، وقلب المعارك، والمحطّات الرئيسة للثورة، وكنت بجانبه عندما استشهد.

لا شيء يعوضني عن فقدان أبو جهاد، وربما عزائي الوحيد هذا الوفاء والحُب كله الذي عبّر عنه أبناء شعبنا وأصدقاؤنا حول العالم بعد استشهاده، وعندما قلت "وينكم يا أهلنا؟" في الصحافة ذلك اليوم، بعد انتشار نبأ استشهاده، رُفعت الأعلام السوداء، وخرج أبناء الارض المحتلة عن بكرة أبيهم، وسقط يومها أكثر من 24 شهيدًا، رافقوا أبو جهاد إلى جنات الخلد.

لم تكن تلك أول محاولة اغتيال يتعرض لها أبو جهاد، ولكنها المرة التي نجحوا فيها. كان أبو جهاد ثائرًا ومناضلًا مؤمنًا بالقضاء والقدر، ومؤمنًا أن النضال من أجل قضيتنا العادلة سينتهي بالنصر أو الشهادة، فكان يحمل روحه على كفه، وقالها لي منذ البداية: "أنا مشروع جريح، أو أسير، أو شهيد".

لاحقًا، عندما أخبرت أبو عمّار عن تفاصيل العملية، وعن دخول المسلحين وتناوبهم على إطلاق الرصاص، قال إن هناك وحدات في الجيش، ويبدو أن كل وحدة كانت تريد المشاركة في اغتيال أبو جهاد، لذلك أُطلق عليه الرصاص خمس مرات.

"طلت البارودة والسبع ما طل
مع السلامة وين رايح
مع السلامة يا مسك فايح
يا بوز البارودة من دمو مبتل
طلت البارودة والسبع ما أجاش
يا بوز البارودة من دمو مرتاش
ما بيني وبينك سلسلة ووادي
مع السلامة يا مسك فايح"

بعد الاغتيال

لم يكن الأخ أبو عمّار في تونس يوم الاغتيال، إذ كان رفقة الإخوة أبو إياد (صلاح خلف) وأبو الهول (هايل عبد الحميد) في زيارة إلى البحرين. وصل أبو عمّار تونس في صباح اليوم التالي، وبدأت النقاشات حول مكان التشييع والدفن. كان هناك خياران تمت مناقشتهما؛ الدفن في الأردن، أو في تونس. اقترح الأخ خالد الحسن (أبو السعيد) أن يُدفن أبو جهاد في الأردن، في مقبرة أبو عبيدة الجراح، على حدود فلسطين. أما الخيار الثاني، أن يُدفن في مقبرة الشهداء في تونس، ولكني رفضت الخيارين، وقلت إنه يجب أن يدفن في سورية، حيث والده ووالدته. وكان أبو جهاد قد تحدّث إلى والدته قبل استشهاده بأيام ووعدها أنه قادم، كما أنه كان يريد الذهاب إلى دمشق للاجتماع بحافظ الأسد، لإعادة العلاقات بين حركة فتح والحكومة السورية، فظل ببالي أن أبو جهاد يريد إعادة العلاقة مع سورية، وقلت في نفسي من الممكن بعد استشهاده ودفنه هناك أن تعود العلاقات.

أجريت اتصالًا مع مدير مكتب منظمة التحرير في سورية، الأخ محمود الخالدي، وتواصلت مع السوريين لطلب تشييع أبو جهاد ودفنه في دمشق. فكان الرد السوري "أهلًا وسهلًا بالشهيد وعائلته فقط"، ولكني رفضت، فعائلة أبو جهاد هي الشعب الفلسطيني بأكمله.

في أحد أيام العزاء، حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا، حضرت زوجة السفير السوري في تونس لتقديم واجب العزاء، فطلبت منها نقل رسالتي إلى الرئيس حافظ الأسد، بأني أرغب بدفن أبو جهاد في سورية، ولكن للأسف، كان الرد مرحبًا بالشهيد وعائلة الوزير فقط، وقلت لها إن عائلة خليل ليست الوزير فقط، بل عائلته هي الشعب الفلسطيني والثورة كلها. وخرجت السيدة ووعدت بنقل الرسالة.

وفي الساعة الرابعة من عصر ذلك اليوم، اتصل بي السفير السوري وقال: "الرئيس حافظ الأسد ينقل لك تعازيه الحارة، ويقول لك أهلًا وسهلًا بالشهيد وعائلته، وكل من أراد أن يشارك في الجنازة". فطلبت منه أن يبلغ الرسالة للأخ أبو عمّار، في بيت العزاء في منطقة سكرة.

اختلف الإخوة في اللجنة المركزية عندما علموا أن الدفن سيكون في سورية بسبب العلاقات المتوترة بين الحركة والنظام السوري منذ معارك طرابلس، وجرى بينهم نقاش طويل، إلا أنّ الأخ أبو عمّار حسم الموضوع في النهاية وقال إنه سيُدفن في دمشق.

توجهت وأبو عمار إلى المشفى الذي كان يرقد فيه أبو جهاد بعد استشهاده. التقينا مع مدير المشفى الذي قدّم لنا تقريرًا يقول إنه قد استُخرجت 77 رصاصة من جسده، ثم نزلنا إلى الثلاجة وودّعناه.

وفي صباح اليوم التالي، توجهنا إلى المطار، ومعنا الجثمان، للسفر إلى دمشق. وفي المطار، أُقيمت له مراسم جنازة عسكرية، وتجمّع أبناء شعبنا والقيادة الفلسطينية والتونسية لوداع الشهيد، وقد ألقى أبو عمّار كلمة وداع، ومما قاله فيها: "يا أخي، يا حبيبي، يا رفيق دربي، يا رفيق السلاح، يا أبو جهاد، أيها القائد الرمز، قائد فلسطين، قائد الثورة، قائد الشعب. باسم أبنائك المجاهدين، وباسم أبنائك الثوّار، وباسم أبنائك المناضلين، فلسطينيين وعرب وأحرار العالم، نودعك اليوم يا أبو جهاد، نعم نودعك يا أبو جهاد، لكننا نقول: العهد هو العهد، والقسم هو القسم، أن تستمر المسيرة، وتستمر الثورة، وأن هذه الأجيال ستسمر حتى يرتفع علم فلسطين فوق القدس. دماء أبو جهاد ستكون نارًا ودمًا على أعدائنا". وغادرنا بالطائرة مع الجثمان إلى دمشق، ورافقنا، على متن الطائرة، جميع أعضاء اللجنة المركزية، ما عدا الأخ أبو عمّار الذي أتى إلى سورية بعد أيام عدة.

عند وصولنا إلى مطار دمشق، استقبلنا الأخ سليم الزعنون (أبو الأديب)، وسفير منظمة التحرير في سورية، وعدد غفير من قيادات الفصائل الفلسطينية وكوادرها، وقيادات سورية، ثم نُقل الجثمان إلى المشفى، لتتم مراسم الجنازة في اليوم التالي.

كان 21 نيسان/ أبريل 1988 يومًا مهيبًا، كان يوم الشهيد أبو جهاد، جنازة خرج فيها أكثر من مليون شخص، جابت شوارع مخيم اليرموك، بدأت الجنازة بمراسم عسكرية، وانتهت بجثمان أبو جهاد ملفوفًا بعلم فلسطين، يطير محمولًا فوق رؤوس أصابع المشيعين. يومٌ أسود وحزين، نُكسّت فيه الأعلام في الوطن

كله، وبكى فيه الرجال والنساء، شَيّعه الشعبان الفلسطيني والسوري، ومئات الوفود من جميع الدول العربية، ومن أصدقاء شعبنا حول العالم، جاؤوا للمشاركة في تشييعه إلى مثواه الأخير، وقد دُفن في مقبرة الشهداء في مخيم اليرموك. ومن المفارقات، أن أبو جهاد كان قد اشترى قطعة الأرض في المخيم ليُدفن فيها أول شهيد، وكان أبو جهاد آخر من دُفن فيها قبل أن يتم توفير قطعة أرض أخرى للمقبرة.

أُقيم العزاء في أحد نوادي مخيم اليرموك، أمّ مكان العزاء مئات الآلاف من المعزين. وبعد يومين، وصل الأخ أبو عمّار إلى دمشق، وزار مقبرة الشهداء، وزار ضريح أبو جهاد، وعندما علم أبناء المخيم بوصوله، خرجوا إلى الشوارع وحملوا سيارته وهم يهتفون للشهيد أبو جهاد وللانتفاضة.

ومن ثم، اجتمع الأخ أبو عمّار واللجنة المركزية مع الرئيس السوري حافظ الأسد الذي أبلغهم تعازيه، وكان تشييع أبو جهاد في سورية سببًا في إذابة بعض الثلوج في الخلافات بين حركة فتح والحكومة السورية.

ذهبت إلى الأردن بعد أيام عدة، بناء على طلب من سفير المنظمة، حيث كانت الحكومة الأردنية وأبناء شعبنا في الأردن يرغبون بلقائي لتقديم واجب العزاء، وعندما وصلت إلى الحدود الأردنية، كان آلاف الأشخاص وعشرات الإعلاميين ينتظرونني، وعندما سألني الصحافيون عن سبب قدومي إلى الأردن، قلت لهم إنني جئت لأشكر جلالة الملك حسين والحكومة الأردنية على ترحيبهم، واستعدادهم لتشييع أبو جهاد في الأردن.

وصلنا إلى منزل ابن عمي إبراهيم الوزير في مرج الحمام، إحدى ضواحي عمان، وبعدها بقليل جاء جلالة الملك حسين والملكة نور إلى المنزل لتقديم واجب العزاء، وعبّر جلالة الملك عن حزنه العميق، وأكّد أنه قد فقد أخًا عزيزًا، كما رحّب بي وبالأولاد، ودعاني إلى الإقامة في الأردن.

بعد مغادرته، اتصل بي جلالة الملك هاتفيًا، وكرّر دعوته لي بالعودة للإقامة في الأردن، فشكرته على دعوته. لاحقًا، أبلغني الإخوة في مكتب المنظمة أن

العُرف الدبلوماسي يستوجب أن أقوم بزيارة أشكر خلالها جلالة الملك. وفعلًا، بعد انتهاء أيام العزاء، وقبل أن أغادر إلى العراق، ذهبت إلى القصر الملكي ومعي سماحة الشيخ عبد الحميد السائح، رئيس المجلس الوطني في حينها، وابني جهاد، والأخ عبد الرزاق اليحيى.

شكرته على استقبالنا وتعازيه واهتمامه، وفي نهاية اللقاء كرر دعوته لي للعودة والإقامة في عمّان، ثم قال بلباقة عالية: "أؤمريني يا سيدتي، ماذا أستطيع أن أقدم لخدمتك؟". فأجبته: "شكرًا لجلالتك، هناك حوالي 45 شابًا معتقلين في الأردن من شباب القطاع الغربي، أرجو أن تفرج عنهم. لو أبو جهاد عايش، كان طلب منك الطلب نفسه". انتفض جلالة الملك حسين واقفًا، وقال لي: "لك سيدتي ما طلبته". شكرته وغادرت، وفعلًا، لم يمر شهر إلا وتم الإفراج عنهم.

غادرت الأردن إلى العراق، وأُقيم هناك عزاء مدة ثلاثة أيام، أمه العديد من القيادات العراقية وأبناء الجالية الفلسطينية، عدت بعدها إلى تونس. وبعد عودتي، تشاورت مع أبو عمّار بموضوع انتقالي للإقامة في الأردن، فلم يمانع. تشجعت للفكرة حتى أكون أقرب إلى أبناء شعبنا في الأرض المحتلة، خاصة في ظل الانتفاضة، لتقديم الدعم والمساندة لرعاية أُسر الشهداء والجرحى.

بعد مرور ذكرى الأربعين، زرت العديد من الدول التي دعاني إليها أبناء الجاليات، أو من حركات التحرر، وأصدقاء الشعب الفلسطيني في العالم الذين أقاموا حفلات تأبين لأبو جهاد. وفي كل دولة زرتها، كنت ألتقي مع أبناء الجالية، ومع الأصدقاء من تلك الدول، الذين عبّروا عن محبتهم لأبو جهاد، وصعوبة فقدانه، وتعرّفت خلالها إلى العديد من الشخصيات ممن حدّثوني عن لقائهم به في مرحلة ما من حياتهم، وقد زرت حينها الكويت والمغرب وليبيا والجزائر وإيطاليا وبريطانيا وبلجيكا وألمانيا، وغيرها من الدول.

مرّ عام على استشهاده، مر كالدهر، كان منزلنا في تونس وفي عمّان يعجّان بالزوار كل يوم. لم ينته عزاء أبو جهاد بعد ثلاثة أيام، إنما استمر طوال أعوام، استمر الناس والوفود القادمة من الخارج بزيارة البيت، لتقديم واجب العزاء وزيارة مكان الاغتيال في الطابق الأول، لرؤية تلك الزاوية التي تموضع فيها أبو جهاد وأطلق

رصاصته قبل أن يمطروه بسبعٍ وسبعين رصاصة، وليشهدوا على تلك الجريمة، أصبح البيت مزارًا.

عندما حلّت الذكرى السنوية الأولى لاستشهاده، قررت أن أتوجه مع الأولاد إلى سورية لزيارة ضريح أبو جهاد، وعندما وصلت دمشق، زارني أحد ضباط المخابرات لتقديم واجب العزاء، فطلبت مقابلة الرئيس حافظ الأسد لشكره على موافقته على تشييع أبو جهاد في دمشق، حيث لم يتسنَّ لي ذلك في زيارتي السابقة يوم الجنازة. وفعلًا، ذهبت للقاء الرئيس الأسد الذي استقبلني، ورحّب بي، وعبّر عن حزنه على استشهاد أبو جهاد، وفقدانه لمناضل كبير.

استمرت الجلسة أكثر من ساعتين، تحدثنا خلالها في مواضيع عدة، منها الانتفاضة والوضع العام، كما خضنا نقاشًا موسعًا حول قيام دولة فلسطينية. كان الرئيس حافظ الأسد يؤيّد قيام الدولة العربية لتكون دولة موحدة من الأقطار كافة، بما فيها فلسطين، ولم يرَ ضرورة لقيام دولة فلسطينية، إلا أنني ناقشته في ذلك، وفي ضرورة إقامة الدولة الفلسطينية أولًا، أسوة بالدول العربية المستقلة، ومن ثم نحن مع الوحدة بقيام دولة عربية.

قبل انتهاء اللقاء، سألني الرئيس حافظ الأسد إن كنت أحتاج شيئًا، وكيف يستطيع مساعدتي، فشكرته وقلت: "بدي اطلّع الضيوف اللي عندك". فقال مستغربًا: "أنا عندي ضيوف؟". فقلت له: "نعم سيادة الرئيس، عدد كبير من شباب حركة فتح معتقلين لديكم منذ الانشقاق في عام 1983، أرجو أن تفرج عنهم". فأجاب: "بصير خير"، وانتهى اللقاء. وبعد أشهر عدة، تم الإفراج عن أكثر من أحد عشر ألف معتقل من السجون السورية، وبقي حوالى 150 معتقلًا، قد تمت محاكمتهم ووُجهت إليهم تُهم، واستمر اعتقالهم.

كنت مستقرة في تلك الفترة في عمّان، وكانت ابنتي حنان تتابع دراستها في المدرسة الثانوية، بينما كان نضال في الحضانة. كنت أعود بشكل مستمر إلى تونس لحضور اجتماعات المجلس الثوري، ومتابعة القضايا العالقة والخاصة بعملي، فخلال وجودي في عمّان، كان مكتب مؤسسة رعاية أُسر الشهداء والأسرى والجرحى يعج بالمراجعين من أهالي الشهداء والأسرى والجرحى

الذين قدموا من الأرض المحتلة. كانت الأعداد كبيرة، وخاصة في ظل الانتفاضة، وكنت حريصة حينها على توفير الدعم لهم، آخذة بالاعتبار مشقة عبورهم الجسر وسفرهم إلى عمّان، الأمر الذي دعانا إلى تطوير آلية عمل تسهّل على الأهالي، حيث كنا، وبنظام معيّن، نقدّم لعائلة الشهيد رواتب أشهر عدة مقدّمًا، وكان حينها الأخ أبو عمّار لا يتوانى عن تقديم الدعم والإمكانيات كلها إلى تلك العائلات.

بعد استشهاد أبو جهاد، أعاد أبو عمّار تشكيل قيادة القطاع الغربي، وسلّمها للأخ هايل عبد الحميد (أبو الهول) الذي قاد القطاع حتى استشهاده، فانتقلت إلى الأخ عباس زكي. كنت في تلك الفترة أفكّر جديًا بالعمل في القطاع الغربي، لدعم أبنائنا في الأرض المحتلة، ودعم الانتفاضة، وقد شجعني على ذلك العديد من الإخوة أبناء الأرض المحتلة الذين أصدروا بيانات وصلت من الأرض المحتلة إلى الأخ أبو عمّار، تحتج على عدم مشاركتي في قيادة القطاع الغربي، إلا أنّ أبو عمار كان يرفض ذلك وبشدّة. وفي أحد اجتماعات المجلس الثوري في تونس، واجهت أبو عمّار بالموضوع، وقلت له: "أنت لم توافق على عملي بالقطاع الغربي!". فصرخ وقال: "إنت إيه؟ أنا خايف عليك توقفي على المقصلة مرة ثانية". لم أكن أتوقع أن يكون رده هكذا، ولم يكن موضوع الاستهداف أو الاغتيال يخطر على بالي.

بعد رفض أبو عمّار المتكرر، فكّرت، وتذكّرت كلام أبو جهاد، أننا نستطيع خدمة أبناء شعبنا ودعمهم بالطرائق كلها، وبغض النظر عن موقعنا. وبهذا، قررت أن أضع جهدي كله في خدمة أبناء شعبنا من خلال عملي في رعاية أُسر الشهداء والأسرى والجرحى، والتخفيف من معاناة عائلاتهم.

في تلك المرحلة، وبينما كنت في الجزائر للمشاركة في مؤتمر للمرأة، فاجأني مدير مكتب المنظمة هناك، الأخ أبو العز (مريد الدجاني)، عندما جاء إلى قاعة المؤتمر يبلغني بوجود طائرة خاصة أرسلها الزعيم الليبي، العقيد معمر القذافي، لأنه أراد مقابلتي. حاولت الاتصال بالأخ أبو عمّار، ولكني لم أتمكن من الوصول إليه، فاتصلت مع الأخ أبو إياد، واستشرته حول الزيارة، فقال لي: أن أذهب لنعرف ما يريده القذافي.

ركبت الطائرة، ووصلت إلى طرابلس الغرب، ومن ثم ركبنا طائرة أخرى صغيرة لتقلنا إلى الصحراء، حيث كان العقيد، وبينما كنت أنتظر موعد اللقاء، جاء مدير مكتب المنظمة في ليبيا، الأخ خطاب أبو الرب (أبو حسام)، وأبلغني أن العقيد يرغب بلقائي منفردة، فوافقت. وبعد دقائق، وصلت سيارة لتأخذني إلى خيمة العقيد وسط الصحراء.

وصلنا الخيمة التي كانت أبوابها كلها مشرعة، وكان العقيد باستقبالي، فرحّب بي، وقدّم تعازيه الخالصة باستشهاد أبو جهاد، ثم قال مباشرة: "إيش مالك إنت وأبو عمّار؟ على إيش مختلفين؟". صدمني سؤاله، فأجبت فورًا: "أبدًا، أنا وأبو عمّار لم نختلف، وهو بالنسبة إليّ الأخ الكبير والقائد". فقال: "لا، أنا وصلتني أخبار وبيانات، أن أبو عمّار يرفض أن تكوني في القطاع الغربي، ويرفض أن تكوني في اللجنة المركزية". ثم قال: "ولماذا تركتي تونس وذهبتِ للإقامة في عمّان؟".

أكدت له مرة أخرى عدم وجود أي خلاف مع أبو عمّار، كما شرحت له أن عضوية اللجنة المركزية تأتي في المؤتمر ومن خلال الانتخاب، وحدّثته عن سبب انتقالي إلى عمّان، ولكني أكدت أنني أتنقل بين تونس وعمّان، وعلى تواصل دائم مع أبو عمّار والقيادة الفلسطينية. شكرته على اهتمامه وغادرت وأنا أفكر في ما سأل عنه، وفي طرحه لمثل هذا الموضوع من الأساس، فمن شدّة إلحاحه، شعرت أنه كان يرغب، أو يتمنى، أن يكون هناك خلاف بيني وبين أبو عمّار.

عضويتي في اللجنة المركزية

كان أبو جهاد يرأس اللجنة التحضيرية للمؤتمر العام الخامس لحركة فتح قبل استشهاده، وكان قد قطع شوطًا كبيرًا في التحضيرات. كما أنني كنت عضوًا في اللجنة التحضيرية، بحكم موقعي نائب أمين سر المجلس الثوري. وبعد عام من استشهاد أبو جهاد، تحدد موعد عقد المؤتمر في صيف عام 1989، وكانت أجواء ما قبل عقد مؤتمر الحركة، وخلاله، صاخبة كعادتها، وأكثر. كانت أجواء مشحونة مليئة بالصخب والنقاشات في الأروقة حول أسماء المرشحين

لعضوية اللجنة المركزية، ومراجعات لتاريخهم النضالي وسيرتهم، بين المنتقدين والمدافعين. عندما انتشر خبر رغبتي بالترشح، جاءني العديد من الوفود التي أيّدت ترشحي وقدّمت دعمها الكامل. وفي المقابل، زارتني أيضًا وفود تنصحني بعدم الترشح، بحجة أنني إذا لم أنجح في الانتخابات، فستعتبر هذه إساءة لأبو جهاد. لم أرَ الموضوع هكذا، وإنما كنت أومن بالعملية الديمقراطية، فإذا لم أنجح، أتقبل النتيجة، وأعود لتأدية مهماتي، وأعيد المحاولة في المرة القادمة. وكنت أتذكر أنديرا غاندي، رئيسة وزراء الهند، وكان حزبها ينجح أحيانًا ويسقط أحيانًا أخرى، ولم تفقد الأمل أبدًا.

كنت، وبعد تفكير طويل، وبتشجيع من كوادر وقيادات الحركة الذين رافقوني في مسيرة نضالي منذ البدايات، قد قررت أن أترشح لعضوية اللجنة المركزية في هذا المؤتمر. كنتُ قد تبوّأت منصب نائب أمين سر المجلس الثوري في المؤتمر السابق، وقد انتخبني الأعضاء في المؤتمر الرابع لهذا المنصب، لدوري في العمل الوطني والنضالي، وفي الحروب ومعركة طرابلس، ونشاطي خلال المعركة ضمن اتحاد المرأة، ورعاية أسر الشهداء والجرحى والمهجرين.

في تلك الفترة، كان الدكتور محمد حمزة[7]، والذي عمل مع أبو جهاد قبل استشهاده، قد أصدر النسخة الأولى من كتابه عن سيرة أبو جهاد، وتفاجأت بعدها أن الأخ أبو عمّار أصدر أوامره إلى مجموعة من الضباط لاعتقال الدكتور حمزة، وقد أثار هذا القرار حفيظتي وحفيظة العديد من الكوادر، وخلق بلبلة.

في إحدى ليالي المؤتمر، وبعد أن أُعلن فتح باب الترشح، سمعت الأخ أبو عمّار منفعلًا بشدة وهو يتحدث عن الدكتور محمد حمزة وكتابه، فطلبت أن أتحدث معه على انفراد، فدعاني إلى مكتبه. ركبنا في سيارته باتجاه المكتب، وفي

(7) سمير يوسف غطاس: وُلد في القاهرة. تخرج في كلية طب الأسنان في جامعة القاهرة. انتُخب عام 1972 للجنة الوطنية العليا للطلاب. انضم إلى صفوف حركة فتح، متطوعًا في الخدمات الطبية في الجنوب اللبناني، ومن ثم انتقل للعمل في مكتب خليل الوزير. عمل مديرًا لمركز مقدس للدراسات الاستراتيجية التابع لجهاز الأمن الوقائي في بداية تأسيس السلطة الفلسطينية. واسمه الحركي محمد حمزة.

الطريق قلت له: "أخ أبو عمّار، أريد أن أفتح معك موضوعًا مهمًا؛ أنت أرسلت مجموعة من الضباط لاعتقال محمد حمزة، بينما نحن الآن في المؤتمر، لا داعي لذلك، إذا رغبت بمساءلته عن شيء، أجّل ذلك إلى ما بعد المؤتمر، ولا داعي أن يتأزم الوضع الداخلي وتخلق بلبلة". نظر إليّ، وبقي صامتًا ولم يجبني.

ثم سألته: "ولماذا تريد اعتقاله أصلًا؟". فقال: "كاتب عليّ في كتابه إني هربت بالبسكليته من معركة الكرامة". فقلت له: "وهل قرأت ذلك الكلام بنفسك في الكتاب؟". فأجاب: "لا، لكنهم أخبروني". فقلت له: "من أخبرك بذلك فهو غلطان، لقد قرأت الكتاب من الجلدة إلى الجلدة، ولا يوجد مثل هذا الكلام، فأرجوك يا أخ أبو عمار أن تدقق في الموضوع قبل اتخاذ أي إجراء بحقه".

وصلنا المكتب، فقلت له: "اليوم أعلن الدكتور نبيل شعث فتح باب الترشح للجنة المركزية، وأنا لم أقدّم استمارة الترشح بعد، أردت أن أستشيرك في الموضوع؛ هل ترغب في أن أُرشّح للجنة المركزية أم لا؟". فقال: "الله، وأنا هلاقي أحسن منك مين يا أختي! قدمي وتوكلي على الله". فخرجت من مكتبه، ودخل هو إلى اجتماع مع المجلس العسكري الأعلى، وعلمت في ما بعد أنه استهل الاجتماع وهو يوصي الحاضرين بدعم ترشحي وانتخابي لعضوية اللجنة المركزية.

خضت الانتخابات، كان ابني جهاد قد حضر إلى تونس، وبحكم تخصصه في الحاسوب، تطوّع مع لجنة الحاسوب في المؤتمر. وبعد ترشحي، خرج من اللجنة لتضارب المصالح. وبعد انتهاء التصويت وإغلاق الصناديق، بدأ فرز الأصوات، لم أشأ أن أكون وحدي في المنزل تلك الليلة بعد الانتخابات، فقررت أن أذهب لأبيت عند الأخت أم ناصر، إلى أن يحين موعد إعلان النتائج. كنت أتوقع أن تظهر نتائج الفرز في صباح اليوم التالي، إلا أنه، وفي منتصف الليل، فاجأني اتصال من أحد الإخوة طالبًا مني الحضور فورًا إلى مقر المؤتمر، وأخبرني أنني حصلت على أعلى الأصوات.

ذهبت إلى قاعة المؤتمر، وعندما وصلت، التقيت الأخ أبو عمّار الذي استقبلني بحرارة مهنئًا، وقال لي إنني حصلت على المرتبة الثانية في مجموع

الأصوات. لاحقًا، عندما صعد المنصة لإعلان نتائج الانتخابات وأسماء اللجنة المركزية المنتخبة، أعلن أنني حصلت على المرتبة الرابعة.

كان انتخابي لعضوية اللجنة المركزية للحركة حدثًا كبيرًا، كوني أول امرأة فلسطينية تُنتخب لمثل هذا الموقع، وبدأت أمارس عملي مسؤولة عن ملف الشؤون الاجتماعية، أتابع عملي، أتنقل بين تونس وعمّان لحضور الاجتماعات، ومناقشة شؤون الحركة، والوضع السياسي، كانت الانتفاضة ما زالت مستمرة، وقد شاركت في العديد من المهرجانات والمؤتمرات الداعمة للقضية الفلسطينية وللانتفاضة. كما كانت الذكرى السنوية لاستشهاد أبو جهاد تعطي زخمًا لشعبنا ونضاله، فكان أبناء شعبنا في ذكرى استشهاده يشعلون الأرض المحتلة، وفي بلدان الشتات، يحيون ذكراه كل عام.

في أحد الأيام، دعاني سمو الأمير سلمان بن عبد العزيز، أمير الرياض حينها، إلى السعودية لأداء مناسك العمرة. وعندما التقيت به، سألني إن كنت أريد أي شيء، فشكرته وقلت: "أريد فقط أن تستمروا في دعم الانتفاضة المباركة".

الفصل السابع

العودة

ما قبل أوسلو

بدأ التوتر يزداد في منطقة الخليج، وبدأت آفاق الحرب على العراق تأخذ معالمها في المنطقة وحول العالم. وبعد أن فرضت القوات الأميركية حصارها على العراق، في عام 1990، طُرحت مبادرة من الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، قدّمتها أمينة سر الاتحاد، الأخت نجلاء ياسين (أم ناصر)، وتبناها الاتحاد النسائي العربي العام، بإرسال سفينة لكسر الحصار المفروض على العراق، تحمل معها غذاء وأدوية لأطفال العراق المحاصرين، وعلى متنها وفود عربية وعالمية نسائية.

وعندما لم يستطع الاتحاد النسائي العربي العام تدبر الأمر ماديًا وإحضار السفينة، قام الأخ أبو عمّار بتوفير السفينة وتسديد تكاليفها. تجمعت الوفود النسائية في المغرب، ومن هناك، أبحرت السفينة باتجاه بغداد، مرورًا بالجزائر، وتونس، ثم اليمن. وفي كل محطة، تصعد إلى ظهر السفينة وفود نسائية من تلك البلد.

لم يكن هناك مفر من مشاركتي في هذه الرحلة، خاصة وأن رئيسة الاتحاد النسائي العراقي، منال يونس، قد هاتفتني أكثر من مرة، وأصرت على وجودي على متن السفينة مع الوفود النسائية. حاولت الاعتذار، وقلت لها إن لديّ طفل، ولا أستطيع التغيّب عنه فترة طويلة، فاقترحت أن ألقاهن في المحطة الأخيرة، في عدن اليمن، ومن هناك لن تستغرق الرحلة أكثر من ثلاثة أيام، وأعود بعدها إلى الأردن. فوافقت، وفعلًا، ذهبت إلى صنعاء، ثم إلى عدن، والتحقت بالسفينة هناك.

مرّ اليومان الأولان بهدوء. كانت السفينة تعجّ بالوفود النسائية من الأقطار العربية كافة، وأصدقاء من بعض الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأميركية، وكانت اللقاءات والمحاضرات وحلقات النقاش تُدار يوميًا. وفي فجر اليوم الثاني،

وبينما الجميع نيام، انطلق جرس الإنذار على متن السفينة، وبدأنا نسمع أصوات طائرات الهليوكبتر فوقنا، وشاهدنا قوات المارينز وهم ينزلون على الحبال على ظهر السفينة. كانوا بلباسهم العسكري الكامل وعتادهم وأسلحتهم، ووجوههم مموهة باللون الأسود.

وبعد أن سيطروا على السفينة، طُلب من الجميع البقاء في غرفهم، وبدؤوا يسجلون أسماء الراكبات، ويجمعون جوازات سفرهن، ويفتشون السفينة. صرخت بعض الأخوات عليهم، وأطلقن الشعارات المعادية للولايات المتحدة والحصار على العراق، فقام المسلحين بالاعتداء عليهن بالضرب.

بقيت السفينة راسية في مياه الخليج، يحيط بها أكثر من 18 بارجة وحاملة طائرات. وبينما نحن ننتظر، كنا نراقب البوارج من ظهر السفينة، ونشاهد الطائرات تهبط عليها وتقلع. طال انتظارنا، وطالت الأيام والسفينة في مكانها لا تتحرك.

وأخيراً، بعد 21 يومًا، أُفرج عن السفينة، وسُمح لها بالتحرك، بعد أن صادر المارينز جميع ما تحمله السفينة من مواد غذائية وأدوية، وعندما اقتربنا من ميناء أم قصر في محافظة البصرة، جاءت زوارق بحرية عراقية لترشدنا خلال عبورنا إلى حقل ألغام بحرية، فسارت السفينة ببطء، بينما لفنا القلق خوفًا من انفجار لغم بحري حولنا. فور وصولنا بغداد، كانت الحافلات تنتظرنا، وتوجهت بنا مباشرة إلى المطار، إلى طائرة للعودة مباشرة إلى الأردن. غادرت، ووصلت عمّان في رحلة استغرقت أسابيع عدة، بدلاً من ثلاثة أيام.

وصلت البيت في عمّان بتاريخ 14 كانون الثاني/ يناير 1991، متلهفة لرؤية الأولاد، فوجدت ابنة عمتي التي كانت ترعاهم في غيابي تبكي، خفت أن يكون قد أصاب الأولاد مكروهًا في غيابي، فسألتها ماذا حصل؟ وإذا بها تبلغني بنبأ اغتيال الأخوين أبو أياد وأبو الهول في تونس. كانت صدمتي بنبأ اغتيالهم كبيرة، وبكيتهم كثيرًا، فها هم أخوتي في النضال يسقطون شهداء واحدًا تلو الآخر. ولم نكد نصحو من صدمة اغتيال القادة، حتى وصلتنا الأنباء ببدء الحرب على العراق.

أثناء فترة المفاوضات السرية في أوسلو، في النرويج، بين المنظمة وإسرائيل،

انتشرت شائعة مفادها أن أبو عمّار ينوي العودة إلى الأرض المحتلة. لم نكن نعرف من أين ولماذا ظهرت مثل هذه الشائعة، ولا كيف ومتى سينزل، إن كانت هذه المعلومات صحيحة. لم أستطع أن أُخرج الفكرة من رأسي، لقد سيطرت على تفكيري، وبدأت أحلم بالعودة إلى الوطن، ولقاء الأهل والأحبة في غزة، بعد غياب دام أكثر من ثلاثين عامًا، والاقتراب أكثر من أبناء شعبنا للعمل داخل الأرض المحتلة.

وفي أحد الأيام، وقبل إعلان اتفاق أوسلو[1]، كنت في زيارة إلى الأخ أبو عمّار في قصر الضيافة في عمّان، عندما طلب مني مرافقته إلى عيادة سماحة الشيخ عبد الحميد السائح في بيته أثناء مرضه. وفي الطريق، سألته إن كان فعلًا سينزل إلى الأرض المحتلة، قلت بحماس شديد: "هل هذا صحيح؟". فضحك وقال لي: "وانت إيش رأيك؟". فقلت له: "إذا فعلًا نويت النزول، فأنا أريد أن أنزل معك". قال: "والله!". قلت له: "نعم". فقال لي: "خلاص"، بمعنى موافقته على مرافقتي له إلى الأرض المحتلة.

وعندما أُعلن اتفاق أوسلو، ضجت الساحة الفلسطينية بالاتفاق، وعُقدت اجتماعات متلاحقة للقيادة الفلسطينية لنقاشه. اجتمعنا في اللجنة المركزية بشكل مكثف، وكانت الاجتماعات محتدة بين موافق ومعارض ومتحفظ. أذكر أنني حينها اعترضت على عدم وجود أي اتفاق للإفراج عن أسرانا في سجون الاحتلال. وجاءتني الإجابة حينها أن هذا الموضوع "تحصيل حاصل!"، ولكن، لم يكن لدي أي ثقة بالتزام الجانب الإسرائيلي بذلك منذ البداية. كما اعترضت لاحقًا على اتفاقية باريس الاقتصادية. في هذا الاجتماع قال الأخ أبو مازن: "هذا الموضوع أمامكم، يا بتاخذوه كله يا بترفضوه كله".

بعد إعلان الاتفاق، سألني أبو عمّار إن كنت لا أزال أرغب في العودة إلى الوطن، فأجبته "طبعًا بنزل!" حتى طلعت مني كلمة "As soon as possible". وعدت

(1) اتفاق أوسلو: اتفاق عُقد بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، في العاصمة النرويجية أوسلو، بتاريخ 13/ 9/ 1993، وهو ما عُرف بـ"إعلان المبادئ الفلسطيني - الإسرائيلي حول ترتيبات الحكم الذاتي والانتقالي".

إلى البيت، وعندها بدأت المشاعر تتضارب، وكاد رأسي ينفجر من كثرة التفكير. أصابتني حالة هلع وقلق شتّتت تفكيري، عجزت معها عن اتخاذ قرار.

تصارعت الأفكار والمشاعر بين رغبتي بالعودة إلى الوطن، وبين صعوبة أو جدوى العودة في ظل اتفاق كهذا. كنت في حالة تناقض كبيرة دفعتني للاتصال بأبو عمّار للاعتذار عن تعييني في أول وزارة للسلطة الفلسطينية، فيقنعني لأوافق، وما ألبث أعتذر مرة أخرى في اليوم التالي.

فكرت بعمق، كنت أحسب ما يمكن أن يفهمه بعض الناس من هذه الخطوة، هل هي خيانة؟ هل هي خطوة تمحو تاريخي النضالي كله؟ هل أعود أم أبقى في المنفى؟ أسئلة وأفكار وهواجس كثيرة رافقتني طوال أشهر منعتني من النوم، صدّعت رأسي. ولربما كان حديثي مع بعض الإخوة، ومنهم الأخ مروان البرغوثي[2]، هو ما شجعني على اتخاذ القرار والعودة ضمن الاتفاق.

كانت الساحة الفلسطينية في تونس قد ضجت بالاتفاق بين مؤيد ومعارض. تكثفت اللقاءات والاجتماعات والكولسات والتحليلات، والجميع يبحث عن التفاصيل، ويناقش الوضع العام والخطوات القادمة، والترقب كان سيد الموقف. وفي خضم هذه الأجواء، أذكر أن الأخ أبو عمّار طلب مني مرافقته في زيارة رسمية إلى بريطانيا، كانت الأولى من نوعها. توجهنا ضمن وفد برئاسته وعضوية كل من الأخ أبو اللطف (فاروق القدومي) وأنا. لدى وصولنا، أُقيم لنا استقبال رسمي.

انسابت دموعي وأنا أرى العلم الفلسطيني يرفرف في ساحة المطار إلى

---

(2) مروان حسيب البرغوثي (1958-): ولد في قرية كوبر، شمال مدينة رام الله. تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس بلدة بيزريت، ودرس في جامعة بيرزيت عام 1983. تعرض للاعتقال والمطاردة إثر نشاطه المقاوم للاحتلال، وأبعد إلى الأردن بين عامي 1987 و1994. انتُخب عضوًا في المجلس الثوري لحركة فتح عام 1988. وأمين سر لحركة فتح في الضفة الغربية عام 1994. انتُخب نائبًا في المجلس التشريعي بين عامي 1996 و2006. ساهم في تأسيس كتائب شهداء الأقصى، الذراع العسكري لحركة فتح في الضفة الغربية إبان الانتفاضة الثانية، عام 2000. اعتقلته قوات الاحتلال الإسرائيلي عام 2002، وحكمت عليه بالسجن المؤبد خمس مرات وأربعين عامًا. انتُخب عضوًا في اللجنة المركزية لحركة فتح عام 2016.

جانب علم بريطانيا. بريطانيا، سبب نكبة شعبنا ووعد بلفور تعترف اليوم بوجود الشعب الفلسطيني. كانت لحظة تاريخية استرجعت خلالها مآسي شعبنا ونضالاته التي أوصلتنا إلى هذا المكان.

كانت الزيارة مهمة، عقدنا خلالها في صباح اليوم التالي لقاءً مع رئيس الوزراء البريطاني في 10 داونغ ستريت. وفي هذا اللقاء، دار نقاش حول اتفاق أوسلو والقضايا المهمة المؤجلة. كما تطرق الأخ أبو عمّار إلى موضوع حق شعبنا في الأموال المتبقية في عهدة بريطانيا، والتي كانت عبارة عن غطاء الذهب للعملة الفلسطينية، قامت بريطانيا بالسيطرة عليها قبل انتهاء الانتداب البريطاني لفلسطين. ولاحقًا قامت بريطانيا بالتبرع بجزء منها لإسرائيل، بعد إعلان قيام الدولة، وجزء آخر تبرعت به للأردن، فطالب الأخ أبو عمّار رئيس الوزراء البريطاني بإعادة المبلغ المتبقي لشعبنا.

عقدتُ لقاءً مع وزيرة التعاون الدولي البريطاني، وكان لقاءً مثمرًا، وعدت خلاله الوزيرة بتقديم الدعم والمساندة للسلطة الفلسطينية الناشئة. كما انضممت لاحقًا إلى وفود الأخ أبو عمّار الرسمية، إلى مجموعة من الدول، منها إندونيسيا وتركيا والصين. كانت زيارات مهمة أطلع خلالها الأخ أبو عمّار قيادات هذه الدول على مستجدات اتفاق أوسلو، وحصل خلالها على دعم هذه الدول وتعاونها لإنجاح المشروع.

عودة بعد ثلاثة عقود إلى غزة

"وأنا أقرأ لك أتخيلك وأنت تكتب، أرى وجهك،
جلستك، حركة يديك، مكتبك... فأشتاق أكثر!"،

رضوى عاشور

في أحد الأيام، جاء في نشرة أخبار إذاعة "مونتي كارلو" الدولية، مساءً، أن أبو عمّار سيعود غدًا إلى غزة عن طريق القاهرة. قلت في نفسي أبو عمّار سينزل ولم يخبرني. وفي الساعة الرابعة فجر اليوم التالي، رنّ جرس الهاتف، وإذ به مدير مكتب الأخ أبو عمّار، وقال لي: "أبو عمّار بقولك تنزلي عن طريق أريحا،

ومن أريحا إلى غزة، وسوف يقابلك هناك في غزة"، ثم أضاف: "وبتاخذي معك المرافقين والسيارات". كان معي سيارتان؛ سيارة مصفحة لأبو عمّار، ركنها عندنا في البيت في عمّان، وسيارة مصفحة أيضًا لأبو جهاد. وأعطاني رقم الأخ جميل الطريفي للاتصال به والتنسيق معه، فتواصلت مع الأخ جميل وأبلغته أنني سأنزل مع أولادي، فقال لي: "لا يمكن، تأتين وحدك مع المرافقين ومن دون الأولاد". فقلت: "مستحيل، لا يمكنني ذلك. إذا ولادي مش معي ما بنزل!". وبقينا من الساعة التاسعة صباحًا حتى الساعة السابعة مساءً ونحن على تواصل، ومع كل اتصال أؤكد على الجملة نفسها والموقف ذاته.

في الساعة السابعة مساءً، وردني اتصال آخر منه قال لي: "لقد وافقوا، تفضلي أنت والأولاد والسيارتان والمرافقان". كان سيتزل معي حينها جهاد وباسم ونضال وإيمان وزوجها. أما ابنتي حنان، فقد كانت قد عادت مع زوجها إلى رام الله في 9 نيسان/ أبريل 1994. فقد أُبعد زوجها أحمد الديك خلال الانتفاضة، وعادت معه وطفلتها فرح يوم عودة المبعدين ضمن المجموعة الأولى حسب الاتفاق.

فور وصول الموافقة، توجهنا إلى الجسر لعبوره إلى أريحا. أتممنا إجراءات الدخول وتسجيل الجوازات والسيارات والمرافقين، واتجهنا مباشرة إلى غزة.

على طول المسافة بين أريحا وغزة وأنا أنظر من الشباك، وأرى وطني أول مرة منذ ثلاثة عقود. آه كم هي جميلة طبيعة بلادنا! تغيّرت كثيرًا، لم أعرف أسماء المناطق التي مررنا بها، فكل شيء تغيّر. تمنيت أن أبو جهاد معي يستنشق رائحة الوطن. أخذتني الأفكار بعيدًا بين ذكريات الماضي وقلق من المستقبل. كان الصمت يلفنا في السيارة، كل منا يفكر، يتأمل الطريق، ويحاول أن يستوعب أننا هنا. كان الفرح الممزوج بالحزن. سرنا مسافة ساعة ونصف الساعة، واضطررنا إلى التوقف وتغيير الطريق، بعدما خرجت أمامنا مظاهرة نظمها يهود متطرفون ضد الاتفاق، لكننا أكملنا طريقنا ووصلنا إلى غزة.

توجهنا مباشرة إلى منزل أخي في غزة، واستقبلنا أبناء العائلة، استقبلونا بالدموع والزغاريد. لم نُخفِ دموعنا، فنحن أخيرًا في غزة. رائحة البحر تلفنا. غزة الحبيبة، كم اشتقت إليك. كم اشتقت إلى أهلي وأهلك، أين أنت يا أبو جهاد؟

عادت ذكريات الماضي كأنها بالأمس. هذا الطريق مشينا فيه أنا وأبو جهاد، وهنا جلسنا على شاطئ البحر، وهذه مدرستي، وهذه بيوت مررنا بها. تغيّرت المعالم كثيرًا بعد طول الغياب، لكن ذكرياتنا فيها لم تتغير.

غمرتنا محبة الناس بعد عودتنا، وعدنا إلى الحضن الدافئ لشعبنا، حيث توافدت وفود المهنئين بالسلامة والعودة من جميع بقاع الوطن في غزة والضفة الغربية والأراضي المحتلة عام 1948.

في ذلك اليوم، توجهنا إلى مدينة رفح لاستقبال الأخ أبو عمّار. كانت في استقباله جماهير غفيرة على طول الطريق، بين غزة ورفح. وصل أبو عمّار، وسجد على الأرض وقبّلها، وانطلق بموكب مهيب، عشرات الآلاف من مستقبليه، وتوجهنا إلى المجلس التشريعي في غزة، وصعدنا إلى المنصة، حيث تجمهر أبناء شعبنا بمئات الآلاف في ساحة الجندي المجهول. كانوا يهتفون ويحملون أعلام فلسطين وصور أبو عمّار وأبو جهاد. أصابتني نوبة بكاء وأنا أقف بجانبه على المنصة؛ هذا الحب كله، وهذه الجماهير. في كل لحظة تذكرت أبو جهاد الذي ظلّ حيًا في قلوب أبناء شعبه.

وزارة الشؤون الاجتماعية

كان الأخ أبو عمّار قد شكّل الحكومة الفلسطينية الأولى في تونس، قبل العودة إلى الوطن، لتباشر عملها على الأرض فور عودتنا. وكلّفني حينها بوزارة الشؤون الاجتماعية. ترددت قبل قبول التكليف، إلا أنني وافقت في النهاية، وامتثلت لتكليفه لي، باعتبارها مهمة نضالية جديدة أستطيع من خلالها الاستمرار في خدمة أبناء شعبنا لدى عودتنا إلى أرض الوطن. وفور عودتنا إلى غزة، عقد الأخ أبو عمّار الاجتماع الأول لمجلس الوزراء الفلسطيني، برئاسته، في فندق فلسطين، مقر إقامته، إلى حين إعداد مكتب له عُرف في ما بعد باسم "المنتدى".

كان الوضع على الأرض صعبًا جدًا، لم تكن هناك أي بنية تحتية غير البنى الركيكة والمهترئة التي سمح الاحتلال بوجودها. كان المجتمع الفلسطيني قد خرج لتوه من أعوام طويلة للانتفاضة المجيدة التي خلّفت الآلاف من عائلات

الشهداء والأسرى، وألقت بظلالها على بنى المجتمع، وعلى مناحي الحياة كافة، من بطالة وفقر ومشاكل اجتماعية.

تركّز العمل الاجتماعي بشكل كبير قبل عودتنا بما كانت تقدّمه بعض مؤسسات المجتمع المدني حينها، وعلى رأسها لجان المرأة للعمل الاجتماعي التابعة لحركة فتح، والتي كانت تقدم أقصى ما تستطيع لخدمة المجتمع الفلسطيني ضمن الموارد المالية الشحيحة. وقد كان دور لجان المرأة للعمل الاجتماعي محوريًا قبل عودتنا، ومع بداية عملنا، حيث استطعنا من خلال هذه اللجان، وقبل عودتنا بأشهر، توزيع مخصصات عائلات الشهداء والجرحى في المحافظات الشمالية والجنوبية كافة، وبشكل مباشر، للمرة الأولى، لتخفيف عبء سفر هذه العائلات إلى الأردن لتسلّم مخصصاتهم.

وفور عودتنا، دار نقاش مطوّل حول تبعية مؤسسة رعاية أسر الشهداء والجرحى بعد قيام السلطة، وتقرر حينها، وبناء على رغبة الأخ أبو عمّار، أن تلحق المؤسسة كإدارة عامة ضمن إدارات وزارة الشؤون الاجتماعية، وذلك لصعوبة تمويلها إذا بقيت منفصلة عن الوزارة. وبالفعل، تم ذلك، واستمرت تبعية المؤسسة لوزارة الشؤون الاجتماعية إلى ما بعد استشهاد الأخ أبو عمّار، حينما تشكلت لجنة الفصل بين مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة، وتقرّر، بناءً على قرار المجلس الوطني الفلسطيني، أن تعود مؤسسة رعاية أسر الشهداء والجرحى لتتبع منظمة التحرير.

بدأت عملي، فور وصولي إلى غزة، في تأسيس الوزارة، وتطوير هيكليتها واستراتيجياتها، ووضع خطط عملها، وتطوير الخدمات الاجتماعية التي سنقدمها لأبناء شعبنا. وقد تولى حينها الدكتور ذياب عيوش[3] موقع وكيل الوزارة،

(3) ذياب علي محمود عيوش (1943-): ولد في قرية ميثلون قضاء جنين. حصل على درجة الدكتوراه في علم الاجتماع جامعة الإسكندرية. ترأس مؤسسات أكاديمية عدة، ومنها: جامعة بيت لحم بين عامي 1982 و1989، وجامعة القدس المفتوحة بين عامي 1990 و1994، وعُيّن وكيلًا لوزارة الشؤون الاجتماعية بين عامي 1998 و2001، وأمين سر لمجلس التعليم العالي الفلسطيني بين عامي 2001 و2005.

بينما كان الأخ وحيد مطير مديرًا عامًا لها. واستحدثنا فور وصولنا مديرية تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية في كل محافظة، وعُيِّن موظفون جدد، بحسب الهيكل الوظيفي المقر. وبدأنا مأسسة العمل في المركز والمديريات، وطوّرنا ونفّذنا مجموعة كبيرة من المشاريع التي انعكست بشكل واضح على فئات مختلفة من أبناء شعبنا، من النساء والمسنين والفقراء وذوي الاحتياجات الخاصة والأسرى، وغيرهم من الفئات المستفيدة، من خلال برامج تنموية، ومراكز تأهيل وتدريب واستيعاب، ومشاريع تطويرية، وبرامج مهنية.

ولعل مشروع إعادة تأهيل الأسرى المحررين من أهم المشاريع التي تم تطويرها وتنفيذها في بدايات العمل، إذ كان يهدف المشروع إلى تأهيل الأسرى المحررين لإعادة دمجهم في المجتمع، وزيادة فرص انخراطهم في الحياة العملية، وتوفير قوتهم. وقد قدّم المشروع للمستفيدين، والبالغ عددهم نحو 12000 أسير محرر وأسيرة محررة، فرصة استكمال تعليمهم الجامعي، أو التعليم والتدريب المهني، وتطوير قدراتهم المهنية. وقد كان المشروع بدعم من الحكومة السويسرية. وتقدم المؤسسات المحلية ومراكز التدريب التابعة للوزارة التدريب المهني اللازم، مدفوع الأجر من الوزارة.

أنشأت الوزارة مراكز لتأهيل المرأة في خان يونس وجباليا وغيرها، إضافة إلى تطوير مبدأ البيت الآمن للنساء المعنفات، والذي عملت الوزارة على توفيره في محافظات عدة، ومشاريع لمعالجة الفقر والبطالة.

كانت علاقة وزارة الشؤون الاجتماعية بالمجتمع الأهلي وجمعياته علاقة مبنية على الشراكة والتكامل في تقديم الخدمات وتوفيرها لأبناء شعبنا في مختلف المواقع. كما استطعنا تطوير شراكاتنا وشبكة علاقتنا بما ينسجم مع رؤيتنا وضرورات العمل على المستوى الدولي، حيث تعاونت الوزارة مع العديد من المنظمات الدولية، واستقبلت الوفود الرسمية والشعبية لرصد الدعم، وإطلاعهم على أوضاع أبناء شعبنا واحتياجاتهم، في ظل ممارسات الاحتلال، ومصادرة مصدر رزقهم، والأسر والاعتقال، وتقطيع أوصال العائلات. واستمرت الوزارة بعقد الاتفاقات لدعم عملها مع العائلات المحتاجة، منها اتفاق مع منظمة الغذاء

العالمي التي قدّمت لنا مساعدات غذائية لتوزيعها على الأُسر المحتاجة، ودعمًا ماديًا شهريًا لأكثر من خمسين ألف أسرة فلسطينية محتاجة في الضفة الغربية وقطاع غزة.

بقيت في موقعي وزيرة للشؤون الاجتماعية في حكومات عدة، كان آخرها في عام 2005، واستطعت من خلال هذا الموقع أن أستمر في دعم أبناء شعبنا؛ الأسرى والجرحى والمهمشين وعائلات الشهداء، حيث كانت تجربة يومية تعكس مرارة الواقع الفلسطيني الأليم، ومعاناة أبنائه اليومية لتأمين حياة كريمة. لقد حاول الاحتلال، وبشكل ممنهج، ضرب النسيج الاجتماعي الفلسطيني، وخلق ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية تدفعه للتنازل والهجرة، إلا أن شعبنا صمد وناضل وتحمل ليبقى مغروسًا في هذه الأرض. ومهما كتبنا عن قصص الصمود والمعاناة التي عاشها أبناء شعبنا، والتي عايشتها بشكل يومي، فلن نستطيع أن نولي الشهداء والأسرى وأمهاتهم حقهم.

في 20 كانون الثاني/ يناير 1996، خُضت التجربة الديمقراطية الأولى على أرض الوطن، يوم تقدمت بالترشح لعضوية المجلس التشريعي عن دائرة غزة، وعندما تحدد موعد الانتخابات وموعد بدء الحملة الانتخابية، خضت تجربة متميزة وصلت خلالها إلى قاعدة شعبية واسعة في الدائرة، إذ عقدت العديد من اللقاءات خلال الحملة مع مختلف قطاعات أبناء شعبنا، وكنت من المرشحين الذين حصلوا على أعلى الأصوات حينها. وأُلّفت الحكومة الثانية (الأولى بعد الانتخابات)، وأُعيد تكليفي بحقيبة وزارة الشؤون الاجتماعية.

في عام 2006، وبعد مرور 12 عامًا على تسلّمي وزارة الشؤون الاجتماعية، قررت أن أترك العمل في الوزارة، وأبلغت الأخ أبو علاء قريع، وكان رئيس الوزراء المكلف حينها، بعدم تسميتي في التشكيلة الوزارية القادمة. وفي الانتخابات التشريعية الثانية التي جرت على نظام القوائم النسبية في 25 كانون الثاني/ يناير 2006، أُعيد انتخابي على قائمة حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح".

الملاحق

رسالة من خليل الوزير إلى انتصار الوزير

كل دفقة من دمي .. وكل خفقة من فؤادي .. كل جزء من كياني .. [illegible]
من اجل جميعا هتاف يمجد حبك .. ويتغنى بجمالك .. وبحبك ارددّ .. [illegible]
على نغمات قيثارة الثريا والجوزاء .. [illegible]
[illegible] .. [illegible] ..
قد تقسو علينا يوما [illegible] .. حيث اننا نجد [illegible] الذي [illegible]
[illegible]
من [illegible] .. [illegible] .. مثل هذا [illegible] .. لماذا [illegible] .. ؟ [illegible]
قلب [illegible] .. [illegible] .. [illegible]
لكل [illegible] .. [illegible] بابتسامة [illegible] .. [illegible]
عن [illegible] .. لقد هزتني [illegible] الوثابة المتطلعة إلى الفداء .. ولعمري [illegible]
[illegible] .. [illegible] مصيبة [illegible]
.. ما [illegible] .. [illegible] .. ليثمر مع الأيام [illegible]
[illegible] قسوة [illegible] .. وتقلبات الأيام .. [illegible]
[illegible] .. أجل .. ذلك [illegible] ..
[illegible] .. [illegible] ..
.. [illegible] ..
[illegible] .. [illegible] ..
إلى [illegible] .. [illegible] .. لقد [illegible]
[illegible] .. [illegible] .. [illegible]
[illegible] .. [illegible] .. انا بخير .. [illegible] .. [illegible]

رسالة من انتصار الوزير إلى خليل الوزير

سعادتنا وجهادنا [illegible] واقول لك [illegible]
[illegible] [illegible] بالنزول [illegible]
[illegible] واحد وهدف واحد هل عرفتني؟! ..
عزيزي .. لقد اخترت طريقك [illegible] على الحياة [illegible]
الواجب [illegible] هذا الطريق [illegible] بالاشواك ولقد وضعت يدي بيدك لنتابع السير في
الطريق معاً ولا اقول هذا مجرد مجاملة لك في احبك واخاف ان افقدك لا ولكني
اقول ما يناشدني ضميري وقلبي وعقلي على [illegible] واجبي المقدس كما هو واجبك
[illegible] والايام كفيلة ان تبرهن لك [illegible] .. فما احببتك إلا
[illegible] احببت [illegible] على شيء آخر وادعو الله ان [illegible]
وان يهيّء لنا [illegible] طريقنا نحو مستقبلنا معاً وعندها [illegible]
الطريق وكفانا حبنا هو اقوى وقود .

حفل زفاف خليل الوزير وانتصار الوزير (1962)



في شهر العسل



كليمنص خوري وأم جهاد في معسكر حموريا (1969)



أم جهاد في معسكر حموريا تقود طابور المتدربات



تدريب في معسكر حموريا



دورة تدريب في معسكر حموريا (سورية، 1968)



أم جهاد مع محمود درويش في حفل تأبين شهداء فردان؛ كمال عدوان، وأبو يوسف النجار، وكمال ناصر (بيروت، 1974)



أم جهاد وأبو جهاد مع أبنائهم باسم وإيمان وحنان (بيروت، 1980)



أم جهاد وأبو جهاد (طرابلس، 1983)



أبو جهاد وأم جهاد على متن السفينة المغادرة من طرابلس،
ويظهر في الصورة مروان كيالي وأبو هاجم



على متن السفينة إثر الخروج من طرابلس (1983)



باسم مع والده (يوغسلافيا، 1984)



الملك حسين في استقبال أعضاء المجلس الوطني (عمّان، 1984)



أم جهاد في دورة المجلس الوطني السابعة عشرة (عمّان، 1984)





أم جهاد في جامعة الدول العربية



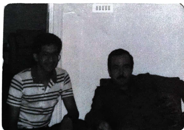
أم جهاد وأبو عمار في مؤتمر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وتظهر في الصورة كل من سلوى أبو خضرا، ونهاية محمد، وخديجة أبو علي، وعصام عبد الهادي (تونس، 1985)



أم جهاد وأبو جهاد (عمّان، 1986)



باسم الوزير مع والده



في آخر لقاء للأبناء باسم وإيمان وحنان مع والدهم قبل الالتحاق بالجامعة، في قصر الصنوبر (الجزائر، 1986)



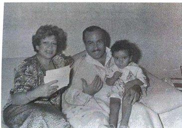
أم جهاد وأبو جهاد (عمّان، 1986)



أم جهاد وأبو جهاد (1987، تونس)



أبو جهاد وأم جهاد مع ابنهما نضال (تونس، 1987)



أم جهاد وأبو عمار في إعلان الاستقلال في المجلس الوطني الفلسطيني، ويظهر في الصورة هاني الحسن، وطلعت يعقوب، وأحمد عبد الرحمن (الجزائر، 1988)



أم جهاد وأبو جهاد مع ابنهما جهاد وابنتهما حنان (1988)



أم جهاد وأبو جهاد (1988)



المنزل الذي استشهد فيه أبو جهاد في تونس حي سيدي بوسعيد



وداع جثمان الشهيد أبو جهاد (تونس، 1988)





تشييع جثمان الشهيد أبو جهاد (سورية، 1988)





أم جهاد مع كل من الأب عيّاد ومروان البرغوثي وحنان عشراوي وباسم الوزير (فيينا، 1991)



فهرس عام

— ح —

ي

هذا الكتاب

تروي انتصار الوزير (أم جهاد)، سيرتها ورحلة نضالها مع زوجها ورفيق دربها خليل الوزير (أبو جهاد)، وتوثّق بدايات تأسيس حركة فتح، كما عاشتها واطّلعت عليها، حيث عايشت تحولات ومنعطفات في مسار الحركة الوطنية الفلسطينية. وهي التي أسست أول خلية نسائية لحركة فتح، وتولت قيادة قوات العاصفة مؤقتًا. ورحلت وتنقلت حيثما تطلب الواجب النضالي، فطبعت البيانات ونقلت الرسائل والسلاح، وشاركت في معسكرات التدريب. توثق أم جهاد كذلك تجربتها في العمل النسائي، وتأسيس الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وكيف استطاعت المواءمة بين دورها أمًا وزوجة ومناضلة، وصمودها في جميع المراحل الصعبة، ولعل أقساها اغتيال رفيق دربها أمام عينيها. تمكّنت أم جهاد أخيرًا من العودة إلى فلسطين في تموز/يوليو 1994، بعد اثنين وثلاثين عامًا أمضتها في الغربة والمنافي.

انتصار الوزير (أم جهاد)

مناضلة فلسطينية شاركت في الثورة الفلسطينية في مرحلة مبكرة من حياتها. ساهمت في بناء التنظيم النسائي، وترأست مؤسسة أسر الشهداء والأسرى والجرحى. وكانت عضوًا في المجلس الثوري واللجنة المركزية لحركة فتح، وعضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني. وهي أول وزيرة للشؤون الاجتماعية بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، وعضو المجلس التشريعي الفلسطيني، ورئيسة الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية.

السعر: 10 دولارات

ISBN 978-614-445-436-7





المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies